

# خلاصة التصوّف المسيحي

٢

في طريقي الاستنارة والطهارة

وضعه أدولف تانكره

ترجمة الأرشمندرت يوسف فرج ق.ب.

لا مانع من طبعة

دير الصايغ، في ٤ أيار عام ١٩٥٦

الأرشمندريت أغسطينوس فرح

الرئيس العام للرهبانية الباسيلية الشويرية

ليطبع

بيروت، في ٥ أيار في عام ١٩٥٦

فيلبس نعمه

متروبوليت بيروت وجبيل وتوابعهما

الينبوع الحي

٤

### الطرق الثلاث

ان ما بسطناه من البادئ العامة في الجزء الاول يلائم كل النفوس، وهو مجموعة من الوسائل تقودنا الى الكمال الأسمى. لكن في الحياة الروحية، كما بينا سابقا، درجات متفاوتة ومراحل مختلفة يجب المرور بها. فلا بد من تمييزها وتوفيق المبادئ العامة على حاجات النفوس الخصوصية. اننا لا نعتمد على الاخلاق والاميال والدعوة فقط، بل على درجة الكمال التي بلغتها ايضا، كي يتسنى للمرشد تدير كل نفس وفق ما يلائمها.

اما الغاية من القسم الثاني فهي ملازمة النفس اثناء ارتقاءاتها المتتالية منذ الهنية الاولى التي رغبت فيها النمو رغبة صادقة حتى أسمى درجات الكمال: طريق طويل وشاق، غير ان المرء يذوق فيه أعذب التعزيزات ايضا!

سنعرض قبل وصف هذه الطرق الثلاث: اساس هذا التمييز الطريقة الرشيدة للاستفادة من التمييز. الفائدة الخصوصية في هذا القسم الثاني.

### اساس تمييز الطرق الثلاث

إذا استعملنا عبارة الطرق الثلاثة التطهير، والاستنارة والمشاهدة، فذلك لكي نطابق اللهجة التقليدية. لا بد من الملاحظة اننا لا نعني هنا ثلاث طرق متآزية أو متباعدة (أعني مختلفة الاتجاه)، بل ثلاث مراحل مختلفة مدى الطريق ذاتها، أو بعبارة أخرى ثلاث درجات أساسية للحياة الروحية، التي تجتازها النفوس الكريمة الملبّية صوت النعمة الالهية. في كل من الظرف مراحل كثيرة سنين أهمها، فعلى المرشدين أن يعيروها اهتمامهم. كذلك لمزاج كل نفس ودعوتها وارساليتها الالهية صور وأنواع تتعلق بها. يمكننا، مع القديس توما، إن نحصر درجات الكمال في ثلاث، حسب ما يكون الانسان مبتدئا أو آخذاً في النمو، او بالغاً غاية الحياة الروحية على الارض، ومن ثم يرتكز تقسيم الطرق الثلاثة على السلطة والعقل معاً.

## على سلطان الكتاب المقدس والتقليد

أ) إننا واجدون حقاً في العهد العتيق آيات عديدة توافق تصنيف الطرق الثلاث.

وقد دعم الفاريس ده باز رأيه بهذه الآفة التي أستمء منها تقسيمه: ((جانب الشر واصنع الخير ابءع السلام واتبعه)) (مزمور ١٥: ١٣). جانب الشر: ءونك تطهير النفس أو طريق التطهير. أصنع الخير او مارس الفضيلة: هذا هو طريق الاستنارة. ابءع السلام: لا يمكن وجود السلام إلا بالاتءاء بالله. هنا طريق الاتءاء. تفسيره بءيع محكم. لكن ينبغي الانرى في هذه الآفة برهاناً قاطعاً.

ب) يمكننا ان نورد من العهد الجديد كلمات السيد المسيح التي هي جوهر الامور الروحية: (من أراد أن يتبعني فليكفر بنفسه ويحمل صليبه ويتبعني) (لوقا ٩: ٢٣). الكفر بالنفس هو الءرءة الاولى وحمل الصليب يفرض الممارسة الوضعية للفضائل، هو الءرءة الثانية. ويتبعني في الحقيقة هي الاتءاء الوثيق بالله بيسوع ربنا، طريق الاتءاء. هنا اساس التمييز الحقيقي. لكن ليست بالبرهان الحاسم.

لا يعلم القءيس بولس تمييز الطرق الثلاث صريحاً، بل وصف ثلاث حالات للنفس مهدت السبيل لهذا التمييز.

## مقدمة

١) حين يذكر ما كان المصارعون يصنعون لنيل إكليل السبق الفاني، يشبه ذاته بهم وهو نفسه يجتهد أيضاً في السباق والمصارعة، لكنة بدل ملاكمة الجو يجمع جسده ويستعبده لكي ينجو من الخطيئة والنفي الذي هو عقابها ((أسابق انا لا على الارتياح وأولاكم لا كمن يقارع الجو. بل اجمع جسدي واستعبده حذار أن أكون أنا نفسي مردولاً بعدما وعظت غيري)) (اكو٢٦:٩و٢٧). دونك رياضات التوبة والامانة وقمع الجسد وتطهير النفس. وكثيراً ما يذكر المسيحيين بخلع الانسان العتيق وصلب الجسد مع رذائله ورغباته. وهذا ما يعرف بطريق التطهير.

٢) ويعلن في رسالته الى الفيلبيين انه لم يبلغ الكمال بعد، بل يتبع معلمة كي يدركه منطلقاً نحو الهدف لا يلتفت الى الوراء ((لا أحسب أني قد أدركت لكن امراً واحداً اجتهد فيه وهو أني أنسى ما ورأيت وامتد الى امامي، فأسعى نحو الأمد لأجل جعالة دعوة الله العليا في المسيح يسوع)) (فيلبي ١٣:١٤و٣). ثم يقول ((أسألکم ان تقتدوا بي كما أنا أقتدي بالمسيح)) (اكو٤:١٦). هذه هي مميزات طريق الاستنارة.

٣) يصف طريق الاتحاد بمظهرية: طريق الاتحاد الساذج اي السعي لجعل يسوع حياً في الانسان دائماً ((أنا حي لا أنا بل السيح حي في)) (غلا٢:٢) وطريق الاتحاد الخارق المصحوب باختطافات روحية ورؤى وإيحاءات: ((أنى أعرف رجلاً في المسيح اختطف الى السماء الثالثة منذ أربع عشرة سنة أني الجسد لست أعلم الله يعلم، ام خارج الجسد لست أعلم الله يعلم. قد اختطف الى الفردوس وسع كلمات تفوق الوصف)) (٢كو ١٢:٢و٤).

في رسائل القديس بولس اذن اساس حقيقي لتمييز الطرق الثلاث سيحدده التقليد.

ج) كل الالباء والقديسين الصوفيين ان فضيلة المحبة ثلاث درجات تقابل الطرق الثلاث أو المراحل الثلاث.

## على العقل

ان العقل ايضاً يرينا صوابية هذا التمييز. بما ان الكمال يقوم جوهرياً بمحبة الله، فهناك درجات للكمال تقابل درجات المحبة.

أ) قبل الوصول الى كمال المحبة، يجب تطهير النفس من نقائصها الماضية وصونها من الخطايا في المستقبل. والشرط الاول لمشاهدة الله في الحياة الاخرى، والاتحاد به في هذه الحياة، هو طهارة القلب ((طوبى للأتقياء القلوب فانهم يعاينون الله)). (متى ٥:٨). والحال ان هذه تطلب تكفيراً عن الخطايا الماضية، وتوبة صارمة ومحاربة الحس والاميال الفاسدة والصلاة والتأمل والرياضات لتقوية الارادة على التجارب. فجمال هذه يسمى الطريق المطهرة.

ب) متى تطهرت النفس، يجب أن تتحلى بالفضائل المسيحية البناءة الوضعية، كي تشبه يسوع وتتبعه خطوة خطوة وبممارسة الفضائل الادبية والالهية معاً، تنشئ استعدادات يسوع الداخلية، فتسير بذلك في طريق الاستنارة ((من تبني فلا يمشي في الظلام)) (يو ٨:١٢).

ج) يدنو الوقت بعد أن تكون النفس قد تطهرت من نقائصها، ومرنت وتقوت وامثلت الهامات الروح القدس، فتتوق الى الاتحاد الوثيق بالله، فتلتزمه في كل مكان، وسط أكثر المهام إشغالاً، فتلازمه وتنعم بحضرتة، وتتضح صلاتها العقلية فتصبح نظيراً وودياً عاطفياً طويلاً. تلك هي طريق الاتحاد.

### الطريقة الرشيدة للاستفادة من هذا التمييز

ان الاستفادة من هذا التمييز تتطلب كثيراً من الذوق والدمائة. فينبغي درس كل نفس درساً خاصاً مع علاقاتها المميزة. وحتماً درس المبادئ التي سنعرضها.

أ) لا يمكن تمييز الطرق الثلاث على وجه حاسم. ينتقل الانسان من طريق الى اخرى دون ان يشعر. ولا يمكن وضع حد فاصل بينها.

ب) في كل طريق عدة درجات مختلفة. من النفوس من هي ذات ماضٍ مثقل يجب التكفير عنه، وغيرها قد حفظت طهارتها. فلو تساوت الامور للفريقين، لالتزم الاولون أن يمارسوا التوبة زمناً أطول من الاخرين. وهناك تباين ظاهر في الاخلاق والنشاط والشجاعة والثبات. فنفس تمارس رياضات التوبة بحميّة وغيرها لا تمارسها الا كرهاً.

ج) في ادارة النفوس تهلكة مزدوجة يجب تجنبها: يرغب البعض اجتياز الدرجات السفلى بسرعة كي يبلغوا الى المحبة الالهية، وغيرهم يتخبطون في مكانهم في الدرجات السفلى لخلوهم من الاندفاع أو لبعدهم عن طريق. فعلى المرشد أن يفهم الاولين أن محبة الله هي أمر عظيم، لا يتوصل إليها الا بالكفر بالذات والتوبة. وان يشجع الآخرين وينصحهم، إما ليضرم حرارتهم، او ليساعدهم على اتقان اساليبهم في الصلاة العقلية وفحص الضمير. فتأمل العقلي يناسب المبتدئين عادة. والتأمل العاطفي يلائم النفوس النامية. والتأمل الساذج وارتفاع العقل يوافق طريقة الاتحاد فدرس هذه الطرق مفيد وضروري للمرشد، كي ينصح ويهدى يفيد، وللمسترشد كي يفهم أحسن فهم نصائح مرشدة، ويستفيد منها أفضل فائدة.

# تطهير النفس أو الطريق المطهرة

ماذا ينبغي ان يفهم بالمبتدئين

## صفات جوهرية

ميزة الطريق المظهرة أو حالة المبتدئين هي تطهير النفس بقصد الوصول الى الاتحاد الوثيق بالله. المبتدئون في الحياة الروحية هم أولئك الذين، اذ يعيشون عادةً في حالة النعمة، عندهم بعض الرغبة في الكمال، غير انهم يحفظون علائق بالخطيئة العرضية، ويتعرضون من وقت الى آخر للسقوط في بعض الخطايا الثقيلة. فلنشرح هذه الحالات الثلاث:

(أ) يعيشون اعتيادياً في حالة النعمة. اذن يحاربون عموماً التجارب الثقيلة بنجاح. لذلك نستثني من يرتكبون غالباً الخطيئة المميتة ولا يهربون من أسبابها، الذين هم بلا ريب ضعيفو الارادة في توبتهم. ليس هؤلاء بسائرين نحو الكمال. انهم خطأً دنيويون عليهم قبل كل أمران ينفصلون عن الخطيئة واسباب ارتكابها.

(ب) عندهم بعض الرغبة في الكمال او في النمو، ولو كانت هذه الرغبة ضعيفة او غير كاملة بعد؛ اذن ليسوا اولئك الدنيويين الكثرين الذين بغيتهم الوحيدة في تجنب الخطيئة المميتة. لكن ليس عندهم شوق صادق الى النمو. فالشوق هو الخطوة الاولى الى الكمال.

(ت) لهم بعض علائق مع الخطيئة العريضة الاختيارية، فهم يرتكبونها بتواتر. وهكذا يتميزون من النفوس السائرة في طريق النمو، الجادة في قطع كل علاقة مع الخطيئة العرضية، ولو ارتكبوها أحياناً اختيارياً. ودليل هذه العلاقة هو ان أهواءهم غير مروضة بعد. ينشأ عن ذلك حركات جسدية شهوية متواترة ومقبولة وكبرياء وزهور وغضب وحسد وغيره، وأقوال وأفعال ضد المحبة الخ ... كم من المعروفين بالتقى يحفظون هذه العلائق التي تحملهم على ارتكاب خطايا عريضة عن عمد وبذلك نفسه تعرضهم للسقوط أحياناً في خطايا ثقيلة!

## في إن المبتدئين فئات مختلفة

أ) النفوس الطاهرة التواقفة الى النمو في الحياة الروحية. ان بعض الاولاد والفتيات والاشخاص من العالم لا يكتفون بتجنب الخطيئة الثقيلة، بل يريدون صنع بعض أمور أعظم لأجل الله ويرغبون في ان يتكلموا. منهم عدد عظيم، حبذا لو عني الكهنة بإيقاظ هذا الشوق فيهم الى الكمال، المسيحي والجمعيات المختلفة الرعائية.

ب) التائبون الذين بعد ان يخطئوا ثقيلًا يرجعون بإخلاص الى الله.

فلكي يبتعدوا عن الهاوية أكثر، يواصلون التقدم بحماسة في طريق الكمال هنا أيضاً نستطيع القول، ان عدد التائبين يتكاثر جداً، إذا اعتنى المعرفون بتذكيرهم، انه يجب عليهم السير قدماً كي لا يرجعون الى الوراء، وان الوسطة الوحيدة الفعالة لاجتناب الخطيئة المميتة انما هي الاتجاه الى الكمال.

ت) الفاترون الذين بعد ان أسلموا ذواتهم لأول مرة ونجحوا بعض النجاح، يسقطون في الرخاوة والفتور. هؤلاء يلزمهم العودة الى ممارسة طريق التطهير الشاقة، ويفتقرون الى تنقيح عمل الكمال حتى ولو كانوا قد بلغوا طريق الاستنارة. فلمساعدتهم في جهودهم يجب ان يصانوا من اخطار الرخاوة والفتور، وان يحاربوا اسبابها التي هي عموماً: الطيش او الخفة والاهمال، وشيء من الجبانة.

## المبتدئون طبقتان

منهم من يظهرون اندفاعاً شديداً ويظهر غيرهم اندفاعاً ضعيفاً.

أ) من النفوس من تتأمل وتصلي وتفهم حسناً ضرورة التضحيات للنمو في الروحيات، لكنها لفقدتها الشجاعة هي معرضة للسقوط في بعض ظروف الخطيئة: انها تحب التمتع اعد في غرور العالم، فتقع احياناً في خطيئة ثقيلة، لكنها تنهض سريعاً بما انها تطبع صوت الله الداعي اياها الى التوبة، بالرغم عن تحريضات العالم ووسوسات الشيطان. انهم يتألمون في زوال الخيرات الارضية وبطلانها وفي الموت، ويطابقون الارادة الالهية، الوسطة العظمى للكمال، فيكون في مأمن من تجارب العالم والشيطان.

ب) النفوس التي وان تكن مع تعلقها بعد بالعالم. ففيها بعض رغبات صالحة وتصلى بعض صلوات، غير ان عقلها طافح اعتيادياً بالكثير من المهام المسيطرة على أفكارها، واهواءها الخاصة تصدها عن النمو. مع ذلك ترغب ان تتجنب الخطيئة وتعمل اعمالا غير حميدة. الا انها تجتهد ان تجمع بين التقوى وحياة العالم، فإيمانها غير مستنير بكفاية وارادتها ليست قوية وسخية تماماً، لتتجنب لا الخطيئة فقط بل ظروفها الخطرة ايضاً.

لا تعقل ضرورة صلاة متواترة وتوبة وامانة صارمتين. مع ذلك تريد فوق عمل خلاصها التقدم في محبة الله بقيامها ببعض التضحيات.

لا نبحث عن هاتين الطبقتين تتابعاً، لان ما نبيده اليها من الوسائل هو في النهاية واحد لا يتغير. فعلى المرشد ان يراعي ذلك في مشوراته الخصوصية التي ينصح بها هاتين الفيئتين. فيلفت انتباه احدهما الى خباثة الخطيئة ومفاعيلها، والى ضرورة تجنب اسبابها، ويضم فيها رغبة شديدة في الصلاة و في عمل التوبة والامانة. ويشير على النفوس السخية، في ما عدا ذلك، بالتأمل المستطيل ومحاربة الخطايا الرئيسية، اعني محاربة الاميال الداخلية التي هي أصل كل الخطايا .

## الهدف المقصود

قلنا ان الكمال يقوم جوهرياً في الاتحاد بالله بواسطة المحبة. فيما ان الله هو القداسة بالذات، فلا نستطيع ان نتحد به الا إذا ملكنا طهارة القلب المتضمنة هذين العنصرين: التكفير عن الماضي ونزاهة القلب عن الخطيئة وأسبابها في المستقبل.

ان تطهير النفس هو اول عمل يفرض على المبتدئين.

يمكننا ان نزيد عليه ايضاً ان النفس تتحد بالله أوثق اتحاد بقدر ما تكون أظهر وأنزه. فيكون التطهير أكمل او اقل كمالا بحسب البواعث التي تلهمه، وحسب ما يصدره من المفاعيل.

أ) يبقى التطهير ناقصاً ولا سيما ان أوعزت اليه اسباب الخوف والرجاء الخوف من جهنم والرجاء في السماء وفي الخيرات السماوية. فنتأجه غير كاملة: لا شك اننا نكف عن ارتكاب الخطيئة المميته

التي تحرمنا السماء لكننا. لا نفلع عن ارتكاب الخطايا العرضية حتى الاختيارية منها لان هذه ليست عائقاً لخلاصنا الابدي.

ب) اذن يوجد تطهير أكمل، بدون ان ينفي الخوف ولا الرجاء، باعثة الاولي محبة الله والرغبة في إرضائه، وفي الوقت نفسه تجنب كل ما يغيظه ولو كان طفيفاً. يحققه قول المخلص للمرأة الخاطئة: ((ان خطاياها الكثيرة مغفورة لها لأنها أحبت كثيراً)) (لو ٧:٤٧). هذا التطهير الثاني هو الواجب على النفوس الصالحة ان تقصده. لكن فليتذكر المرشد ان كثيراً من المبتدئين غير جديرين بالارتقاء اليه في البداية. ولا ينس حين يتكلم عن محبة الله، ان يعرض بواعث الخوف الرجاء التي تفعل بأكثر شدة في نفوسهم.

## تقسيم الطريق المطهرة

اذ قد عُرِّفت الغاية، فالموضوع يقضي بتعيين الوسائل الضرورية لبلوغها. وهي في الحقيقة تنحصر في وسيلتين: الصلاة التي تنيلنا النعمة، والامامة التي بها نلبي صوت النعمة. غير ان الامامة تسمى بأسماء مختلفة حسب الظواهر التي نقدرها بها: تسمى توبة عندما تجعلنا نكفر عن الخطايا الماضية. وتسمى امامة بحصر المعنى، عندما تقاوم محبة اللذة لتقليل عدد الخطايا في الحاضر وفي المستقبل. وتسمى مصارعة الخطايا الرئيسية، حين تكافح الاميال العميقة التي تحملنا على ارتكاب الخطيئة، وتسمى محاربة التجارب حين تصد هجمات اعدائنا الروحيين.

كل هذه الوسائل تفرض صريحاً ممارسة الفضائل الالهية والادبية في درجتها الاولي: لا يستطيع الانسان ان يصلي ويصنع توبة، ويميت ذاته بغير ايمان ثابت بالحقائق الموحاة، وبغير ان يرجو خيرات السماء وبغير ان يحب الله، وبغير ان يتمرن على الفطنة والعدل والقوة والقناعة. لكننا لا نبحث عن هذه الفضائل الا في طريق الاستنارة حيث تبلغ ملء نموها.

## صلاة المبتدئين

### ضرورة الصلاة

لقد بينا سابقاً طبيعة الصلاة ومفعولها. فينبغي بعد ان ذكرنا المبتدئين هذه المفهومات: أولاً. ان نطبع في عقولهم ضرورة الصلاة وشروطها. ثانياً: ان نهذبهم شيئاً فشيئاً في ما يوافقهم من الممارسات الروحية. ثالثاً: ان نعلمهم التأمل.

ما قلناه عن غاية الصلاة المزدوجة أعني العبادة والطلب، يرينا ضرورتها حسناً. انه لمن الواضح اننا كمخلوقات وكمسيحيين، نلتزم أن نمجد الله بالعبادة والشكر والمحبة، وكخطأة نلتزم ان نقدم له واجباتنا التعويضية. غير ان الكلام خصوصاً هو عن الصلاة كطلب، وعن ضرورتها المطلقة كواسطة للخلاص والكمال.

ضرورة الصلاة مبنية على ضرورة النعمة الحالية. من حقائق الايمان اننا بدون الصلاة في عجز تام عن ان نخلص، وبالأحرى عن ان نبلغ الكمال مهما عملنا من الصالحات بذواتنا وبحريتنا، لا نستطيع ان نتهياً للتوبة ولا للثبات زمناً معتبراً، ولا للثبات الى الممات، كما قال يسوع لتلاميذه ((بدوني لا تقدرتون تعملون شيئاً)) (يو ١٥: ٥). حتى اننا لا نفكر فكراً صالحاً كقول القديس بولس (( لا انا فينا كفاءة لان نفتكر فكراً بأنفسنا كأنه من أنفسنا بل كفاءتنا من الله)) (٢ كو ٣: ٥). ((ان الله هو الذي يعمل فيكم الارادة والعمل حسب مرضاته)) (فيلبي ٢: ١٣).

انها حقيقة راهنة ان الصلاة هي الواسطة القانونية الفعالة العمومية، التي يريد الله ان ننال بها النعم الحالية، ما خلا النعمة الاولى الممنوحة لنا مجاناً دون ان نصلي، لأنها مبدأ الصلاة نفسه. وقد قال السيد المسيح مبيناً ضرورة الصلاة ((اسألوا فتعطوا اطلبوا فتجدوا .... لان كل من يسأل يعطى ومن يطلب يجد)) (متى ٧: ٨). كأنه يقول على حسب تفسير الآباء: ان لم تطلبوا فلا تأخذون البتة وان لم تفتشوا فلا تجدون ابداً. ويذكرنا ضرورة الصلاة حين مقاومة التجربة. ((اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة)) (متى ٢٦: ٤١). ان الله يريد ان تكون صلواتنا المحرك لرحمته، لكي نعرفه انه المصدر لما يمنحنا من الخيرات.

ان التعليم المسيحي الروماني يقول ((اعطيت الصلاة لنا كواسطة ضرورية للحصول على ما نرغبه. وفي الواقع ان من الامور ما لا نقدر ان نناله بدون مساعدة الصلاة)). (القسم الرابع اعد ٣).

## شروط الصلاة

بعد ان أثبتنا ضرورة النعمة الحالية لكل ما لا بد منة من الاعمال للخلاص، نستنتج ان هذه النعمة هي ضرورية كي نصلي حسناً. هذا ما يصرح به القديس بولس: ((كذلك الروح يعضد ضعفنا فانا لا نعلم ماذا نصلي كما ينبغي ولكن الروح يشفع فينا بأناات لا توصف)) (رو٨:٢٦). ان هذه النعمة ممنوحة للجميع حتى للخطاة؛ ان الجميع قادرون على الصلاة. وان تكن حالة النعمة غير ضرورية للصلاة، فأنها تزيد بشكل عجيب قيمة صلواتنا لأنها تجعلنا اصدقاء الله واعضاء يسوع الحية. سنبحث عن الشروط المطلوبة للصلاة: من جهة الموضوع ومن جهة المصلي.

## الشروط من جهة الموضوع

ان الشرط الاهم هو ان لا نطلب من الخيرات الا ما يقودنا الى الحياة الابدية. قبل كل نطلب النعم الفائقة الطبيعة ونطلب في الرتبة الثانية الخيرات الزمنية، بحسب ما تكون مفيدة لخلاصنا. هذه هي القاعدة التي وضعها سيدنا يسوع ((اطلبوا اولاً ملكوت الله وبره وهذا يزياد لكم)) (متى٦:٣٣). ان سعادة الانسان مثل كماله تقوم في امتلاك الله، وبالوقت نفسه في النعم الضرورية لهذه الغاية. فعلياً اذن ان لا نطلب شيئاً لا صلة له بهذه الغاية.

أولاً. ان الخيرات الزمنية بذاتها هي أخط منا بكثير، ولا تليق بإرضاء رغبات قلوبنا ويجعلنا سعداء، كي تكون موضوعاً أساسياً لصلواتنا لكن بما اننا نحتاج على وجه ما، الى هذه الخيرات لنعيش ونضمن خلاصنا، يسوع لنا انطلب خبزنا اليومي، خبز الجسد كطلبنا خبز النفس بإخضاعنا الاول للثاني. في الواقع يتفق احياناً ان تكون مثل هذا الخبز الخصوصي الذي يبدو لنا مشتته كالغني، خطراً على خلاصنا، اذن لا يمكننا ان نطلبه الا إذا كان له صلة بالخيرات الابدية.

ثانياً. حين يختص الامر بهذه النعمة الخصوصية، او بتلك يقتضي ايضاً الا نطلبها الا بمطابقتها الارادة الالهية. فالله بحكمته غير المتناهية أعرف منا بما يوافق كل نفس، حسب حالتها وحسب درجة كمالها. وقد لاحظ القديس فرنسيس سالس ((يجب ان نريد خلاصنا كما يريد الله، ونريد ما قسمه الله من النعم ونقبلها بعزم مطلق، ونخضع كل شيء لإرادة الله. لا شك انه يسمح لنا بأبداء رغبتنا، لكن بخضوع متضع لإرادة ابينا السماوي: انه يستجيب لنا دائماً إذا صلينا كما يجب. لكنه يمنحنا احياناً أكثر وأفضل ما نطلب.

## الشروط من جهة الفاعل اي المصلي

ان الشروط الأكثر جوهرية للتيقن من مفعول صلواتنا هي: التواضع والثقة والانتباه، او أقله العناية الجدية ان نكون منتبهين.

اولاً. ينجم التواضع من طبيعة الصلاة ذاتها. لان النعمة هي جوهرية مجانية، ليس لنا فيها أدنى حق. نحن كما يقول القديس أغسطينوس، بالنسبة الى الله، مستعطون وعلينا ان نلتمس من رحمته تعالى ما لا نستطيع ان نناله من باب العدل. هكذا كان يصلي ابراهيم، ويعد ذاته بحضرة العزة الالهية قليلاً من التراب والرماد ((اتكلم امام سيدي وانا تراب ورماد)) (تك ١٨: ٧). ودانيال كان يصلي طالباً نجاة الشعب اليهودي متكللاً على غزارة المراحم الالهية لا على استحقاقات وفضائله: ((امل اذنك يا ألهي واسمع، افتح عينيك وانظر أخرجتنا والمدينة التي دعي اسمك عليها فانا لسنا لأجل برنا نلقى تضرعاتنا امامك بل لأجل مراحمك الكثيرة)) (دا ٩: ١٨). وهكذا صلي العشار فاستجيب ((اللهم ارحمني انا الخاطيء)) (لو ١٨: ١٣). اما الفريسي المتكبر فرذلت صلواته ((كل من رفع نفسه اتضع ومن وضع نفسه ارتفع)) (لو ١٤: ١٨). والرسول يعقوب يقول: ((ان الله يقوم المتكبرين ويعطى نعمة للمتواضعين)) (يعقو ٤: ٦). لان المتكبر ينسب مفعول صلواته الى نفسه، بينما المتضع ينسبه الى الله.

ثانياً. التواضع الحقيقي يولد الثقة باستحقاقات يسوع واحتقار ذواتنا، ويعرفنا شقاءنا ويعطف الله علينا ليرحمنا: لان الفاقة تستدعي الرحمة. والابتهاال الى الله بثقة هو في الحقيقة احترامه، والتصريح بانه مصدر كل الخيرات وبعد ان قال المسيح: ((من يطلب ...)) زاد على قوله: ((اي انسان يسأله

ابنه خبزاً فيعطيه حجراً...فاذا كنتم انتم الاشرار تعرفون ان تمنحوا العطايا الصالحة لأبنائكم فكم بالبحري ابوكم الذي في السماوات يمنح الصالحات لمن يسأله)) (متى ٧:٩-١١). إذن من لا يثق بالصلاة ثقةً مطلقة يرتاب في الله، وفي وعوده ويستخف باستحقاقات يسوع وبوساطته الكلية القدرة.

ثم ان الله الصالح يصم اذنه عن سماع صلواتنا، لأنه يريد ان تكون ثقتنا به ثابتة، وان يزداد شعورنا بشفائنا. ويظهر انه يجافينا حتى نغتصبه ونزعجه بلجاجة طلبنا، كما يرينا بمثل الكنعانية (متى ٢٢:١٥).

ثالثاً. ينبغي ان نضيف الانتباه الى الثقة الثابتة لكي نفكر في ما نقوله لله. إذا جئنا في رد التشتت غير الاختياري وقللنا عدده، لا يكون هذا التشتت عائقاً للصلاة، لان نفسنا لا تبحر متجهة الى الله بقوة ما نبذله من الجهد. اما التشتت الاختياري الذي نتعمده ولا نرده الا بتوانٍ، او الذي لا نريد ان نقطع اسبابه، فهو في الصلوات الأمور بها خطيئة عرضية، وهو في غير الأمور بها تهاون وقلة احترام الله، لا تحمله على استجابة صلواتنا: لان الصلاة هي مقابلة يريد مبدعنا ان يمنحناها، الصلاة هي محادثة ابينا بها نلتمس منه ان يتنازل ويصغي لأقوالنا ويسمع سؤالنا (( لأقوالي أصخ ايها الرب تفهم تأوهي. اصغ الى صوت استغاثتي يا ملكي وإلهي فإني إليك أصلي )) (مزمو ٥:٢ و٣). اما يكون في عدم الايمان انتباهنا وتشتتنا مناقضة ونقض في التدين؟ اما نستحق ما وجهة المخلص من التوبيخ للفريسيين: (( هذا الشعب يكرمني بشفتيه واما قلوبهم فبعدين مني ))

(متى ١٥:٨).

ما نقوى عليه من الانتباه في صلواتنا هو ذو ثلاث شعب:

(١) حين نجتهد في تحسين لفظ الكلام يكون الانتباه لله لفظياً، ويقضي له بعض الجهد لنفكر في ما نقول.

(٢) إذا اجتهدنا مفضلين فهم معنى الكلام يدعى الانتباه حرفياً او عقلياً.

(٣) إذا تركنا المعنى الحرفي وارتقت النفس الى الله تعبه وتباركه وتتحده به، او لنلج روح السر الذي نكرمه، او لنطلب الى الله كل ما تطلبه الكنيسة، وفي كل ما يطلبه يسوع للنفس يكون الانتباه سرياً.

ان هذا الانتباه الاخير لا يناسب المبتدئين البتة. لكنه يلائم بالأحرى النفوس المتقدمة. امّا ما ينبغي ان يوعز به الى المبتدئين بتذوق طعم الصلاة ولذتها، فهما شكلا الانتباه الاول والثاني حسب طبع كلّ وامياله، وحسب الظروف الموجودة فيها.

## رياضات المبتدئين

لما كانت الصلاة احدى أعظم وسائل الخلاص، فعلى المرشد ان يدخل المبتدئين شيئاً فشيئاً في ممارسة هذه الرياضات الروحية التي تؤلف لحمة حياة مسيحية حقاً، ملاحظاً فيهم السن والدعوة وواجبات الحالة، والطبع والاميال الفائقة الطبيعة ونموهم.

أولاً. ان الغاية الواجب تتبعها، انما هي البلوغ تدريجياً الى تعويد النفوس الصلاة، او الممارسة الاعتيادية للصلاة، حتى تكون حياتهم على منوال ما حياة صلاة. لكن من الواضح ان ذلك يقتضي وقتاً لا بأس فيه، وجهودها مستطيله للذنو من هذا المثل الاعلى، الذي ليس هو في مقدرة المبتدئين، بل على المرشد ان يعرفه كي يحسن ارشاد تائبه.

ثانياً. ان أخص الرياضات التي تمارس لتحويل حياتنا الى صلاة مألوفة هي ما عدا صلوات الصبح والمساء التي لا ينفك عن تلاوتها المسيحيون الصالحون.

أ) تأمل الصباح الذي سنعود قريباً الى الكلام عنه، والقداس الالهي مع التناول المقدس الذي يرينا المثل الأعلى الواجب اتباعه، ويساعدنا على تحقيقه. لكن من الافراد من لا يستطيعون ان يحضروا كل يوم بسبب واجبات حالتهم. فهؤلاء يستعيضون عنه بتناول روجي، يتمكنون من عمله في نهاية التأمل، حتى حين انهما كهم في الاشغال اليدوية. وعلى كل حال يجب تلقينهم عادة الاستفادة حسناً من القداس والتناول، حين يقدر على حضوره، وعلى التناول السري، اذ يطابقون قدر وسعهم ما قلناه. ولا سيما باتباعهم فروض ليتورجيات الاحاد والاعياد: ان الليتورجيا المفهومة حسناً هي من أفضل مدارس الكمال.

ب) عليه، سحابة النهار ان يشير عليهم علاوة على تقدمه الاعمال المهمة غالباً تقدمه متجددة بعض عواطف تقوية. وبعض تلاوات.

حسنة عن الحقائق الاساسية الموافقة لحالة نفوسهم، وعن عاقبة الانسان وعن الخطيئة والامامة، وعن الاعتراف وفحص الضمير، مضيفاً الى هذه بعض التلاوات من حياة القديسين المشهورين بممارسة فضيلة التوبة هذه كلها تكون نوراً للعقل، ومحركاً للإرادة، ووساطة سامية تسهل التأمل. اما صلاة بعض بيوت من السبحة بالتأمل في اسرار الوردية، فتضاعف العبادة للعدراء القديسة، مدتها بتفات المهام، فتتعش روح التقوى، وتحسن ممارسة كتاب الاقتداء بالمسيح بفائدة، ولا سيما الكتاب الرابع، وكذلك كتاب زيادة القربان المقدس للقديس الفونسيوس ليكوري.

ج) وفي المساء ففحص جيد للضمير مكمل بالفحص الخصوصي، يعين المبتدئين على ان يتحققوا ضعفهم ويتبصروا في أمر علاجه، وعلى ان يعيدوا الارادة الى القصد الصالح ان تعمل أحسن، وردعهم عن السقوط في اللتواني والفتور. ومن الضروري ايضا التذكر هنا في ما قلناه عن فحص الضمير، وعن الاعتراف، متذكّرين انه على المبتدئين ان يفحصوا ضميرهم خصوصاً عن الخطايا المميّنة، اولا صلاحها بسرعة، وهي التي يمكن ان تفرط منهم على حين غرة.

### ثالثاً. نصائح للمرشد.

أ) فلينتبه المرشد لئلا يتكلف تائبوه برياضات تقوية كثيرة، تضر في تتييم واجبات حالتهم، او تكون عائقاً للتقوى الحقيقية. انه لأفضل حقاً ان تتلى صلوات اقل بانتباه أشد وتقوى أعظم هذا ما قاله لنا سيدنا يسوع نفسه: ((إذا صليتم فلا تكثروا الكلام مثل الوثنيين فانهم يظنون انه بكثيرة كلامهم يستجاب لهم. فلا تتشبهوا بهم لان اباكم عالم بما تحتاجون اليه قبل ان تسألوه)) (متى ٦: ٧ و٨). ولذلك علمنا هذه الصلاة المختصرة والجوهرية ((أبانا)) المتضمنة كل ما يمكننا ان نطلبه. من المبتدئين يتوهمون عن طيبة نفس، انهم بقدر ما يكثرون من الصلاة اللفظية يصيرون أتقى. فتذكر المرشد اياهم قول المعلم الالهي، وتبيينه لهم ان الصلاة تدوم عشر دقائق بانتباه، لأفضل كثيراً من الصلاة تدوم عشرين دقيقة مشوبة ببعض التشتت الاختياري، وهذا يؤدي لهم أعظم خدمة. ولكي يساعدهم على تركيز انتباههم، فليذكّرهم ان استعمالهم بضع ثوان لكي يكونوا تحت نظر الله، ولكي يتحدوا بسيدا يسوع المسيح، ويحقق لهم مفعول الصلاة بشكل عجيب.

ب) حين تتكرر غالباً الصلوات نفسها، فلأجل تجنب الرتابة في الصلاة اي الصلاة على سبيل العادة، يحسن ان نعلم المبتدئين طريقة بسيطة وسهلة لتثبيت الانتباه تثبيتاً اتم. هكذا نعلمهم مثلاً: في الصلاة السبحة الوردية، إذا اعتنينا في تأملنا اسرارها مع القصد المزدوج ان نكرم العذراء القديسة، ونستمد الفضيلة الخصوصية المقابلة لذلك، نستفيد من هذا فائدة أعظم. لكن لا نكون بعيدين عن الصواب إذا قلنا، انه لا يمكن ان ننتبه لمعنى السلام عليك يا مريم الحرفي ولروح السر معاً. وانه يكفي على الاقل، ان نقصد واحداً منهما.

## التأمل

اننا نعرض: مفهومات التأمل العامة. فوائده وضرورته. الصفات المميزة لتأمل المبتدئين. الطرائق الاساسية.

## مفهومات التأمل العامة

مفهوم وعناصر جوهرية. قلنا ان الصلاة نوعان: الصلاة اللفظية التي تظهر باقوا او بحركات والصلاة العقلية التي تصنع داخل النفس. وهي ارتفاع نفوسنا الى الله وتخصيصها به، لكي نؤدي له واجباتنا ونصير لأجل مجدة من أهل الصلاح.

تتضمن الصلاة العقلية على خمسة عناصر اساسية:

- ١) واجبات الديانة التي تقدم لله او لربنا يسوع المسيح او للقديسين.
- ٢) اعتبارات في الله وفي علائقنا به، لكي نحفظ اعتقاداتنا بالفضائل المسيحية ونقويها.
- ٣) فحوص الضمير لكي نتحقق اين نحن من ممارسة الفضائل.
- ٤) صلوات بالمعنى الحصري طلباً للنعمة الضرورية كي نحسن ممارسة هذه الفضيلة او غيرها.

٥) مقاصد لتحسين العمل في المستقبل. ليس من الضروري ان تتوالى هذه الاعمال بحسب النظام الذي أشرنا اليه، ولا ان تكون كلها في الصلاة الواحدة نفسها. بل لكي تستحق الصلاة ان تسمى تأملاً، يجب ان تطول بعض الوقت وان تتميز ايضاً عن النوافذ. حين تتقدم النفوس في الكمال وتعتقد انه يكفيها ان تتجدد بسرعة، تختصر صلواتها فتقوم هذه الصلوات احياناً بنظر بسيط ساذج، ودي لله، كما سنشرح ذلك فيما بعد. مبدؤها. يجب ان نحسن التمييز بين الصلاة وطرائقها.

أ) وُجد التأمل في كل عصر، بحسب هذا الشكل او غيره:

فكتب الانبياء والمزامير وكتب الامثال والجامعة وابن سيراج، مفعمة من التأملات التي كانت تغذو تقوى الاسرائيليين. واما ربنا يسوع المسيح فبتشديده على العبادة الروح، وبإحيائه الليالي في الصلوات؛ وبصلاته الطويلة في بستان الزيتون وعلى الجلجلة، كان يهئ الطريق لتلك النفوس الداخلية، التي يتوجب عليها على ممر الاجيال ان تعترم في مخادع قلوبها كي تصلي فيها لله سرّاً. نضرب صفحاً عن تأليف الابهاء، فكتب كاسيانوس والقديس يوحنا السلمي تبحث صريحاً عن التأمل، او الصلاة العقلية حتى عن أسمى اشكالها كالمشاهدة الالهية. ويمكننا ان نقول ان مقال القديس برنردوس في الاعتبارات، وهي في الحقيقة بحث في ضرورة التفكير والتأمل. اما مدرسة القديس فكتور، فتلج كثيراً في ممارسة التأمل للوصول الى المشاهدة الالهية. ونحن نعلم كم يوصي القديس توما بتأمل، كواسطة للنمو في محبة الله وتقدمة الذات له.

ب) اما ما يختص بتأمل او الصلاة العقلية المنظمة، فيبدأ تاريخه في القرن الخامس عشر. نراها مبيّنة في كتاب يوحنا موبورنوس، وفي كتب المؤلفين البندكتيين في العصر نفسه. والقديس اغناطيوس يقدم في كتابه الرياضات الروحية عدة طرائق للتأمل كثيرة الدقة والتنوع. والقديسة تريزيا الأبلية تصف اشكال الصلاة العقلية أحسن من سواها. وقد سنت تلميذاتها قواعد الصلاة العقلية المنظمة. لم يغفل القديس فرنسيس سالس عن رسم طريقة الصلاة العقلية الى تلميذته. وللمدرسة الفرنسية في القرن السابع عشر ايضاً طريقتها التي يكلمها الاب اولية والسيد ترونسون وتسمى طريقة سان سولبيس.

الفرق بين التأمل والصلاة العقلية. هاتان الكلمتان تأمل وصلاة عقلية تؤخذ في الغالب احدهما عوض الاخرى. وإذا أردنا التمييز بينهما، فكلما تأمل شكل من الصلاة يسيطر فيه الاعتبار او البرهان،

ولذلك يسمى التأمل البرهاني. اما التسمية الثانية فتناسب خاصة هذه الاشكال من الصلاة العقلية حيث تسيطر العواطف التقوية او افعال الارادة. غير ان التأمل البرهاني ذاته يتضمن بعض العواطف، والصلاة العقلية العاطفية تسبقها عموماً بعض اعتبارات او ترافقها، الا حين يغمر النفس نور المشاهدة.

ان ما يوافق المبتدئين من اشكال الصلاة العقلية انما هو التأمل البرهاني الضروري لأحرازهم العقائد او لتقويتها. بيد ان نفوساً عاطفية تكاد منذ البداية تفسح مجالاً كبيراً للعواطف. فيعلم الجميع ان أفضل قسم من الصلاة العقلية يقوم بأفعال الارادة.

## فوائد الصلاة العقلية

ان التأمل كما وصفناه ضروري جداً للخلاص وللكمال.

اولاً. انه يكرهنا الخطيئة واسبابها. فان خطئنا، فذلك لعدم تفكرنا ولضعف ارادتنا. والحال ان التأمل يصلح هذه النقيصة المزدوجة.

انه يبين في الواقع رداءة الخطيئة ومفاعيلها الهائلة، اذ يريانا على نور الله والابدية، وبما عمله يسوع كي يكفر عن الخطيئة. ((هو الذي، كما يقول لنا الاب كراسه، يقودنا بالفكر الى تلك القفار المقدسة، حيث نخطى بالله وحده في السلام والراحة والصمت وجمع الفكر. هو الذي ينقلنا بالروح الى جهنم لكي نرى فيها منزلنا. والى المقبرة لكي نرى فيها مسكننا. والى السماء لكي نرى فيها عرشنا. والى وادي يوشافاط لنرى فيه قاضياً. والى بيت لحم لنرى فيها مخلصنا. والى ثابور لنرى حبنا. والى الجلجلة لنرى فيها مثالنا)). والتأمل يفصلنا ايضاً عن العالم وملذاته الكاذبة: يذكّرنا سرعة زوال الخيرات الزمنية، وما تأتينا به من الهموم، وما تتركه في النفس من الفراغ والكراهية. ويقينا خداع العالم وفساده، ويفهمنا ان الله وحده قادر ان يجعلنا سعداء. ويجردنا خصوصاً عن ذواتنا وكبرياتنا ولذاتنا الشهوية، اذ يوقفنا امام الله الذي هو ملء الكيان، وتجاه عدمنا؛ واذ يريانا ان الملاذ الحسية تخفضنا الى ما تحت مستوى البهائم، فيما ان الافراح الالهية تشرفنا وترفعنا الى الله.

ب) ان التأمل يقوي ارادتنا في ما يقدم لنا لا من الاعتقادات فقط، بل يشفي شيئاً فشيئاً من جمودنا وجبانتنا وتقلبنا. وفي الواقع ان نعمة واحدة تساندها مساعدتنا تقدر على شفائنا من هذا الضعف. والحال ان الصلاة العقلية تجعلنا نلتمس هذه النعمة باشد حرارة، بقدر ما يجعلنا التفكير شاعرين بعجزنا. اما التأسف والندامة والعزم الثابت التي ننشئها مدة الصلاة العقلية مع ما نتخذه من المقاصد، فهي مساعدة فعلية للنعمة.

ثانياً. ان التأمل يجعلنا كذلك نمارس الفضائل المسيحية الكبرى كلها:

(١) ينير ايماننا، اذ يبسط امام عيوننا الحقائق الابدية، ويعضد رجاءنا اذ يقربنا الى الله كي ننال عونته، ويحرك محبتنا اذ يظهر لنا جمال الله وجودته.

(٢) يصيرنا حكماء بما يلهمنا من الاعتبارات قبل العمل، وعادلين اذ يوفق بين ارادتنا وارادة الله، واقوياء اذ يشركنا بالقدرة الالهية، وقنوعين اذ يلطفنا احتدام رغباتنا واهوائنا. ليس من فضيلة مسيحية اذن نعجز عن احرازها بالتأمل اليومي: فبالتأمل نلازم الحقيقة. واذ تعتنقنا الحقيقة من عيوبنا تجعلنا نمارس الفضيلة: ((تعرفون الحق والحق يحرركم)) (يو ٨: ٣٢).

ثالثاً. ان التأمل يهيئنا للاتحاد بالله ويحولنا ايضاً. هو في الواقع مناجاة الله تزداد كل يوم اخلاصاً ومودة ومدة، لأنها تستمر حتى في حومة العمل سحابة اليوم. والحال انه بقدر ملازمتنا مصدر الكمالات كلها نتشرب منه، ونمتلئ كما تمتلئ الاسفنجة من السائل المنغمسة فيه وكما يلين الحديد ويتكيف بصفات نيران الاتون الملقى فيه.

## ضرورة الصلاة العقلية

اولاً. ضرورتها لعامة المسيحيين.

أ) ان التأمل المنظم هو واسطة للتقديس شديد الفاعلية، لكنه مع ذلك غير ضروري للخلاص لمجموع المسيحيين. والضروري انما هو الصلاة كي يقدم الانسان واجباته لله وينال نعمة: هذا ما لا يمكن فعله لا محالة، بدون تيقظ عقل ثابت ورغبة قلب حقيقية. لا شك انه يجب ان يضاف الى

الصلاة تأملات في الحقائق الكبرى وفي الواجبات المسيحية الاساسية، وان نرافقها بفحص الضمير. وغير انه يمكن ان يصنع هذا كله بدون تأمل منظم، بالإصغاء الى الارشادات الرعائية وبطالعات حسنة وبفحص الضمير.

ب) فالتأمل مع ذلك مفيد جداً، وخالصي لكل من يريدون ان ينموا في الروحيات ويخلصوا نفوسهم، فهو نافع للمبتدئين كما هو مفيد للنفوس الاكثر تقدماً في الكمال. ويمكننا القول انه الوسيلة الافضل للتيقن من الخلاص. هذا هو تعليم القديس الفونسوس وهكذا برهنه: ان الانسان مع ممارسه رياضات التقوى الاخرى كالسبحه الوردية، وفرض العذراء المختصر، والصوم، يمكن ويا للأسف ان يستمر عائشاً في حالة الخطيئة المميته. لكنه بممارسة الصلاة العقلية لا يمكن ان يبقى وقتاً في حالة الخطيئة الثقيلة: فأما ان يهمل التأمل او يرفض الخطيئة. اذ كيف يمثل كل يوم امام الله مصدر كل قداسة، مع معرفته الصريحة انه في حالة الخطيئة المميته، بغير ان يتخذ القصد الثابت بمعونة النعمة لان يكره خطيئته ويذهب فيرتمي عند قدمي معرف كي ينال الغفران الذي لا بد منه.

للخلاص؟ وان لم يكن لديه، بعكس ذلك، وقت معين وطريقة محدودة للتأمل في الحقائق الكبرى، فيجري التشتيت امثلة العالم الى الانزلاق في الخطيئة بغير ان يشعر.

ثانياً. ضرورة التأمل الادبية للكاهن خدام النفوس. لا نتكلم هنا عن الكهنة الرهبان الذين اذ يصلون الفرض الالهي بتأن وتقوى، يمكنهم ان يجدوا في هذه التلاوة والقراءات والصلوات التي يقومون بها، ما يعادل الصلاة العقلية. نلاحظ مع ذلك، انه في الرهبانيات ذاتها حيث يتلون الفرض الالهي، يفرض القانون، على الاقل، نصف ساعة للصلاة العقلية، لان الرهبان تحققوا ان الصلاة العقلية هي روح الصلوات اللفظية، وتضمن تلاوتها بحرارة. نزيد على ذلك ان الجمعيات المؤسسة منذ القرن السادس عشر، تلح أكثر ايضاً على الصلاة العقلية وكتاب الحق القانوني يأمر الرؤساء ان يسهروا على ان يخصص الرهبان الذين لا يمنعهم عائق شرعي، بعض الوقت من كل يوم للصلاة العقلية.

لكننا نتكلم عن الكهنة خدام النفوس الغارقين في الاعمال الرسولية، ونقول ان ممارسة الصلاة العقلية المألوفة في ساعة منظمة، هي ضرورية ادبياً لثباتهم وتقديسهم. عليهم في الواقع واجبات عديدة ومهمة يتحتم قضاؤها تحت طائلة الخطأ الثقيل. وفضلاً عن ذلك هم معرضون احياناً مزعجة اثناء ممارسة خدمتهم.

أ) اذن يجب عليهم لمقاومة هذه التجارب ولتتميم كل واجباتهم بأمانة وعلى وجه فائق الطبيعة ان يكون فيهم يقين وان ينالوا نعم الانتخاب التي تعضد ارادتهم المترنحة. وقد ثبت بإقرار الجميع، انه بالتأمل اليومي نحرز كلا الامرين.

لا يقل هؤلاء الكهنة انهم واجدون في الذبيحة المقدسة والفرص الالهية ما يعادل الصلاة العقلية. لا شك ان القداس والسواعية، إذا تليا بانتباه وتعبد، هما واسطتان فعالتان للثبات والنمو. غير ان الاختبار يرينا ان الكاهن الغارق في اعمال خدمة النفوس، لا يجيد تتميم هذين الواجبين المهمين، إذا لم يقتبس من الصلاة العقلية الاعتيادية روح الاختلاء والتأمل والصلاة. فان أهمل هذه الرياضة المقدسة، فكيف يجد في غمرة ما يكتفه من المهام والاضطرابات وقتاً كافياً، كي يتأمل ويتقوى بالروح الفائق الطبيعة؟ وان لم يفعل ذلك يساوره تشتت الافكار بتواتر، حتى في أقدس مهامه، فيضعف اعتقاده ويخور عزمه، ويتضاعف عجزه ويدهمه الفتور وحين تعرض له محنة كبيرة مستمرة تضايقه، لا تخطر بباله تلك الاعتقادات القوية والضرورية كي يصدم عدوه، فيتعرض للسقوط. قال الاب دوم شوتار: ((إذا تأملت فانا كاللابس درعاً فولاذية لا تنفيذ فيها سهام الاعداء. وبدون التأمل انها محالة ... فالصلاة العقلية اذن والا فتهلكة عظيمة جداً للكاهن المعاصر العالم))، هكذا كان يصرح، دون تردد، الاب ديزورمونت العلامة واحد أعظم وعاظ رياضات الإكليركين خبرة. قال الكردينال لافيغري بدوره: ((ليس للرسول من حدّ اوسط، بين القداسة وفساد الاخلاق المتزايد شيئاً فشيئاً. فان لم تكن القداسة مكتسبة، فعلى الاقل يجب ان تكون مرغوباً فيها ومتابعة (ولا سيما بالصلاة العقلية اليومية)).

ب) مع ذلك لا يكفي الكاهن ان يتجنب الخطيئة. فلكي يتمم واجباته كعابد لله، وكمخلص للنفوس، عليه ان يكون عادة متحداً بيسوع الكاهن الاعظم الوحيد، الذي يمجده الله ويخلص النفوس. اذن كيف يتحد الكاهن بالله وهو غارق في مهام وهموم خدمته، ان لم يكن لديه متسع وقت منظم بالكفاية ليتقوى بهذا الاتحاد، ويفتكر ملياً وبعاطفة في هذا المثال الالهية، وبالصلاة يستزل عليه روحه وعواطفه ونعمته؟ فبالصلاة تزداد عزائمه مئة ضعف، وتتضاعف ثقته جداً، ويتحقق نجاح خدمته. ليس هو المتكلم انما يسوع يتكلم بضمه: ((لستم أنتم المتكلمين لكن روح ابيكم المتكلم فيكم)) (متى ١٠: ٢٠). ((كان الله يعظ على السنننا) (٢ كو ٥: ٢٠) ليس هو الفاعل، ليس هو سوى آلة بين يدي الله. وبما انه جاهد كي يقتدي بفضائل ربنا يسوع، فمثله يجذب أكثر من كلامه. فاذا

كف عن الصلاة العقلية يفقد عادة جمع الافكار والصلاة: ((ولا يكون سوى نجاس يطن وصنج  
يرن)) (١ كو ١٣: ١).

كذلك القديس بيوس العاشر البابا المطلوب الذكر قد اوضح بصراحة ضرورة الصلاة العقلية للكاهن  
(٤ آب ١٩٠٨). ومجموعة الحق القانوني تأمر الاساقفة بالسهر، على ان يخصص الكهنة كل يوم  
بعض الوقت للصلاة العقلية (قانون ١٢٥ عد ٢). وهكذا يعمل تلامذة الاكليركين (قانون ١٣٦٧ عد  
١): (فليتفرغ التلامذة الاكليركيون كل يوم بعض الوقت للصلاة العقلية)). أليس ذلك ما يوضح  
الضرورة الادبية للاكليركيين كي يلازموا الصلاة العقلية؟

انه من الخطأ في حق علم النفس، ان يشار على الكهنة الغارقين في الحياة الرعائية بترك التأمل،  
والاكتفاء بتلاوة قداديسهم وسواعيتهم بأكثر تقوى. فالاختباريين لنا ان تلاوة الفرض الالهي بتقوى  
تكاد مستحيلة، ان لم يصل الاكليركي صلاة عقلية في مثل هذه الحالة: نتلوه حين نقدر على ذلك،  
وكما نقدر في اوقات متقطعة وعقل مشغول بما سمعناه، وبما سنقوله. في الحقيقة ان الصلاة العقلية  
صباحاً هي التي تضمن الاحتفال بذبيحة القداس بتقوى، وهي التي تسهل جمع الفكر قبل الشروع  
بصلاة السواعي.

الا يمكننا، على وجه ما، ان نعيد ما قلناه عن الكهنة فنقله للعلمانيين الاسخياء، الذين يخصصون  
قسماً من وقتهم بالرسالة؟ فاذا رغبوا ان تكون هذه الرسالة مخصصة، يجب ان تنتعش بالروح  
الداخلي والصلاة العقلية. ولا يظنن أحد ان الوقت الممنوح لهذه الرياضة يحذف من وقت اعمال  
الغيرة. فبالتوهم ان العمل هو أكثر ضرورة من النعمة والصلاة، يقرب من ضلال البيلاجيين (اي  
منكري النعمة). فيما ان الرسالة تكون أخصب بقدر ما توحى اليها وحيأ أعمق، الحياة الداخلية  
المتغذية بالصلاة العقلية.

## الصفات العامة لتأمل المبتدئين

قلنا سابقاً ان تأمل المبتدئين يكون خصوصاً بالبراهين فيسيطر عليه القياس البرهاني وان تركوا مجالاً لانعطاف الارادة، فيبقي علينا ان نبين: اولاً. في أية مواضيع يتأملون عادة. ثانياً. أية صعوبات يصادفون.

### في اية مواضيع يتأمل المبتدئون

عليهم ان يتأملوا بوجه عام في كل ما من شأنه ان يلقي في قلوبهم رعدة من الخطيئة تزيدهم كرهاً لها. وان يتأملوا في اسباب خطاياهم، وفي الامارة التي تكون بمثابة علاج لها وفي أخص واجبات حالتهم وفي حسن استعمال النعمة وفي خرق استعمالها، وفي يسوع مثال التائبين. لكي يوجس المبتدئون في نفوسهم رهبة من الخطيئة تزداد يومياً، فليتأملوا. أ) في غاية الانسان وغاية الانسان وغاية المسيحي، وبالتالي في خلق الانسان ورفعته الى الحالة الفائقة الطبيعة، وفي السقطة والفداء، وفي حقوق الله الخالق والمقدس والفادي، وفي صفات الهية يمكنها ان تبعدهم عن الخطيئة، كعدم محدودية الله التي تجعله حاضراً عند كل مخلوق، وسيّما عند النفس الكائنة في حالة النعمة، وفي قداسة الله تضطره ان يبغض الخطيئة، وفي عدله الذي يقتص منها. وفي رحمته التي تعطفه الى الصفح. كل هذه الحقائق تفضي بنا الى الهرب من الخطيئة العائق الوحيد في سبيل غايتنا، عدو الله، وقاتلة الحياة الفائقة الطبيعة التي منحناها الله كدلالة عظمى على محبته لنا، وقد اعادها لنا الفادي بثمان دمه الكريم.

ب) وليتأملوا في الخطيئة نفسها: في أصلها وفي عقابها ورداءتها، وفي نتائجها الهائلة، وفي البواعث التي تحملنا على الخطيئة: الشهوة والعالم والشیطان.

ت) وليتأملوا في وسائل التكفير عن الخطيئة والتحرز منها والتوبة، وفي امارة قوانا واميالنا الفاسدة، ولا سيّما في الخطايا الرئيسية السبع، والفوز بهذه النتيجة العملية، وهي ان الانسان لا يكون في مأمن ما لم يستأصل كل امياله الفاسدة، او يتسلط عليها.

كذلك يجب التأمل تدريجياً في كل واجبات المسيحي الإيجابية:

١) واجبات الدين العمومية نحو الله، ونحو محبة القريب، والحذر اللازم من النفس، بسبب عجزنا وأشقاؤنا: فما يؤثر في المبتدئين انما هو على الخصوص، الواجهة الخارجية من هذه الفضائل. ففي ذلك استعداد لفضائل أثبت تمارس في طريق الاستنارة.

٢) واجبات خصوصية بالنسبة للسن والحالة، والجنس وواقع الحياة: ان ممارسة هذه الواجبات هي في الواقع أفضل توبة.

بما ان لدور النعمة اهمية كبرى في الحياة المسيحية، فمن الضروري ان نطلع المبتدئين على ما في هذه الحياة من جوهري، فننقل إليهم ما قلناه عن سكنى الروح القدس في نفوسنا، وعن اشتراكنا بالمسيح وعن النعمة المبررة، وعن الفضائل والمواهب. ولا شك انهم لا يدركون، في بدء الامر سوى المبادئ الاولية لهذه الحقائق الكبرى. غير ان لهذا القليل الذين يفهمونه منها تأثيراً عظيماً في تهذيبهم ورقبهم الروحي. حين يتأملون في ما عملها الله ولا يزال يعملها لأجلنا، يشعرون انهم محمولون على ان يكونوا أسخى في خدمته. لا المهتمدين الى الايمان، هما اللذان لم يكونا ايضاً الا في بداءة حياتهما الروحية.

عندئذ نستطيع بسهولة اكثر ان نقدم لهم يسوع كمثال التائبين الحقيقيين: يسوع الذي الزم نفسه بالفقر والطاعة والعمل كي يعطينا مثلاً على هذه الفضائل. يسوع توبة لأجلنا في القفر، وفي بستان الزيتون، وفي آلامه الموحجة. يسوع المائت لأجلنا على صليبه. فميزة هذه السلسلة من التأملات التي تقدمها لنا الكنيسة في الليتورجيا، تقوم في حملنا على ممارسة التوبة متحدين بيسوع بأكثر سخاء وحب وفاعلية.

### ما يصادفه المبتدئون من الصعوبات

ان ما يلاقيه المبتدئون في التأمل من الصعوبات، ينشأ عن عدم خيرتهم وفقد سخائهم، ولاسيما تعرضهم لتشتت الفكر المتواتر.

أ) فلعدم خبرتهم يتعرضون الى تحويل تأملهم الى شكل قضية فلسفية اولاً لاهوتية او الى شكل خطايي يعظون به أنفسهم. ليس في ذلك اضاءة للوقت، لان هذا الشكل من التأمل يجعلهم، فضلاً عن ذلك، يفكرون في الحقائق الكبرى فيثبت اعتقاداتهم. مع ذلك لو مارسوه بشكل عملي وفاق الطبيعة أكثر يجنون منه أكبر فائدة.

هذا ما يثقفهم به المرشد الصالح فانه يجعلهم يلاحظون:

١) لكي تكون الاعتبارات عملية، يجب ان تكون أكثر شخصية، وان تلائمهم هم أنفسهم، وان يتبعها فحص الضمير لكي يروا اين هم من ممارسة تلك الحقائق، وماذا يقدر على عمله لكي يعيشوا بموجبها مدى النهار.

٢) ان الاله في الصلاة العقلية، هو افعال الارادة، هو افعال العبادة والشكر والمحبة بالنسبة لله، وافعال الاتضاع والانسحاق والقصد الصالح بالنسبة الى خطاياهم، وافعال الطلب للحصول على النعمة الاصلاح والمقاصد الثابتة والمتجددة غالباً لتحسين العمل مدة النهار كله.

ب) فقد سخائم يعرضهم إذا لم يستفيدوا مما كان يمنحهم الله تعالى، من التعزيزات الحسية ببشاشة لكي يجذبهم اليه في البداية. فالصعوبات واليبوسات الاولى تخدم نشاطهم، واذ يتوهمون ان الله قد أهملهم، يستسلمون الى الفتور. يقتضي الامر اذن ان نبين لهم، ان ما يطلبه الله منا انما هو الجهود لا النجاح، وان ثواب الصلاة يكون بقدر مواظبتنا عليها، بالرغم مما نشعر به من الصعوبات، وانه من الجبانة ان ننكص تجاه ما علينا من الجهد، إزاء ما يديه الله لنا من السخاء الزائد. يَلطف المرشد لهجته بعدوبة وافرة بطريقة يذكرهم فيها بهذه الحقائق، وبتنشيط مشبع بالعطف الابوي.

ج) غير ان المانع الاكبر ينشأ عن التثتيت: فاذا لم تتروض المخيلة والشعور والعلائق منذ البداية، تتعرض النفس وقت التأمل بمساوراة الأخيلة العالمية الخطرة، مع الافكار البطالة ونزعات القلب المتنوعة. ففي مثل هذه الحالة يكون لدور المرشد اهمية كبرى.

١) فليذكر المرشد في بدء الامر الفرق بين التثتيت الاختياري. وغير الاختياري، ويستحث مسترشدته على ان لا يبالي الا بالتثتيت الاول، لكي يقلل عدد هجماته.

ولكي ينجح في ذلك عليه:

(١) ان يرفض سريعاً وبقوة وثبات التشتيت حين ينتبه اليه. وان يكن التشتيت عديداً أو خطراً، فليس فيه إثم إذا توقف المرء فيه اختيارياً. اما بذل المجهود في رفضه فهو عمل وافر الاستحقاق جداً؛ فلو راجعنا التشتيت بوثباته عشرين مرة ورفضناه عشرين مرة، تكون الصلاة العقلية ممتازة، وأكثر استحقاقاً من التي تعضدنا فيها نعمة الله وكان تشتيتنا فيها قليلاً.

(٢) لكي نحسن دفع التشتيت، علينا ان نعتزف باتضاع بعجزنا، وان نتحد حقيقة بسيدنا يسوع ونقدم له عبادتنا وصلواتنا. وعند الحاجة نستعمل كتاباً لكي نحضر انتباهنا.

(ب) ان رفض التشتيت غير كاف لتقليل عدده، بل يجب مقاومة اسبابه. فكثيراً ما يتأتى التشتيت عن نقص في الاستعداد، او عن الطيش العادي.

(١) فليجب المبتدئون اذن على ان يحسنوا استعدادهم للصلاة العقلية في عشية اليوم السابق، وان لا يكتفوا بتلاوة بسيطة، بل ان يضيفوا اليها عنصراً خاصاً بهم، اذ يرون كيف يلائم الموضوع قبل النوم عوضاً عن ان يستسلموا الى أخيلة غير نافعة او مضرة.

(٢) غير انه من واجب المرشد ان يدلهم خصوصاً على هذه الوسائل، لتدريب مخيلتهم وذاكرتهم اللتين سنتكلم عنها فيما بعد. كلما تقدمت النفس في ممارسة الاختلاء والتجرد المألوف يقل تشتيتها. وبالتالي هذا ما يجعلنا نفهم حسناً درس طرائق الصلاة العقلية.

## أخص طرائق الصلاة العقلية

بما ان الصلاة العقلية هي فن صعب فقد حسن لدى القديسين دائماً ان يخلصوا النصيح، فقدموا مختلف النصائح للنجاح فيها. تجد عند كاسيانوس والقديس يوحنا السلمي، وعند أخص الكتبة الروحانيين مشورات سامية. غير ان تلك الطرائق بحصر المعنى، لم تنضج الا نحو القرن الخامس عشر، فسارت بالنفوس منذ ذلك العصر في طرق الصلاة العقلية. يظهر لأول وهلة ان في هذه الطرائق شيئاً من التعقيد، فيحسن ان نهى المبتدئين لها بما يمكن ان نسميه تلاوة بتفكير، فيشير المرشد

عليهم بتلاوة كتاب تقوى، كالكتاب الاول من الاقتداء بالمسيح والحرب الروحية او كتاب تأملات وجيزة وجوهريّة.

ويوعز إليهم بان يسألوا ذواتهم بعد القراءة الاسئلة الثلاثة التالية:

- ١) هل تيقنت حسناً ان ما قرأته هو مفيد وضروري لخلاص نفسي، وكيف أقدر ان اقوى هذا اليقين.
  - ٢) هل مارست حتى الآن هذا الموضوع البالغ الاهمية. ٣ ماذا اعمل كي امارسه اليوم أحسن ممارسة.
- إذا اضاف الى تلك الاسئلة صلاة حارة لكي يحسن ممارسة ما قصده، فيكون قد حصل على كل المبادئ الضرورية للصلاة العقلية الحقيقية.

## نقاط مشتركة بين كل الطرائق

قد نرى في الطرائق المتنوعة بعض تعابير مشتركة تجب الاشارة اليها، لأنها في الحقيقة ذات اهمية كبرى.

أولاً. هناك استعداد بعيد، واستعداد قريب واستعداد مباشر.

أ) ليس الاستعداد البعيد سوى اجتهاد في جعل الحياة العادية موافقة للصلاة العقلية. وهو يتضمن ثلاثة امور:

١) اماتة الحواس والاهواء.

٢) جمع الفكر الاعتيادي.

٣) الاتضاع.

هذه هي في الواقع استعدادات سامية لحسن الصلاة: لا تكون هذه الاستعدادات في البداية الا ناقصة، ولكنها كافية كي نستطيع ان نتأمل مع شيء من الفائدة. ثم تتكامل بقدر نمونا في الصلاة العقلية.

ب) اما الاستعداد القريب فيتضمن ثلاثة اعمال مهمة:

(١) تلاوة موضوع التأمل او الاصغاء اليه عشيه اليوم السابق.

(٢) تفكير الانسان فيه حين يستيقظ من النوم، واستنهاض ما في قلبه من العواطف الملائمة للموضوع.

(٣) عكوفه على التأمل بحرارة وثيقة واتضاع، مع الرغبة في تمجيد الله وتحسين حالته. هكذا تكون النفس في استعداد كلى لمخاطبة الله.

(ت) اما الاستعداد المباشر فليس هو في الحقيقة سوى بداءة التأمل، وهو قائم في ان نجعل ذواتنا في حضرة الله الموجود في كل مكان، ولا سيمًا في قلبنا، وفي ان نعد ذواتنا عاجزين عن التأمل او غير اهل له، وقائم ايضاً في نلتمس معونة الروح القدس كي يتلافى عجزنا.

ثانياً. في صميم الصلاة العقلية، تشتمل الطرائق المتنوعة ايضاً على الاعمال الاساسية ذاتها بوضوح متفاوت.

أ) افعال نرفع بها فروض العبادة الواجبة للعظمة الالهية.

ب) اعتبارات للاعتقاد بضرورة الفضيلة التي نرغب ان نكتسبها. او للاعتقاد بفائدتها العظمى، لكي نصلي بأشد حرارة حتى ننال نعمة ممارستها، ونحمل ارادتنا على بذل الجهود الضرورية في مساعدة النعمة.

ت) فحص الضمير او العودة الى الذات لكي نتحقق ضعفنا في هذه النقطة ونعرف ما بقي من الطريق الواجب علينا اجتيازه.

ث) صلوات او طلبات للحصول على نعمة الرقي في هذه الفضيلة واتخاذ الوسائل الضرورية لهذا العمل.

ج) مقاصد نعزم بها منذ اليوم نفسه على ممارسة الفضيلة التي تأملنا فيها.

ثالثاً. الخلاص التي تختم التأمل تشمل معاً:

(١) الشكران على النعم المقبولة.

(٢) إعادة النظر في الشكل الذي تأملنا فيه بقصد تكميله في اليوم التالي.

٣) واخيراً الصلاة لطلب بركة ابينا السماوي.

٤) اختيار فكراً وحكمة مؤثرة، تذكرنا سحابة النهار فكرة تأملنا الرئيسية التي يسمونها الباقية الروحية. تعود الطرائق المختلفة الى مثالين مهمين يسمونها: طريقة القديس أغناطيوس وطريقة سان سوليبس.

## طريقة القديس اغناطيوس

يقترح القديس اغناطيوس على التوالي في كتابه ((الرياضات الروحية)) طرائق عديدة للصلاة العقلية حسب المواضيع المتأمل فيها، والنتائج التي يراد الحصول عليها. ان الطريقة التي توافق المبتدئين بوجه العموم أفضل موافقة هي المدعوة بالقوى الثلاث، الذاكرة وقوة الادراك والارادة. وهي معلنة في الاسبوع الاول حين يتكلم عن التأمل في الخطيئة.

اولاً. بدءاً التأمل بصلاة استعدادية، نطلب بها الى الله ان تكون كل نياتنا واعمالنا متجهة الى خدمته، وتمجيد عظميه الالهية لا غير. ذلك توجيه ممتاز للنية.

يتبع ذلك تمهيدان:

أ) الاول تهيئة المكان وغايته حصر الذاكرة والعقل في موضوع التأمل لمنع التشتيت بسهولة:

١) فان كان الموضوع حسياً كأحد اسرار سيدنا يسوع، فلنتمثله ايضاً بحرارة قدر المستطاع، لا كحادث جرى منذ زمن طويل، بل كأننا نحن أنفسنا قد كنا شهوداً عيانين او كأننا قد شاركنا فيه: هذا ما ندركه من طبيعته بأكثر وضوح.

٢) وإذا كان الموضوع من غير المنظورات كالخطيئة، تكون تهيئة الموضوع ان نرى بعين المخيلة، وان نحسب نفسنا سجيناً في هذا الجسم المائت، وانا ذاتي أعنى جسدي ونفسي، في وادي الدموع هذا، كمفني بين الحيوانات العجماوات العديمة النطق، وبعبارة اخرى فلنعتبر الخطيئة في بعض مفاعيلها لكي ندرك فظاعتها.

ب) يقوم التمهيد الثاني في طلبنا الى الله ما نريده ونشهيه مثلا الخجل والخزي من ذواتنا عند نظرنا الى خطايانا. فالغاية العملية، كما هو ظاهر، والقصد ثابتان بوضوح منذ البداية: في كل أمر انظر العاقبة.

ثانياً. يقوم التأمل في مطابقة قوى النفس الثلاث (الذاكرة وقوة الادراك والارادة) كلاً من نقاط الصلاة العقلية. نطابق على التوالي كل واحدة من هذه القوى على كل من هذه النقط، ما لم تكن في نقطة واحدة مادة كافية للتأمل كله. غير انه ليس بضروري ان تصنع كل هذه الافعال التي أشرنا اليها، في كل تأمل: يحسن التوقف في ما يوحيه الموضوع من العواطف والشعور.

أ) يتم عمل الذاكرة اذ تتذكر النقطة الاولى الواجب تأملها، لا مفصلة بل مجملة. هكذا قال القديس اغناطيوس: ((ان تمرين الذاكرة هذا على خطيئة الملائكة يقوم بأن نردد في ذاكرتنا كيف خلقوا في حالة البرابرة، وكيف رفضوا ان يستعملوا حريتهم في ما يجب لخالقهم وربهم من الاحترام و الطاعة. كيف نشأت الكبرياء واستولت على عقولهم، فتحولوا من حالة النعمة الى حالة الخباثة، فأهبطهم الله من السماء الى جهنم)).

ب) يقوم عمل العقل بالتفكير ملياً في الموضوع نفسه. والقديس اغناطيوس لا يدخل في شرح أطول. غير ان الاب روتان يعوض عنه، اذ يشرح قائلاً: ان واجب العقل هو ان يفكر في ما تعرضه الذاكرة من الحقائق، ويطابقه على النفس وعلى حاجاتها، وان يستخرج منها نتائج عملية؛ وان ينظر الى بواعث مقاصدنا، وان يعتبر كيف طابقنا حتى الآن سلوكنا على ما تأملنا فيه من الحقائق، وكيف يجب علينا ان نعمل فيما بعد.

ت) على الارادة واجبان ينبغي القيام بهما: الحث على عواطف تقوية وانشاء مقاصد صالحة.

١) لا شك ان هذه العواطف يجب ان تشمل كل التأمل. وعلى الاقل يجب ان تتوافر كثيراً، لأنها هي التي تجعل من التأمل صلاة حقيقية. غير انه يجب ولاسيما في آخر التأمل ان تتضاعف هذه العواطف. فعلى الانسان الا يتعنى في طريقة اظهارها: ان أفضل الطرق هي ابسطها. حين تفرض علينا عاطفة صالحة، يحسن بنا ان نغذوها أطول مدة ممكنة الى ان يكتفي تعبدنا منها.

٢) يجب ان تكون المقاصد عملية صالحة لتكتمل حياتنا وبذلك نفسه خصوصية ملائمة حياتنا الحاضرة، وقابلة التنفيذ في اليوم نفسه، ومبنية على بواعث ثابتة وضعية، وبالتالي ترافقنا صلواتنا لنيل النعمة لأجل ممارستها عملياً.

ثالثاً. أخيراً يأتي دور النتيجة التي تتضمن ثلاثة أمور: خلاصة ما أخذ من المقاصد الصالحة المتنوعة. مناجاة تقوية لله الاب او لسيدنا يسوع أو العذراء القديسة او لاحد القديسين. أخيراً عرض التأمل او الفحص على الطريقة التي تأملنا فيها كي نتحقق نقائصنا فنعالجها. لكي تجعل هذه الطريقة في متناول الافهام نقدم جدولاً لتمهيدات التأمل وجهاز الصلاة العقلية والنتيجة.

## التمهيدات

اولاً. تذكر سريع للحقيقة الواجب التأمل فيها.

ثانياً. بنيان المكان بواسطة المخيلة.

ثالثاً. طلب نعمة خصوصية توافق الموضوع.

## قوائم التأمل

### أولاً الذاكرة

نتمثل الموضوع اجمالياً في عقلنا مع أخص ظرفه.

### ثانياً بقوة الادراك افحص

اولاً. ما يجب اعتباره في هذا الموضوع.

ثانياً. اية نتيجة عملية يجب ان انتجها منه؟

ثالثاً. ماهي البواعث؟

رابعاً. كيف حفظت هذه النقطة؟

خامساً. ماذا يجب على عمله لكي أحسن حفظها؟

سادساً. أية عوائق تجب ازالتها؟

سابعاً. أية وسائل تستعمل؟

## ثالثاً الإرادة

أولاً. عواطف تنشأ في سياق التأمل كله ولا سيما في آخره.

ثانياً. مقاصد تؤخذ في آخر كل نقطة: ممارسات شخصية ثابتة وضيعة واثقة.

## النتيجة

### أولاً مناجاة

مناجاة الله ويسوع والعذراء القديسة والقديسين.

### ثانياً عرض

أولاً. كيف قمت في تأملي؟

ثانياً. في اي موضوع تأملت؟ ولم تأملت حسناً ام عاطلاً؟

ثالثاً. أية نتيجة عملية استنتجتها من التأمل؟ وماذا طلبت؟ وأية مقاصد اخذت؟ وأية انوار

استمددت؟

رابعاً. اجتناء فكرة كي تكون باقة روحية.

فائدة هذه الطريقة. انها مطابقة كثيراً، كما نرى، علم النفس وعملية.

أ) انها تضم القوى كلها، ومنها المخيلة وتستخدمها الواحدة تلو الاخرى في الموضوع التأمل، وهكذا

تفتح باباً لتنوعات تسهل اعتبار الحقيقة نفسها بمظاهرها المختلفة، وترديدها في عقلنا، كي نتعمق

فيها ونكتسب اعتقادات جديدة، ولاسيما كي نستمد منها نتائج عملية ليومنا نفسه.

ب) واذ تلح على دور الارادة المهم، الادارة العامة عن معرفة بعد اعتبارها البواعث ملياً، لا تهمل دور النعمة: اننا نطلبها بِالْحاح منذ البداية ونعود الى هذا الطلب في المناجاة.

ت) ان هذه الطريقة توافق المبتدئين على الاخص، لأنها تعين في تفضيل دقيق ما ينبغي عمله منذ الاستعداد حتى النتيجة، وتكون كدليل يصد قوانا عن الضلال. وعد ذلك لا تفترض معرفة القضية معرفة عميقة، بل المعرفة التي يعلمانها التعلم المسيحي فقط. وهكذا تلائم المؤمنين الساذجين.

ث) مع ذلك فهي توافق ايضاً النفوس الاكثر تقدماً حين نجعلها أبسط. وفي الواقع إذا اكتفينا بالخطوط الكبرى التي وضعها القديس اغناطيوس، ونقدر بسهولة ان نحولها الى الصلاة عاطفياً، تفسح مجالاً كبيراً لإلهامات النعمة كل ذلك يقوم بمعرفة استعمال تلك الطريقة بأسلوب معقول بإدارة مرشد خبير.

ج) يأخذ البعض على هذه الطريقة احياناً، انها لا تفسح مكاناً كافياً لسيدنا يسوع المسيح. لا شك اننا لا نبحث هنا عن طريقة القوى الثلاث الا بطريق العرض.

غير ان هنا طرائق أخرى علمها القديس اغناطيوس، خصوصاً التأمل في الاسرار ومطابقة الحواس، حيث يصبح سيدنا يسوع الخاص للتأمل والحال انه لا شيء يمنع المبتدئين عن الاستفادة من كلتا الطريقتين.

### طريقة سان سولبيس

أصلها. قد استوحت هذه الطريقة تفاصيلها من طرائق كثيرة كانت قلبها. غير ان الفكرة الاساسية والخطوط الكبرى، قد اتى بها الكردينال ده بارول والاب ده كونداران والسيد أوليه. اما التفاصيل المكملة فقد اتى بها السيد ترونسون .

أ) الفكرة الاساسية هي الاتحاد بالكلمة المتجسد، والانضمام اليه رغبة في تقديم افعال العبادة الواجبة لله. واطهار فضائل يسوع فينا.

ب) ان الافعال الثلاثة الجوهرية هي:

١) العبادة التي نعتبرها احدى صفات الله، او أحد كمالاته، او فضيلة من فضائل سيدنا يسوع المسيح، كقاعدة لفضيلة يجب علينا ان نمارسها، ونقدم بعدئذ واجباتنا الدينية (العبادة والاعجاب

والحمد والشكر والفرح او العطف)، على إحداها او على غيرها او على الله بواسطة سيدنا يسوع المسيح: فبتقدمتنا على هذا المنوال عبادتنا لباري النعمة نحمله على ان يصغي الينا بعطف.

٢) المشاركة التي بها نجتذب بقوة الصلاة الكمال، او الفضيلة التي عبدناها وأعجبنا بها، في الله او في سيدنا يسوع المسيح.

٣) المساعدة بتأثير النعمة على ممارسة هذه الفضيلة، باتخاذنا قصداً نجتهد في تحقيقه مدى النهار. هذه هي الخطوط الكبرى التي نجدها عند بارول وكوندران وأوليه.

مكملات السيد ترونسون. غير انه من الواضح ان هذه الخطوط الكبرى الكافية للنفوس المتقدمة في الفضيلة، تكون غير كافية للمبتدئين.

وقد شعروا بذلك حالاً في اكيريكية سان سولبيس. ومع المحافظة على روح الطريقة الاولى الجوهرية ومبادئها. قد اضاف السيد ترونسون الى النقطة الثانية (المشاركة) الاعتبارات وفحص الضمير الضرورية جداً للمبتدئين.

حين نعتقد ضرورة احدى الفضائل واهميتها، ونرى صريحاً انها تنقصنا، فلنطلبها بحرارة واتضاع وثبات أكثر. بقي انهم في هذه الطريقة يلحون بالصلاة على المبتدئين، وكما يلحون على العنصر الاساسي. لذلك تدعى النقطة الثالثة تعاوناً، كي نتذكر ان مقاصدنا هي ايضاً عمل النعمة أكثر من مفعول ارادتنا. لكن النعمة لا تفعل شيئاً بدون مساعدتنا، وانه يجب علينا التعاون مع يسوع المسيح، راذ نبذل الجهود كي نظهر الفضيلة التي تأملنا فيها.

اختصار الطريقة. ان الجدول البديهي الاتي يوضح الطريقة بكفاية.

اننا ندع جانباً الاستعداد البعيد الذي هو نفس ما بينا قبلاً.

## الاستعداد

### القريب

أولاً. فليخبر المتأمل في عشية اليوم السابق موضوع الصلاة العقلية ويحدد بوجه دقيق ما يجب اعتباره في سيدنا يسوع المسيح – وما يجب فعله من الاعتبارات والطلبات – وما يجب اتخاذه من المقاصد.

ثانياً. ثم يضبط حواسه ويجمع أفكاره ويرقد وهو يفكر في موضوع التأمل.

ثالثاً. وبعد نهوضه من النوم فليخصص الوقت الأول الحر كي يتفرغ لهذه الرياضة المقدسة.

## المباشر

أولاً. نقف بحضرة الله الموجود في كل مكان ولا سيما في قلبنا.

ثانياً. نتضع أمام الله حين نتذكر خطايانا. ثم نمزق قلبنا ندامة. ثم نتلو فعل الاعتراف.

ثالثاً. نحسب نفسنا عاجزة عن الصلاة كما يجب. فنستغيث بالروح القدس قائلين: هلم أيها الروح

القدس. ....

## متن الصلاة العقلية

### أول نقطة عبادة: يسوع أمام عيوننا

أولاً. نعتبر الموضوع الذي نتأمل فيه انه في الله أو في سيدنا يسوع أو في أحد القديسين: عواطف قلبه أقواله وأفعاله.

ثانياً. نقدم له واجباتنا: العبادة والاعجاب والحمد وأفعال الشكر والمحبة والفرح والحنان.

### ثاني نقطة المشاركة: يسوع منجذب الى قلبنا

أولاً. نعتقد بضرورة أو بفائدة الفضيلة المعتبرة بالإيمان أو بالبرهان أو بالتحليل البسيط.

ثانياً. نعود إلى ذواتنا بعواطف الندامة على الماضي، وبالخجل في، في الحاضر، وبالشوق في

المستقبل.

ثالثاً. نطلب من الله الفضيلة التي تأملنا فيها (بهذا الطلب ندخل خاصة الاشتراك بفضائل سيدنا يسوع). نطلب أيضاً سائر احتياجاتنا واحتياجات الكنيسة واحتياجات من نلتزم ان نصلي لأجلهم.

### ثالث نقطة المساعدة: يسوع في أيدينا

أولاً. نأخذ قصداً خصوصياً حالياً فعالاً متضعباً.

ثانياً. نجدد قصد فحص ضميرنا الخصوصي.

### النتيجة

أولاً. نشكر الله على منحه ايانا في الصلاة العقلية مقداراً عظيماً من النعم.

ثانياً. نطلب إليه المغفرة، غفران هفواتنا وتهاوننا في هذه الرياضة.

ثالثاً. نبتهل إليه أن يبارك مقاصدنا ونهارنا الحاضر وحياتنا وموتنا.

رابعاً. نضم باقة أعني نختار أحد الأفكار التي أثرت فينا بالأكثري نتذكر فيها وفي المقاصد سحابة النهار.

خامساً. نودع العذراء الكلية القداسة كل ذلك.

تحت كنف حمايتك.

ميزات هذه الطريقة.

أ) انها تركز على تعليم اتحادنا بالمسيح كما مر، وعلى الالتزام المترتب عليه بان ننشئ فينا استعداداته وفضائله. فلكي ننجح يجب حسب عبادة السيد اوليه، ان يكون يسوع تجاه عيوننا لكن نتأمل فيه بأعجاب كمثال، ونقدم له واجباتنا (العبادة) ويكون في قلوبنا باكتسابنا استعداداته وفضائله بواسطة الصلاة (المشاركة او الاتصال)، ويكون في أيدينا اذ نتعاون على الاقتداء بفضائل (المساعدة).

فالاتحاد بيسوع هو اذن روح هذه الطريقة.

ب) انها تقدم واجب الديانة (احترام الله ومحبته) على واجب الطلب. الله اول مخدم! والله الذي تقدمه لنا ليس هو إله الفلاسفة المجرّد انما هو الاله الحي، إله الانجيل الذي نحسه انما هو الثالوث الاقدس الحي فينا.

ت) واذا تعلن ضرورة النعمة وضرورة الارادة البشرية في تقديسنا تلفت النظر الى النعمة ثم الى الصلاة، لكنها تطلب ايضاً جهد الارادة الحزوم الثابت، ومقاصد خصوصية حالية تتكرر في الغالب، عليها يدور الفحص مساء.

ث) انها لطريقة عاطفية تركز على بعض اعتبارات: تبدأ في اول نقطة بعواطف دينية. ان أبدي في النقطة الثانية منها اعتبارات فيقصد بها ان يصدر من القلب افعال ايمان بالحقائق الفائقة الطبيعية التي تأملناها. وافعال رجاء بالرحمة الالهية، وافعال محبة لجودته غير المتناهية. واذا رجعنا الى ذواتنا، يجب ان نرفق هذا الرجوع بالتأسف على الماضي، وبالخجل من الحاضر، وبالقصد الثابت في المستقبل، وغاية هذه الافعال هي تهيئة طلبة وضيعة واثقة ثابتة. فلاستمرار هذه الطلبة، تقدم الطريقة بواعث متنوعة معلنة بإسهاب، وتلهمنا ان نصلي لأجل الكنيسة بأجمعها، ولأجل بعض النفوس بالتخصيص. ويجب ان ترافق المقاصد ذاتها بعدم الثقة بالنفس، وبالثقة بيسوع وبالصلاة لأجل تكميلها. ليست النتيجة اخيراً سوى افعال سلسلة افعال شكر واتضاع وصلوات جديدة.

هكذا نتجنب اعطاء البراهين شكلاً فلسفياً، ونمهد السبيل للصلاة العقلية العاطفية الاعتيادية، وفيما بعد للصلاة البسيطة: وقد لوحظ انه ليسمن الضروري تبيان كل واجباتنا دائماً وبهذا الترتيب، بل يستحسن ان نستسلم الى ما يهبنا الله من العطف، وان نكر ما يجذبنا الى الروح القدس. لا شك ان المبتدئين يخصصون عموماً وقتاً للبراهين أكثر منه لغير اعمال. غير ان الطريقة تذكرهم دائماً بأفضلية العواطف، فيتدرجون قليلاً قليلاً الى ممارسة أكبر عدد منها.

ج) انها تلائم على الاخص الإكلييريكيون والكهنة. وتذكرهم دائماً ان الكاهن، بصفة مونه مسيحاً آخر بأخلاقه وسلطانه، عليه ان يكون ايضاً في استعداداته وفضائله، وتذكرهم ان كل كمالهم قائم بان يحييوا يسوع فيهم وينموه. ((لكي تتغلغل عواطفه في صميم قلوبنا)). ان هاتين الطريقتين ساميتان كل منها في نوعها، واذا قد اوردنا الغاية الخصوصية التي ترميان اليها، فيمكن القول نفسه عن سائر

الطرائق التي تقاربها. من المناسبة ان تكون لدينا طرائق كثيرة، كي تستطيع كل نفس ان تختار وفق مشورة مرشدها، وبحسب اميالها الفائقة الطبيعة الطريقة توافق بالأفضل.

ولنصف مع الاب بولان ان موقفنا تجاه هذه الطرائق، كموقفنا تجاه قواعد الخطابة والمنطلق الكثرة. فيحسن بالمتدتين ان يتدربوا عليها. لكن متى تمكنوا منها وملكوها روحها ومبادئها الاساسية لا يعودون يتبعون الطريقة الا في السطور الكبرى دون ان تكف النفس عن العمل فتغدو اشد انتباهاً لالهامات الروح القدس.

## فاعلية الصلاة في تطهير النفس

لسهل ان ننتج مما قلناه مقدار فائدة الصلاة وضرورتها لتطهير النفس.

(أ) في صلاة العبادة نقدم العبادة نقدم لله الفروض الواجبة له. نتأمله بأعجاب ونحمد كمالاته غير المحدودة، وقداسته وعدله وجودته ورحمته ونباركها. عندئذ يعطف الله علينا بحب كي يغفر لنا ويجعلنا نشعر برعب عميق من الخطيئة التي تهينه، وهكذا تقينا من الخطايا في المستقبل.

(ب) في صلاة التأمل نحصل، بتأثير النور الالهي وبتأملاتنا الخصوصية، على اعتقادات عميقة تحقق خباثة الخطيئة، ومفاعيلها الهائلة في هذه الحياة وفي الاخرى، وتبين لنا وسائل اصلاحها وتجنبها. فتفيض عندئذ نفوسنا بعواطف الخجل، والاتضاع والبعض للخطيئة والقصد الصالح كي نتجنبها، وبعواطف محبة الله: بذلك تكفر خطايانا الماضية أكثر فأكثر بدموع التوبة وبدم سيدنا يسوع. وتتقوى ارادتنا بالتضحيات الخفيفة، وتمارس اعمال التوبة والكفر بالذات بسخاء.

(ت) في الصلاة الإبتهالية المرتكزة على استحقاقات سيدنا يسوع، ننال نعم الاتضاع والتوبة والثقة والحب الغزيرة، التي تكمل تنقية نفوسنا وتقويها على التجارب في المستقبل، وتثبتها في الفضيلة، ولا سيما في فضيلتي التوبة والامانة اللتين تكملان مفاعيل الصلاة.

نصائح للمرشدين. اذن مهما بالغنا في الحث على التأمل، كل اولئك الذين يرغبون النمو في الحياة الروحية فلا نزال مقصرين. فعلى المرشد ان يعلمهم ممارسه بأسرع ما يمكن، ويبين لهم ما يصادفون في التأمل من الصعوبات، ويساعدهم على التغلب عليها، ويريهم كيف يستطيعون ان يكملوا

طريقتهم، ولا سيما كيف يستطيعون ان يمارسوا كي يصلحوا نقائصهم، وان يمارسوا ما يضادها من الفضائل، ويكتسبوا قليلاً فقليلاً روح الصلاة.

## التوبة

ان التوبة هي بعد الصلاة افعال واسطة لتقنية النفس من خطاياها الماضية وصيانتها من الخطايا في المستقبل.

أولاً. لما اراد سيدنا يسوع ان يبدأ رسالته العامة جعل سابقه يبشر بضرورة التوبة: ((توبوا فقد اقترب ملكوت السماوات)) (متى ٣: ٢) وقد أعلن هو نفسه انه أتى ليدعو الخطاة الى التوبة: ((لم آت لأدعو صديقين بل خطاة الى التوبة)) (لو ٥: ٣٢). ان هذه الفضيلة ضرورية جداً حتى اننا ان لم نصنع توبةً نهلك: ((ان لم تتوبوا تهلكون جميعكم كذلك)) (لو ١٣: ٥). وقد أحسن الرسل فهم هذا التعليم، فشددوا منذ بداية كرازتهم على ضرورة التوبة كشرط استعدادي للمعمودية: ((توبوا وليعتمد كل واحد منكم باسم يسوع لمغفرة الخطايا)) (اعما ٢: ٣٨).

وفي الواقع ان توبة الخاطئ هي فعل عدل، لأنه اذ اهان الله وتعدى حقوقه وجب عليه اصلاح هذه الالهانة، والحال انه لا يقوم بذلك بغير التوبة.

ثانياً. تحديد التوبة هو: فضيلة فائقة الطبيعة متعلقة بالعدل تحمل الخاطئ على كره الخطيئة لأنها اهانة لله، وعلى اتخاذ القصد الثابت لتجنبها واصلاحها في المستقبل.

تتضمن التوبة اذن اربعة اعمال اساسية يسهل النظر في أصلها وتسلسلها.

١) نرى بنور العقل والايمان ان الخطيئة شر وأكبر الشرور كلها، بل الشر الوحيد لأنها تهين الله وتحرمنا أئمن الخيرات. ونكره هذا الشر من كل نفوسنا: ((ابغضت النفاق)) (مز ٤٤: ٨).

٢) واذا يتأكد لنا مع ذلك ان هذا الشر لا يزال فينا لأننا خطئنا، وان أثره باقٍ في نفوسنا ولو غفر لنا، فنشعر منه بتوجع شديد، توجع يقلق نفوسنا ويسحقها وبندامة صادقة وتواضع عميق.

٣) لكي نتجنب هذا الشر الكريه في المستقبل نتخذ القصد الثابت، والعزم الصالح كي نحترز منه بهربنا باعتناء من الاسباب التي تجرنا اليه، بتقوية ارادتنا على كبح الاميال الى الملذات الخطرة.

٤) اخيراً متى عرفنا ان الخطيئة هي ظلم، نقصد اصلاحها والتفكير عنها بعواطف الندامة واعمال التوبة.

## الهرب من الخطيئة

قبل ان نبين الاسباب التي تدفعنا الى الهرب من الخطيئة، علينا ان نقول ما هي الخطيئة المميتة وما هي الخطيئة العرضية.

مفهومات وانواع. الخطيئة هي مخالفة اختيارية لشريعة الله. اذن هي تمرد على الله واهانة له ايضاً لأننا نفضل ارادتنا على ارادته القدوسّ ونتعدى ماله علينا من الحقوق.

**الخطيئة المميتة.** حين نخالف شريعة مهمة وضرورية لنيل غايتنا في مادة ثقيلة وبكامل الانتباه والرضى التام، فالخطيئة هي مميتة. لأنها تحرم نفسنا النعمة المبررة التي تقوم بها حياتنا الفائقة الطبيعة لذلك حددها القديس توما هكذا: ( هي فعل به نبتعد عن الله غايتنا الاخيرة بتعلقنا اختيارياً وبشكل غير مرتب ببعض الخيرات المخلوقة. وفي الواقع اننا نتحول عن الله بخسارتنا النعمة المبررة التي توحدنا به)).

**الخطيئة العرضية.** حين تكون الشريعة التي نتعدها غير ضرورية لنيل غايتنا، او حين نخالف في مادة خفيفة، او حين تكون الشريعة بحد ذاتها ثقيلة ولا نخالفها بكامل الانتباه وملء الرضى فلا تكون الخطيئة الا عرضية ولا تفقدنا حالة النعمة، بل نلبث متحدين بالله بصميم نفوسنا لأننا نريد عمل مشيئته في كل ما هو ضروري لحفظ صداقته وللبلوغ الى غايتنا. مع ذلك هي مخالفة الاله واهانة لعظمته كما سنبين ذلك فيما بعد.

## الخطيئة المميتة

لكي نحكم بالصواب ان الخطيئة ثقيلة يجب ان نغفر: اولاً ماذا يحسبها الله. ثانياً ما هي بحد ذاتها ثالثاً مفاعيلها السيئة. فاذا تعمقنا في تأمل هذه الاعتبارات نبغض الخطيئة بعضاً شديداً.

## ماذا يحسب الله الخطيئة المميتة

لكي يكون لدينا فكرة عن الخطيئة المميتة فلننظر في كتبنا المقدسة كيف يعاقب الله مرتكبها وكيف يحكم على الخطيئة.

اولاً. كيف يعاقب مرتكبها.

أ) في الملائكة التمردين: لم يرتكبوا سوى خطيئة واحدة داخلية، هي خطيئة الكبرياء. الله خالقهم وابوهم، الله الذي كان يحبهم لا كأنهم عمل يديه فحسب بل كأبنائه، فلما يعاقبهم، اضطر ان يهبطهم الى جهنم حيث يكونون بعيدين عنه مدى الابدية، ومحرومين كل سعادة. ان الله عادل لا يعاقب البتة المذنبين بأكثر مما يستحقون. هو رحيم حتى في عقاباته اذ يلفظ قساوتها بجودته. اذن يجب ان تكون الخطيئة أمراً مكروها انها استحققت هذا القصاص الصارم.

ب) في ابونا الاولين. قد كانا مغمورين بكل خير طبيعي وخارج عن الطبيعة وفائق الطبيعة. ومع ذلك فقد ارتكبا خطيئة المخالفة والكبرياء. لهذا قد فقدنا حالاً مع فقدنا حياة النعمة، المواهب المجانية الممنوحة لهما بسخاء، فطردنا من الفردوس الارضي، ونقلنا الى ذريتها هذه الخطيئة الاصلية، التي نكابد نحن ايضاً عواقبها المؤسفة. والحال ان الله كان يجب ابونا الاولين كابنيه، وكان يفسح لها ان يعيشنا في صداقته، فاذا وجب ان يعاقبها إله العدل والرحمة عقاباً قاسياً جداً في ذريتها، فما ذلك الا لأن الخطيئة هي شر هائل، لا نستطيع ان نوفيها ما تستحقه من الكراهية.

ج) في اقنوم ابنه. لكي لا يسلم الله الانسان الى الهلاك الابدی، ولكي يوفق ايضاً بين حقوق عدل الله ورحمته، أرسل ابنة الى الارض واقامه رأس الذرية البشرية، وقلده أمر تكفير الخطيئة و اصلاحها عوضاً عنا. فماذا طلب اليه للقيام بهذا الفداء؟ ثلاثين سنة قضاه في العذاب والاتضاع، وتكلمت بالنزاع الطبيعي والادبي في بستان الزيتون وفي محكمة اليهود العليا وفي محكمة بيلاطس وفي الجلجلة، فمن شاء ان يعرف ما هي الخطيئة، فليتبع المخلص الالهي خطوة خطوة من المذود الى الصليب، في حياته الخفية اذ كان يمارس الاتضاع والطاعة والفقر والعمل. وفي حياته الرسولية، في غمرة المشاغل والمتاعب وبين الحبوط والمناكذات والاضطهادات. وفي حياته المتألّمة، اذ احتمل مثل هذه العذابات الطبيعية والادبية من اصدقائه ومن اعدائه، حتى دعي بالصواب رجل الالوجاع. فلنقل بكل صدق: هذا ما استحقته خطاياي: ((جرح لأجل الالوجاع. فلنقل بكل صدق: هذا ما استحقته

خطاياي (: (جرح لأجل معاصينا وسحق لأجل آثامنا)) (اشعيا ٥٣:٢). عندئذ نفهم بسهولة ان الخطيئة أكبر الشرور.

ثانياً. كيف يحكم الله على الخطيئة. ان الكتاب المقدس يمثل لنا الخطيئة كأكره وآثم ما يوجد.

أ) انها تمرد على الله ومخالفة اوامره. وقد عوقبت بقساوة كما رأينا في ابونا الاولين: (تك ٢: ١٧ و ٣: ١٩-١١). في الشعب الاسرائيلي المختص بالله تحسب هذه المخالفة كتمرد وعصيان: (اسمعوا كلمة الرب يا آل يعقوب ... ماذا وجد في آباؤكم من الظلم حتى ابتعدوا عني واقتفوا الباطل ... دخلتم ونجستم أرضي وجعلتم ميراثي رجساً. الكهنة لم يقولوا اين الرب ودارسوا الشريعة لم يعرفوني والرعاة عصوني والانبياء تنبأوا بالبعل وذهبوا وراء ما لا فائدة فيه)) (ار ٢: ٤-٨).

ب) هي نكران جميل أكبر المحسنين، هي كفر بالطف الآباء: ((استمعي ايتها السماوات وأنصتي ايتها الارض فان الرب قد تكلم: أرى ربيت بنين ورفعتهم لكنهم تمردوا علي)) (اشعيا ١: ٢).

ت) هي خيانة وشكل من الزنى، لان الله هو عروس نفوسنا يطلب الينا امانة لا تنقض: ((وانت قد زנית مع أخلاء كثيرين)).

ث) هي ظلم لأننا نتعدى جهراً وصريحاً حقوق الله علينا: ((كل من يعمل الخطيئة يخالف الشريعة والخطيئة انما هي مخالفة الشريعة)) (١ يو ٣: ٤).

## ماهي الخطيئة المميته بحد ذاتها

هي الشر، والحق يقال هي الوحيد الممكن وجوده، لان كل الشرور ليست سوى نتيجتها او قصاص لها.

اولاً. من جهة الله. هي إثم واهانة للعزة الالهية: انها تهين الله في كل صفاته ولا سيما لأنه مبدأنا الاول وغايتنا الاخيرة وابونا والمحسن الينا.

أ) بما الله هو مبدأنا الاول وخالقنا، ومنه قد اخذنا كل ما نحن عليه وكل ما نحوز، فهو في الوقت نفسه مولانا الاعظم، وله علينا الطاعة المطلقة. فالخطيئة المميته نخالفه ونعصيه، اذ نهينه بتفضيلنا ارادتنا على ارادته المقدسة، والخليقة على الخالق او فوق ذلك نتمرد عليه، لأننا بفعل الخلق نحن رعيته، وخاضعون له أكثر من خضوع البشر لأمرهم.

١) يكون هذا التمرد أفضح، بنسبة ما يكون السيد الذي نتمرد عليه غاية في الحكمة والجودة. فالله لا يأمرنا بما لا فائدة فيه لسعادتنا او لمجده تعالى، بينما نعرف ان ارادتنا ضعيفة ومعرضة للضلال. فبالرغم عن كل ذلك نفضلها على ارادة الله!

٢) ليس لهذا التمرد اقل عذر، لأننا وقد تعلمنا منذ صغرنا، فتوفرت لنا معرفة أوضح وأدق لحقوق الله ولرداءة الخطيئة، فنعمل عن المعرفة حسنة ما نحن عاملون.

٣) لماذا نخون ربنا هكذا؟ لأجل لذة دنيئة تحطنا وتهبطنا الى مستوى البهائم، لأجل كبرياء جنونية بها نخصص نفوسنا بمجد لا يختص بغير الله، لأجل نفع أو ربح عابر نصّحي بالخير الابدي!

ب) الله هو غايتنا الاخيرة ايضاً: خلقنا ولم يقدر ان يخلقنا الا لذاته وهو الذي لا خير أعظم منه، ولا يمكننا ان نجد كما لنا وسعادتنا خارجاً عنه. فما اننا خرجنا منه، فمن العدل والضرورة ايضاً ان نعود اليه وبما اننا خاصه، علينا ان نحترمه ونحمده ونخدمه ونمجده. وبما اننا موضوع محبته علينا ان نحبه من كل نفوسنا. فعبادتنا الله ومحبتنا له نجد سعادتنا وكمالنا. فمن الحق والواجب اذن ان تكون حياتنا وافكارنا ورغباتنا واعمالنا كلها متجهة اليه، وان تكون غايتها تمجيده تعالى.

إنا بالخطيئة المميّنة نتحول عن الله اختيارياً، لكي نجد لذتنا في خير مخلوق. ونهينه بتفضيلنا عليه أحد مخلوقاته، او بالحري بتفضيلنا عليه إرضاء انانيتنا: لأننا في الحقيقة نتعلق باللذة التي نجدها في الخطيئة أكثر من تعلقنا بالخليقة نفسها. هذا هو الظلم الواضح، لأنه يسلب الله ما له علينا من الحقوق التي لا تنسخ، وذلك المجد الخارجي الذي يجب علينا ان نُؤديه. انها لشكل من الوثنية تنشئ في معبد قلبنا صنماً الى جانب الاله الحقيقي. انها ازدراء لينبوع المياه الحية التي تقدر وحدها ان تروي ظمأ نفوسنا. انها تفضيل المياه الآجنة عليه، الآجنة في قعر الآبار المشققة حسب لهجة ارميا الحماسية: ((ان شعبي صنع شرين: تركوني انا ينبوع المياه الحية واحتقروا لهم آباراً مشققة لا تمسك الماء)) (ار ٢: ١٣).

ج) ان الله هو ابونا ايضاً، اختارنا ويعاملنا بعناية بنوية، اذ يغمرنا بأثمن احساناته ويزيننا بجهاز فائق الطبيعة، كي يجعلنا نحيا حياة شبيهة بحياته، ويفيض علينا أغزر نعمه الحالية، لكي تستمر مواهبه فينا، وينمي فينا الحياة الفائقة الطبيعة. فبالخطيئة المميّنة نذري هذه المواهب، ونسيء استعمالها، حتى اننا نحولها ضد المحسن الينا وابينا، وندنس نعمه ونحتقره، ونهينه حين يغمرنا

بخيراته. أليس هذا نكران جميل فادحاً وجرماً عظيماً، بنسبة ما نلنا من النعم، ويصرخ طالباً الانتقام منا؟

ثانياً. من جهة يسوع فاديننا. هي على وجه ما قتل للإله.

أ) ان هذه الخطيئة هي التي سببت آلام هذا المخلص الالهي وموته: ( ان المسيح تألم لأجلنا)) (١ بطر٢: ٢١). ((غسلنا بدمه من خطايانا)) (رؤ١: ٥).

فلكي تؤثر هذه الفكرة في نفوسنا ينبغي ان نتذكر النصيب الخصوصي الذي اصابنا من آلام المخلص الوجيعة. انا الذي خان معلمه بقبلة، واحياناً لأجل اقل من ثلاثين من الفضة! انا الذي سبب القبض عليه والحكم عليه بالموت. وقد كنت هناك مع الجماعة صارخاً: ((لا لهذا بل برأب)) (يو١٨: ٤٠)، ((اصبه اصلبه)) (يو١٩: ٦). وقد كنت مع الجنود ايضاً لأجلد يسوع بعدم اماتي، ولكي اكله بالشوك بخطايي الداخلية والشهوية والكبرياء، ولكي اضع على عاتقه صليباً ثقيلاً واصلبه. كما يجيد في شرح ذلك الاب أوليه: ((ان بخلنا يسمر محبته، وغضبنا عدوبته، وجزعنا صبره، وكبرياءنا اتضاعه. وهكذا انا بآثامنا ننكل بيسوع الساكن فينا ونوثقه بالقيود ونمزق جسمه)). كم يجب ان نبغض خطيئة سمرت على الصليب بأفزع قساوة يسوع مخلصنا!

ب) لا شك اننا لا نستطيع الآن ان نسوم يسوع أعذبة جديدة، بحيث انه قابل التألم. لكن خطايانا الحاضرة لا تزال تهينه. لأننا اذ نرتكبها اختيارياً نذري محبته واحساناته، ونجعل دمه المسفوك بسخاء عظيم غير لنا من المحبة والشكر والطاعة. أليس في مقابلة حبه بأفزع نكران للجميل، اما نستنزل بذلك نفسه اشد العقوبات على رؤوسنا؟

## مفاعيل الخطيئة المميته

اراد الله ان يكون للشريعة عقاب، وان تكون السعادة اخيراً مكافأة الفضيلة والعذاب قصاص الخطيئة. اذن حين نرى مفاعيل الخطيئة نستطيع ان نحكم بقياس ما على شرها. فيمكننا ان ندرس هذه المفاعيل في هذه الحياة او الأخرى.

اولاً. كي ندرك تماماً مفاعيل الخطيئة المميته الهائلة في هذه الحياة، فلنتذكر ما هي النفس في حالة النعمة: يسكن فيها الثالوث الاقدس متخذاً مسرته فيها، ويزينها بنعمه وفضائله ومواهبه. فتصبح

افعالها الصالحة بتأثير النعمة الحالية افعالاً تستحق الابدية. وتحوز حرية انباء الله المقدسة وتشارك بقدرة الله، وتتمتع بعض الاحيان خصوصاً بسعادة هي كلذة سابقة للسعادة السماوية. فما هو اذن عمل الخطيئة؟

أ) انها تطرد الله من نفسنا، وبما ان امتلاك الله هو مقدمة السعادة السماوية، فخسارته هي دليل على الهلاك الابدى: وفي الواقع أليست خسارة الله هي حتماً خسارة كل خير هو مصدره؟

ب) اننا بالخطيئة المميطة نفقد النعمة المقدسة، التي كانت تحيي نفوسنا بحياة شبيهة بحياة الله. فالخطيئة المميطة اذن هي نوع من الانتحار الروحي وبها نخسر تلك السلسلة المجيدة من الفضائل والمواهب التي كانت تصحبها.

فاذا أبقي لنا الله برحمته غير المحدودة الايمان والرجاء، وليس لهاتين الفضيلتين سمة المحبة، فما ذلك الا كي تلقيا فينا خوفاً خلاصياً، ورغبة حارة في الاصلاح والتوبة. والى ان نحقق ذلك ترياننا حالة نفسنا المحزنة، وتثير فينا نخسات ضمير لاذعة. بالخطيئة المميطة نصبح عبيداً لها وللأهواء الفاسدة: ((كل من يعمل الخطيئة هو عبد للخطيئة)) (يو ٨: ٣٤). ((هم أنفسهم عبيد الفساد لان الانسان مستعبد لمن غلبه)) (٢ بطرس ٢: ١٩).

ثانياً. ان أصر الخاطئ على مقاومة النعمة الى النهاية، فتلك جهنم بكل احوالها. لأنه يتشبث بكل دنيء مخجل، فيطرده الله ويحرمه السعادة: (( اذهبوا عني يا ملاعين الى النار الابدية)) (متى ٢٥: ٤١). هذه الابدية تجمم المكيال في عذاب الهالكين. لأنها، بعد مرور ملايين من الاجيال، لا تبرح متجددة كأنها في بداءتها.

## الخطيئة العرضية الاختيارية

نظراً الى الكمال، ان الفرق عظيم جداً بين الخطايا العرضية المفاجئة والتي ترتكب عن قصد واختيار ورضى تام.

الخطايا المفاجئة. ان القديسين أنفسهم يخطئون احياناً خطايا مفاجئ بتركهم ذواتهم ينجذبون بعض الوقت، بعدم الانتباه او عن ضعف إرادة، الى التهاون في رياضاتهم الروحية، او الى عدم الفطنة، او الى الدينونة، او الى كلمات تضاد المحبة، او الى كذب خفيف لانتحال الاعذار. حقاً انه يؤسف لهذه

النقائص، والنفوس الحارة تبكيها بمرارة. غير انها. لا تصد عن الكمال لان الاله الصالح العارف ضعفنا يعذرنا بسهولة: (لأنه عارف بجلبتنا)) (مز ١٠٤: ١٤). ((الروح ايضاً يعضد ضعفنا)) (رو ٨: ٢٦).

ان الحبر الذي لنا ليس ممن لا يستطيع ان يرثي لأمرضنا)) (عبر ٤: ١٥). وفوق ذلك اننا نصلحها حالاً بأفعال ندامة واتضاع ومحبة، وهذه أكثر دواماً وألصق بالإدارة من الخطايا الصادرة عن ضعف. كل ما يجب ان نفعله في أمر هذه الخطايا، هو ان نقلل عددها ونتجنب القنوط.

أ) بالتيقظ نستطيع ان نقللها: فلنسع في الوصول الى سببها ونستأصله. لكن بدون تسرع ولا هم، بل باتكال أقوى على النعمة الالهية منه على جهودنا. ونعتني بالأخص ان ننزع كل تعلق بالخطيئة العرضية. لأنه كما لاحظ القديس فرنسيس سالس: ((ان تعلق قلب الانسان بالخطيئة العرضية يفقد حالاً عذوبة العبادة نفسها)).

ب) ونعتني بتجنب القنوط والاستياء، ((قنوط واستياء من يغتاطون من انهم قد اغتاطوا، ويغتمون من انهم قد اغتموا)) (فرنسيس سالس، مدخل العبادة). ان هذه الحركات تصدر عن صميم انانيتنا، التي تضطرب وتقلق حين نرى اننا غير كاملين. فلكي نتجنب هذا النقص، علينا ان ننظر الى نقائصنا بحلم، كما ننظر الى نقائص الاخرين، ونبغض نقائصنا وسقطاتنا، لكن بغضاً هادئاً، عارفين تماماً ضعفنا وشقاءنا، وقاصدين بعزم ثابت وهادئ ان نستخدم هذه النقائص لمجد الله، مكملين واجبنا الحالي بأمانة أكثر ومحبة اشد.

غير ان الخطايا العرضية المقصودة، هي عائق كبير في سبيل نمونا الروحي فعلياً ان نكافحها بشدة. ولكي نتحقق ذلك فلننظر في رداءتها ومفاعيلها.

## رداءة الخطيئة العرضية

انها شر ادي، وفي الحقيقة انها أكبر شر بعد الخطيئة المميتة. لا شك انها لا تحولنا عن غايتنا، لكنها تعرقل سيرنا الى الامام وتخسرنا وقتاً ثميناً، وتقوم خباثتها على الاخص في انها إهانة لله.

هي في الواقع مخالفة الله في مادة خفيفة بدون ريب، لكنها مقصودة بعد التروي، وهي في عين الايمان شيء قبيح حقاً، لأنها تعارض عظمة الله غير المتناهية.

أ) هي اهانة لله واحتقار: لأننا نقابل بين ارادة الله ومجده من جهة، وهوانا وملذتنا ومجدنا الباطل من جهة أخرى، وتجسر ان نفضل ذواتنا على الله! يا لها من اهانة! ان ارادة حكيمة وعاقلة ومستقيمة للغاية، تُضحِّي في سبيل ارادتنا الكثيرة التعرض للضلال والهوى! قالت القديسة تريزا: ((ان هذا هو كالقول: ربي، مع ان هذا العمل يغيظك فانا لن اترك عمله. أنى لا أجهل أنك تراه، واعلم حق العلم أنك لا تريده، غير انى ارغب ان اتبع هو اي وميلى لا ارادتك. وهل هذا أمر تافه ان أجرى على هذا الاسلوب؟ اما انا فأرى العكس، ارى انها خطيئة ثقيلة جداً، وان تكن بحد ذاتها تافهة)).

ب) فبخطيئتنا هذه انتقاض لمجد الله الخارجي: كي نمجد الله بطاعتنا لأوامره تماماً وعن محبة. والحال اننا اذ نرفض الطاعة، ولو في مادة خفيفة، نختلس قسماً من هذا المجد. فعوضاً عن ان نصح كمریم اننا نريد ان نعظم الله في كل اعمالنا: ((تعظم نفسي الرب)) (لو ١: ٤٦). نرفض فعلاً تعظيمه في هذا الشيء او في ذلك.

ج) انها نكران جميل ايضاً، الا ان الله يغمرنا بإحساناته الكثيرة لأننا احباؤه. واذ نعرف انه يطلب منا بدل ذلك عرفنا جميله، ومحبتنا له فنأبى عليه هذه التضحية الصغيرة. وعوضاً عن ان نلتمس رضاه لا نخشى اغاظته، فينتج من ذلك فتور في صداقنا لله: ان الله يحبنا حباً مطلقاً، ويطلب الينا مقابل ذلك ان نحبه من كل قلوبنا: ((احب الرب إلهك بكل قلبك وكل نفسك وكل ذهنك)) (متى ٢٢: ٣٧). اما نحن فلا نعطيه الأجزاء منا ونحتفظ بالباقي؛ وفيما نريد ان نحافظ على صداقه تعالى لنا، نتردد نحن في صداقتنا له، ولا نعطيه سوى فلب متقسّم. فمن الواضح ان في ذلك خشونة ونقصاً في الاندفاع والسخاء، يضعف صداقنا مع الله.

### مفاعيل الخطيئة العرضية الاختيارية

اولاً. ان الخطيئة العرضية المرتكبة بتواتر وقصد في هذه الحياة، تحرم نفوسنا كثيراً من النعم، وتضعف تدريجياً النعم وتمهد لنا السبيل لارتكاب الخطيئة المميتة.

أ) ان الخطيئة العرضية لا تعدم النفس لا النعمة المقدسة ولا المحبة الالهية فحسب. بل تحرمها نعمة جديدة كانت تنالها لو قاومت التجربة. وتحرمها ايضاً درجة من المجد كان يمكنها ان تحوزها بأمانتها. وتحرمها درجة من حب كان يشاء الله ان يهبها. أليس كل ذلك خسارة جسيمة، خسارة كنز أثنى من العالم بأسره؟

ب) انها نقص في الحرارة، أعني في ذلك السخاء، الذي يقدم به الانسان ذاته كلها لله. وفي الواقع ان هذا الاستعداد يفرض مثلاً سامياً ومجهوداً ثابتاً للدنو اليه. والخطيئة العرضية لا تتفق مع هذين الاستعدادين.

(١) لا شيء يوگس مثالنا الاعلى مثل التعلق بالخطيئة: فعوضاً عن ان تكون مستعدين لنعمل كل شيء لأجل الله ونقصد قمم الفضيلة، نقف عمداً طول الطريق وفي وسط المنحدر، كي نتمتع ببعض لذات خفيفة محرمة. وهكذا نضيع وقتاً ثميناً. ونقطع عن النظر الى العلاء، كي نتلهى بقطف بعض زهورات سريعة الذبول. عندئذ نشعر بالتعب، وتبدو لنا ذرى الكمال التي دعينا اليها باسمنا الخاص بعيدة ووعرة جداً. فنقول في نفسنا، ليس من الضروري ان نطمح الى مثل هذا العلو، فنقدر ان نعمل خلاصنا بمشقة أقل. وتعود لنا الغاية المثلى غير جذابة. وبعد هذا كله نقول: ان حركات العجب بالذات، واللذات البدنية الطفيفة، وهذه الصداقات الحسية، وتلك النائم، لا مناص منها. فينبغي ان نتخذ نصيبنا منها.

(٢) عندئذ تنكسر فينا الحمية للتسلق الى ذرى الكمال. وقد كنا قبلاً نسير بخطوات رشيقة يعضدنا الامل للوصول الى غايتنا. فأخذنا نشعر بثقل النهار وبالتعب، وحين نريد العود الى الارتقاء اتنا، فالتعلق بالخطيئة العرضية يصدنا عن التقدم. فالعصور المربوط بالأرض يحاول عبثاً ان يخلق في العلو، انه يسقط الى الارض مهشماً. هكذا اذ تكون نفوسنا مرتبطة بعلائق لا نريد العدول عنها، تهبط حالاً وتكاد تتهشم بما تعانیه من الجهد الباطل. لا شك انه يخيل لنا احياناً اننا سنحلق في مراقي الكمال. لكن يا للأسف! تمسكنا رباطات أخرى، وليس لنا الثبات الضروري لقطعها كلها الواحدة تلو الاخرى. هنا اذن خمود المحبة الذي يقلق البال.

(٣) فالخطر العظيم الذي يهددنا عندئذ، هو الزلق قليلاً حتى الخطيئة المميتة. لان اميالنا الى اللذات المحرمة تنمو، وتنقص نعمة الله فينا، حتى انه يحين الوقت الذي نخشى فيه الاستسلام الى اعدائنا. تنمو اميالنا الى اللذات الفاسدة، لأنه بقدر ما نجاري هذا العدو الخائن يزداد تطلبه. لأنه لا يشبع ابداً.

اليوم يجعلنا الكسل نختصر خمس دقائق من وقت تأملنا. وغداً يتطلب عشرًا. والشهوات البدنية لا تطلب اليوم سوى بعض انحرافات طفيفة، غداً تجسر ان تطلب أكثر قليلاً. اين الوقوف على هذا

المنحدر الخطر؟ ثم نطمئن بالنار ونقول ما هذه سوى خطايا عرضية. لكنها يا للأسف! تقترب قليلاً قليلاً من الخطايا الثقيلة، فتتجدد الغباوة وتشوش المخيلة والحواس تشويشاً عميقاً. انها نار كامنة تحت الرماد، وقد تصبح موقداً لحريق هائل انها الافعى يدفئها الانسان في حضنه، فتتحفز لتسرع فريستها وتسممها. ويكون الخطر قريباً بقدر ما يكون التعرض له ما نخاف هذا الخطر: ثم نألفه وندع الحصون التي كانت تصون قلعة القلب تسقط الواحد تلو الآخر، فيبلغ الزمن الذي ينقضُ فيه العدو بوثة هائجة ويتغلغل في الموضوع.

اما ما يزيد خوفنا فهو تناقض نعم الله عموماً بنسبة نكثنا العهود.

(أ) انها في الواقع لشريعة الهية، ان النعم قد وهبت لنا بقدر مساعدتنا لها: (من له يعطى ويزداد ومن ليس له فالذي له يؤخذ منه)) (متى ١٣: ١٢). فبتعلقنا بالخطيئة العرضية نقاوم النعمة ونعيقها عن العمل في نفوسنا ولهذا تقل النعم العادية علينا. فاذا كنا مع الغزيرة لم نقو على مقاومة اهواء الطبيعة الفاسدة، فهل نقدر ان نقاومها على قلة النعم وخمود القوى؟

(ب) وفوق ذلك، فعندنا تخلو نفس من جمع الحواس ومن السخاء، لا تعود تشعر ابدأً بمثل هذه الحركات الداخلية، التي تستحثها بها النعمة على الخير. فتختنق هذه الحركات بضوضاء ما يستيقظ من الاهواء.

(ت) لا تستطيع النعمة ان تقدسنا الا بطلبنا اياها ببعض تضحيات، فعوائد اللذة المكتسبة من التعلق بالخطايا العرضية تجعل هذه التضحيات أصعب كثيراً.

يمكننا اذن ان نستنتج مع الاب لالمان: ((ان دمار النفوس يتأتى من تكرار الخطايا العرضية، التي تقلل الانوار والالهامات الالهية، وتقلل النعم والتعزيات الداخلية، وتخدم الحرارة والشجاعة في مقاومة وثبات العدو. فينتج من ذلك العمى الروحي، والضعف والسقطات المتكاثرة، والعادة وعدم الشعور، لأنه حين تؤسر العاطفة، يخطأ المرء دون شعور بخطيئة.

ثانياً. ان مفاعل الخطيئة العرضية في الحياة الاخرى، ترينا كم ينبغي لنا ان نخشاها ونتجنبها. وهذه المفاعيل هي: عذاب المطهر وآلامه التي لا تطاق سنين الله يعلم مدتها. وحرمان رؤية الله. لا شك ان هذا المطهر غير أبدي، وهذا ما يميزه عن جهنم. أما العذاب في كليهما فواحد.

## اسباب التكفير عن الخطيئة ووسائله

### اسباب التوبة

ثلاثة اسباب اساسية تلزمنا بعمل التوبة عن خطايانا: واجب عدل بالنسبة لله. واجب ناتج عن اتحادنا بيسوع المسيح. واجب المنفعة الشخصية والمحبة.

### واجب عدل بالنسبة لله

ان الخطيئة هي تعدد حقيقي، لأنها تسلب الله قسماً من المجد الخارجي الواجب لعظمته. فالعدل يقضي بان نعيد لله ما سلبناه، فيما ان الالهانة هي بحد ذاتها على الاقل غير محدودة، فلا يمكن البتة اصلاحها تماماً. فعلياً اذن ان نكفر عنها كل حياتنا. وهذا الالتزام كبير بقدر ما غمرنا الله باحساناته، وبقدر جسامة خطايانا وكثرة عددها.

### واجب ناتج عن اتحادنا بجسم يسوع السري

بالمعمودية قد اتخذنا بالمسيح. فعلياً ان نشاركه في استعداداته. ومع كونه عديم الخطأ قد اتخذ، كرأس الجسم السري، ثقل خطايانا بل مسؤوليتها: ((ألقى الرب عليه إثم كلنا)) (أشعيا ٥٣:٦). لذلك عاش عشية توبة منذ اول هنيهة الحبل به حتى الجلجلة. واذ عرف حسناً ان غضب ابيه السماوي لا يمكن ان يترد بمحرقات الشريعة القديمة، قدم ذاته كذبيحة، كي يقوم مقاوم كل الذبائح. ولكي تكون كل اعماله مضحاه بحرية الطاعة، وكل حياته استشهاد مستمر، مات على الصليب ذبيحة لطاعته وحبه: ((صار يطيع حتى الموت موت الصليب)) (فيلبي ٢:٨).

وبما انه رأس الجسم السري، اراد ان تتحد اعضاءه بذبيحة، لكي تتطهر من خطاياها وتكون ذبائح تكفير معه. فاذا كان يسوع الطاهر والبريء من الخطيئة، قد كفر عن خطايانا بتوبة قاسية جداً، فعلياً نحن الخطاة ان نشاركه في ذبيحته بسخاء يعادل جسامة خطايانا.

يقول لنا الاب أوليه: ((علينا عند تلاوتنا المزامير، ان نحترم في داود روح التوبة، ونطلب باتضاع قلب وحرارة وثبات من الله الاشتراك بهذه التوبة، كي يعمل روحه فينا، ويجعلنا نظراء يسوع التائب، ويحملنا على كره خطايانا، وعلى التكفير عنها معه. عندئذ تكون توبتنا أفعل بكثير. لأنها تشترك

بفضيلة المخلص نفسها: لسنا نحن الذين نعوّض وحدنا، بل يسوع هو الذي يكفر فينا ومعنا. وقال أيضاً: ((كل توبة خارجية لا تصدر عن روح يسوع ليست اكيده صادقة. يقدر الانسان ان يمارس اماتات عنيفة جداً، لكن صادرة عن روح سيدنا يسوع التائب فينا، فلا يمكن ان تكون توبة مسيحية. لان يسوع ابتداءً بها على الارض بشخصه ونفسه وهو يكلمنا فينا ... اذن لا يفينا هذا الاتحاد بيسوع من عواطف التوبة واعمالها، انه يعطى هذه الاعمال أكبر قيمة.

## وسائل التوبة

لكي نمارس التوبة بوجه اتم، علينا ان نتحد بيسوع التائب، ونلتمس منه ان يسكن فينا بروح التضحية، ثم يشركنا بعواطف وبأعمال توبته. ان المزامير تعلن هذه العواطف بأجلي بيان، وخصوصاً في المزمور الخمسين: ارحمني يا الله...

نرى فيه النبي يتذكر خطايه دائماً ويتوجع: ((خطيئتي امامي في كل حين)) (مز ٥٠:٥). لا شك انه لا يجوز ترديد الخطايا في الذهن بالتفصيل: هذا ما يشوش على المخيلة تأملها وينشئ تجارب كثيرة. غير انه ينبغي التذكر فيها بالإجمال ولا سيما بإبراز عواطف الانسحاق والاتضاع.

فبعد ان اهنا الاله القداسة بالذات، لم يبق لدينا سوى الالتجاء الى رحمته كي نلتمس عفوّه: ((ارحمني يا الله ... وامح معاصي ... الخ)).

فلنلبث اذن متحدرين كثيراً من نفسنا، ونجدد من صميم قلوبنا صلاة القديس فيلبس نيري: ((يا ألهي احذر فيلبس ولا فانه يخونك)).

## اعمال التوبة

وان تكن هذه الاعمال شاقة جداً، فأنها تبدو لنا سهلة، إذا جعلنا نصب اعيننا هذا الفكر دائماً: أنى أحد المفلتين من جهنم، أنى أحد المفلتين من المطهر، ولو لا رحمة الله لكنت الآن فيها أكابد العقاب الذي استحقته كثيراً اذن لا شيء يذلني ويقهرني.

اما أخص اعمال التوبة التي يجب ان نقوم بها فهي:

اولاً: قبول الصلبان التي تشاء العناية الالهية ان تبعثها لنا، قبولها قبل كل شيء بتسليم من صميم الفؤاد وبفرح. يعلمنا المجمع التريدينتي ان أكبر برهان عن محبة الله لنا هو قبولنا، كترضية عن خطايانا، كل ما يبلونا به تعالى من المصائب الزمنية. فلو اتفق لنا اذن ان نتحمل بعض البلايا طبيعية كانت او ادبية، كعدم اعتدال الانواء وضغط الامراض وزوال الحظ والاخفاق والهوان، فعوضاً عن نتفجج بمرارة، حسب ما تدفعنا اليه الطبيعة، فلنقبل كل ذلك بتسلم هادئ، متحققين اننا نستحقها بسبب خطايانا، وان الصبر وسط المحن لهو من أفضل وسائل التكفير. فلا نتحمل ذلك في بدء الامر الا بخضوع عادي. لكن حين نتحقق انه بذلك تتلطف اوجاعنا وتأتي بثمره، يبلغ بنا الامر قليلاً الى تحملها بشجاعة وبفرج ايضاً، وهكذا نكون سعداء ان نختصر مطهرنا، ونشابه بزيادة الاله المصلوب، ونمجد الله الذي اهتاه. عندئذ ينشئ الصبر كل ثماره ويظهر نفوسنا تماماً، لأنه يكون فعل محبة حقاً: ((ثق يا بني مغفورة لك خطاياك)) (متى ٢:٩).

ثانياً. فلنضف الى هذا الصبر تتميم واجبات حالتنا بأمانة وبروح التوبة والتكفير. فالذبيحة الاكثر قبولاً عند الله هي ذبيحة الطاعة ((ان الطاعة خير من الذبيحة والاصغاء أفضل من شحم الكباش)) (املو ١٥:٢٢). الحال ان واجب الحالة هو لنا التعبير الصريح للإرادة الالهية. فإكمالها على اتم ما يمكن انما هو مقدمة أكمل ذبيحة لله، هو المحرقة الدائمة، لان هذا الواجب يلازمنا منذ الصباح حتى المساء. هذا يصدق حقيقة في من يعيشون حياة مشتركة: فبطاعتهم القانون العام او الخاص بأمانة، وبتتيميمهم بشجاعة ما يفرضه عليهم الرؤساء او ينصحونهم به، يضاعفون اعمال الطاعة و التضحية والمحبة، ويستطيعون ان يكرروا مع القديس يوحنا بركمانس: ((ان اعظم افعال توبتي هي الحياة المشتركة)). ويصدق هذا ايضاً في من يعيشون من العلمانيين عيشة مسيحية. فكم تسنح من الفرص لآباء العائلات وامهاتها، الذين يحافظون على كل واجباتهم الزوجية والتربوية، كي يقدموا لله تضحيات كثيرة قشفه، تكون لهم أكبر مطهر لنفوسهم؟ والخلاصة هي تتميم هذه الواجبات مسيحياً بشجاعة لأجل الله، وبروح التكفير والتوبة.

ثالثاً. من اعمال التوبة ايضاً ما هي خصوصية يأمر بها الكتاب المقدس، كالصوم والصدقة.

أ) كان الصوم في الشريعة القديمة من أكبر وسائل التكفير. هذا ما كانوا يسمونه ((حزن النفس)): ((هذا يكون لكم رسماً ابدياً في اليوم العشر من الشهر السابع تذللون نفوسكم ولا تعملون عملاً الصريح والغريب والدخيل فيما بينكم. هو سبت عطلة لكم تذللون فيه نفوسكم رسماً ابدياً)) (احبا ٢٩:١٦ و ٣١). ((اما العشر من الشهر السابع هذا فهو يوم الكفارة محفلاً مقدساً يكون لكم تذللون فيه نفوسكم وتقربون وقيده للرب.

انه سبت عطلة لكم فتذللون نفوسكم في التاسع من الشهر من العشاء الى العشاء تسبتون سبتكم)) (احبا ٢٣:٢٧ و ٣٢). ولكي يأخذ الصوم مفعوله، كان ينبغي ان يرافق بعواطف الانسحاب والرحمة: ((ما بالنا صمنا وانت لم تَرِ وعَنينا نفوسنا وانت لم تعلم. انكم في يوم صومكم تجدون مرامكم وتسخرون جميع عملتكم. انكم للخصومة والمتاجرة تصومون ولتضربوا بلكمة النفاق. لا تصوموا كالיום لتسمعوا صلواتكم في العلاء. أهكذا يكون الصوم الذي آثرته اليوم الذي فيه يعنى الانسان نفسه: أ إذا حتى رأسه كالبردي وافترس المسح والرماد تسمى ذلك صوماً ويوماً مرضياً للرب. أليس هذا هو الصوم الذي آثرته حل قيود النفاق وفك ربط النير وإطلاق المضغوطين احراراً وكسر كل نير. أليس هو ان تكسر للجائع خبزك وان تدخل وان تدخل البائسين المطرودين بيتك وإذا رأيت العريان ان تكسوه وان لا تتوارى عن لحمك)) (اشياعا ٥٨:٣-٧). اما في الشريعة الجديدة فالصوم هو ممارسة الحزن والتوبة. كذلك لم يصم الرسل مادام العروس معهم ولكنهم يصومون حين يرتفع عنهم: ((لماذا نحن والفريسيون نصوم كثيراً وتلاميذك لا يصومون. فقال لهم يسوع هل يستطيع بنو العرس ان ينوحوا ما دام العروس معهم؟ ولكن ستأتي ايام يرتفع فيها العروس عنهم وحينئذ يصومون)) (متى ٩:١٤ و ١٥). لما اراد ربنا يسوع المسيح ان يكفر عن خطايانا، صام مدة اربعين يوماً وليلة. وعلم تلاميذه انه لا يمكن اخراج بعض الشياطين الا بالصوم والصلاة: ((وهذا الجنس لا يخرج الا بالصلاة والصوم)) (متى ١٧:٢٠). ولما كانت الكنيسة أمينة على هذه التعاليم، سنت الصوم الأربعيني والبيرامونات والاصوام المختلفة لكي تتيح للمؤمنين فرصة للتكفير عن خطاياهم. وفي الواقع ان كثيراً من الخطايا، تنشأ مباشرة او بواسطة عن الشهوات البدنية، والافراط في الشرب والاكل، ولا شيء افعل في اصلاح ذلك من الامتناع عن المآكل، الذي يبلغ أصل الشر، مميتاً محبة اللذة الحسية. لذلك صام القديسون كثيراً حتى خارج الازمنة التي عينتها الكنيسة والمسيحيون الاسخياء يقتدون بهم، او

على الاقل يقربون الى الصوم بحصر المعنى، اذ يمتنعون في كل وجبة عن بعض الاطعمة، كي يجمعوا بذلك الشهوات البدنية.

ب) اما الصدقة فهي فعل محبة وحرمان: لها بهاتين الصفتين نفوذ كبير في افتداء خطايانا: ((افتد خطاياك بالصدقة وآثامك بالرحمة للبائسين)) (طو ٤: ١١). ((كل خبرك مع الجياع والمساكين واكسُ العراة من ثيابك)) (طو ٤: ١٧) حين نحرم نفسنا من رزق لنعطيه ليسوع بشخص الفقير، فلا يدع الله السخاء البشري بتغلب عليه. عندئذ يترك الله عن نفس طيبة قسماً من العقاب المتوجب على خطايانا.

اذن بقدر سخاء الانسان وبحسب ميسور كل منا، وبقدر ما تكون نيّة المتصدق تامة ايضاً، فبأكمل من ذلك يترك الله لنا ديوننا الروحية.

ان ما نقوله عن الصدقة الجسدية يطابق بالأحرى الصدقة الروحية، التي تتجه الى صنع الخير مع النفوس، وفي الوقت نفسه الى تمجيد الله. وهذا ايضاً أحد اعمال التوبة التي اشار اليها صاحب المزامير، حين قال للسيد الرب، انه لكي يكفر عن الخطيئة يعلم الخطاة طريق التوبة: ((أعلم العصاة طرقك فيرجع اليك الخطاة)) (مز ٥٠: ١٥).

رابعاً. اخيراً تبقى الحرمات والاماتات الاختيارية التي نفرضها على نفوسنا كفارة عن خطايانا، وخصوصاً عن الخطايا التي تبلغ حتى أصل الشر، اذ تعاقب وتهذب القوى التي ساعدتنا على ارتكابها. هذا ما نبينه في بحثنا عن الاماتة.

## الاماتة

ان الاماتة تساعد على تطهيرنا من الخطايا الماضية كالتوبة. غير ان هدفها الأساسي هو وقايتنا من الخطايا الحاضرة والمستقلة، بتقليلها حب اللذة منبع خطايانا. سنشرح طبيعة الاماتة وضرورتها وممارستها.

## طبيعة الاماتة

نجد سبع عبارات اساسية في كتبنا المقدسة للدلالة على الاماتة بمظاهرها المختلفة.

اولاً. كلمة الرفض: ((ان لم يرفض جميع امواله فلا يستطيع ان يكون لي تلميذاً)) (لو ١٤: ٣٣). تمثل لنا الإماتة كفعل تخلّ عن الخيرات لأجل اتباع المسيح، هذا ما عمله الرسل: ((تركوا كل شيء وتبعوه)) (لو ١١: ٥).

ثانياً. نكران النفس او الكفر بالذات: ((من اراد ان يتبعني فليكفر بنفسه ويحمل صليبه ويتبعني)) (لو ٩: ٢٣). وفي الواقع ان اشد اعدائنا هولاً انما هو محبة الذات المشوشة. لذلك علينا ان نتجرد عن ذواتنا.

ثالثاً. غير ان للإماتة وجهة ايجابية: وهي فعل يجرح ما فسد من اميال الطبيعة ويميتها: ((اميتوا اعضاءكم التي على الارض الزني وو ...)) (كو ٣: ٥). ((ان اتمم بالروح اعمال الجسد فتحيون)) (رو ٨: ١٣).

رابعاً. انها فوق ذلك صلب الجسد وشهوته: بها نستمر، كما يقال، قوانا بالشريعة الانجيلية، اذ نشغلها في الصلاة والعمل. ((الذين للمسيح صلبوا اجسادهم مع الآلام والشهوات)) (غلا ٥: ٢٤).

خامساً. متى استمر هذا الصليب ينشئ شكلاً من الموت والدفن، يظهر بهما اننا نموت عن أنفسنا تماما وندفن مع المسيح كي نحيا معه حياة جديدة: ((قد متُّم وحياتكم مستترة مع المسيح في الله)) (كو ٣: ٣). ((دفننا معه بالعمودية للموت)) (رو ٦: ٤).

سادساً. لكي يوضح القديس بولس هذا الموت، استعمل عبارة اخرى: كما ان فينا بعد المعمودية انسانين الانسان العتيق الكابت فينا او الشهوة المثلثة، و الانسان الجديد او الانسان المتجدد، قد صرح انه ينبغي ان نخلع الانسان العتيق لكي نلبس الجديد: ((اخلعوا الانسان العتيق مع اعماله، و البسوا الانسان الجديد)) (كو ٣: ٩ و ١٠).

سابعاً. وبما ان لا يتم دون جهاد فقد صرح الرسول ان الحياة جهاد: ((قد جاهدات الجهاد الجميل واتممت شوطي ... احتمل المشقات واعمل المبشر)). (٢ تيمو ٤: ٧ و ١٠). وان المسيحيين هم مجاهدون او مصارعون يعاقبون اجسادهم كي يستعبدوها.

ينتج من كل هذه العبارات وما يشبها ان الامامة تتضمن عنصراً مزدوجاً: الواحد سلبي وهو التخلي والرفض والنزع. والآخر ايجابي وهو مصارعة الاميال الفاسدة والجهد لإماتتها وقتلها. والصلب والموت، صلب الجسد، الانسان العتيق وشهواته، لكي نحيا حياة المسيح.

عبارات حديثة. يجب البعض في هذه الايام استعمال عبارات ملطفة، تدل بالأخرى على الهدف المنشود أكثر منه على الجهد المفروض. فيقولون على الانسان ان يصلح نفسه، ويملك ذاته، ويهدب ارادته، ويوجه نفسه الى الله. ان هذه العبارات سديدة، بشرط ان نبين ان اصلاح نفوسنا والتسلط عليها غير ممكن الا بمحاربة الاميال الفاسدة الكامنة

فيها واماتتها. وانه لا يمكن ان نهذب ارادتنا الا بقمع القوى الدنيا وتدريبها. ولا يمكن. الاتجاه الى الله الا بالتجرد عن المخلوقات ونزع الرذائل. وبعبارات اخرى، تجب معرفة ضم مظهري الامامة كما يعمل الكتاب المقدس، وينبغي تبيان الغاية من الامامة قصد التعزية، لكن دون اخفاء الجهد الضروري للوصول اليها.

تحديد. اذن يمكننا ان نحدد الامامة هكذا: مصارعة الاميال الرديئة لكي نخضعها للإرادة ونخضع الارادة لله. ليست الامامة اذن فضيلة مفردة، بل مجموعة فضائل، بل الدرجة الاولى لكل الفضائل، فتقوم بالتغلب على الصعوبات، ابتغاء اعادة التوازن في القوى العقلية الى نظامها المتسلسل. فيتضح لنا ان الامامة ليست غاية بل واسطة: لا يमित الانسان نفسه الا ليحيا حياة أسمى، ولا يتجرد عن الخيرات الخارجية الا كي يمتلك أفضل الخيرات الروحية، ولا يكفر بنفسه الا ليتملك الله، ولا يصارع الا ليتمتع بالسلام، ولا يموت عن ذاته الا ليحيا حياة يسوع حياة الله. اذن ان الاتحاد بالله هو غاية الامامة. بهذا نعرف ضرورتها معرفة اتم.

## ضرورة الامامة

يمكن درس هذه الضرورة من وجهة مزدوجة، وجهة الخلاص، ووجهة الكمال.

## ضرورة الامامة للخلاص

من الامانات ما هو ضروري للخلاص، بمعنى ان من لا يمارسها يتعرض للسقوط في الخطيئة المميتة.

ان ربنا يسوع يتكلم عن ذلك بطريقة جلية فيما يختص بالخطايا المضادة للطهارة: ((ان كل من نظر الى امرأة لكي يشتهيها فقد زنى بها في قلبه)) (متى ٥: ٤٨). هناك اذن نظرات ثقيلة الاثم، وهي ما تقود اليها الرغبات الرديئة. فتجب امامة هذه النظرات تحت تبعة الخطيئة المميتة. بالتالي هذا ما يضيفه ربنا يسوع بهذه الكلمات النافذة: ((ان شككتك عينك اليمنى فاقلعها وألقها عنك فانه خير لك ان يهلك أحد اعضاءك ولا يلقي جسدك كله في جهنم)) (متى ٥: ٢٩). فلا يعني ذلك قلع العين بل ضبط النظر عن رؤية المشككة. ان القديس بولس يعطينا مبرراً لهذه الاوامر الباهظة: ((لأنكم ان عشتم بحسب الجسد تموتون واما ان أتمم بالروح اعمال الجسد تحيون)) (رو ٨: ١٣) وفي الواقع قلنا ان الشهوة المثلثة الكامنة فينا التي يثيرها العالم والشيطان، تحملنا غالباً على الشر، وتعرض خلاصنا للخطر ان لم نَعن بِاماتتها. تنشأ عن ذلك الضرورة المطلقة ان نحارب دائماً الاميال الرديئة الكامنة فينا، وان نهرب من اسباب الخطيئة القريبة، أعنى من تلك المواضيع او من اولئك الاشخاص، الذين ثبت لخبرتنا قبلاً انهم كانوا لنا خطراً حقيقياً، ويحتمل ان يسقطونا في الخطيئة المميتة، وان نرفض في الوقت نفسه كثيراً من اللذات التي تجرنا اليها طبيعتنا. اذن من الاماتات ما هو ضروري وبدنه نسقط في الخطيئة المميتة.

من الاماتات ما تأمر به الكنيسة لتعين إزام الاماتة العام، الزاماً يذكرنا به الانجيل غالباً: كالامتناع عن الاطعمة الزفرية والصوم. هذه الشرائع تلزم تحت تبعة الاثم الثقيل من ليس لديهم عذر شرعي. علينا هنا ان نبدي ملاحظة مهمة: من البشر من هم لأسباب معقولة، معفون من هذه الشرائع، وليسوا لهذا السبب معفون من شريعة الاماتة.

وبالنتيجة يلتزمون ان يمارس الاماتة بطريقة اخرى، وبدون ذلك لا يعتمدون ان يشعروا بتمرد الجسد. هناك اماتات عدا ما ذكرناه من التي تفرضها الشريعتان الالهية والكنيسة، فعلى كل ان يفرضها على نفسه بحسب مشورة مرشده، وفي ظروف خصوصية عندما تكون التجارب أكثر الحاحاً. فيختار منها ما سندل عليه.

## ضرورة الاماتة للكمال

تنشأ هذه الضرورة مما قلناه عن طبيعة الكمال. فالكمال يقوم في محبة الله البالغة حتى الذبيحة والتضحية بالذات. وحتى انه حسب الاقتداء بالمسيح يتعلق مقدار نموها الروحي بنسبة ما نقهر

نفسنا: ((بقدر ما يميت الانسان نفسه يتقدم)) (كتاب ١: ٢٥). اذن يكفي ان نذكر باختصار بعض اسباب تؤثر في ارادتنا، لتساعدنا على ممارسة هذا الواجب.

## من جهة الله

أ) ان اتحدنا بالله هو غاية الاماتة. والحال اننا لا نستطيع ذلك بدون تجردنا عن المحبة غير المرتبة للمخلوقات. كما يقول بكل صواب القديس يوحنا الصليبي: ((النفس المتعلقة بالخليقة تصير شبيهة بها. فكلما عظمت المحبة تتحقق الوحدة، لان المحبة توطن علاقة مساواة بين المحب والمحبوب... اذن من يحب خليقة ينحط الى مستواها، حتى الى أسفل ايضاً. لان الحب لا يكفي بالمساواة بل يفرض عبودية. لذلك فالنفس العابدة غير قادرة على الاتحاد الوثيق به والتحول اليه، لان حقارة الخليقة أبعد عن عظمة الله من الظلمات عن النور)). والحال ان النفس التي لا تميّت ذاتها تتعلق حالاً بالمخلوقات بشكل غير منظم؛ وفي الواقع انها منذ السقطة الاصلية تشعر بأنها منجذبة اليها واسيرة جمالها، فعوض استخدامها هذه المخلوقات كمراقبي توصل الى الخالق، تسربها وتحسبها كغاية. فمن الضرورة المطلقة لقطع هذا الجاذب، وللتخلص من هذا الاستيلاء، وجوب الانفصال عن كل ما ليس هو الله، او اقله عن كل ما لا يعد كواسطة للوصول اليه. اذ قابل الاب اوليه بين حالة المسيحيين وحالة آدم حين كان في حالة البرابرة، قال ان الفرق عظيم بين الحالتين: ((فآدم كان يبحث عن الله ويخدمه في مخلوقاته ويعبده. اما المسيحيون فبالعكس، اذ عليهم ان يلتمسوا الله بالإيمان ويخدموه ويعبدوه متفرداً بذاته وبقداسته، منفصلاً عن كل مخلوق)). بهذا تقوم نعمة المعمودية المقدسة.

ب) ينظّم في يوم عمادنا عقد حقيقي بيتنا وبين الله:

١) فالله من جهته قد طهرنا من الدنس الاصيلي، وتبنانا وأشركنا في حياته، وعاهد ان يعطينا كل النعم الضرورية لحفظها وانمائها. فنحن نعلم بأي سخاء قد حافظ على عهده.

٢) ونحن من جهتنا قد عاهدنا ان نعيش كأبناء حقيقيين لله، وان نقرب من كمال ابينا السماوي، بمحافظتنا على هذه الحياة الفائقة الطبيعة: والحال اننا لا نستطيع ذلك الا بقدر ممارستنا الاماتة، لان الروح القدس الذي منحناه بالعماد ((يحملنا من جهة على تحمل الفقر وازدراء العذابات، ومن جهة اخرى، فجسدنا يرغب في الشرف واللذة والغنى)).

ان فينا عراقاً وصراعاً دائماً. ولا نقدر ان نكون أمناء مع الله الا برفض المحبة المفرطة للمجد والتنعم والغنى. لذلك حين يعمدنا الكاهن يرسمنا بإشارة الصليب، كي يغرس فينا محبة الصليب، ويمنحنا القوة على حمله. اذن اننا نخون عمادنا ان لم نحمل صليبنا بممارستنا الرغبة في المجد بالتواضع، ومحبة اللذة بالإماتة، والعطش الى الغنى بالفقر.

## من جهة يسوع

أنا بالمعمودية قد اتحدنا بيسوع، فعلينا ان نقبل منه الحركة والهجمات ونسجم معه. والحال ان كتاب الاقتداء يقول: ((حياة المسيح كانت كلها صليباً واستشهاداً)) (كتاب ٢ ف ١٢ عد ٧). اذن لا يمكن ان تكون حياتنا حياة لذة وامجاد، بل حياة اماتة. وبالتالي هذا يقوله لنا رأسنا الالهي: ((من اراد ان يتبعني فليترك نفسه ويحمل صليبه كل يوم ويتبعني)) (لو ٩: ٢٣). فاذا وجب على أحد الالتحاق بيسوع، فهذا الواجب اولى بمن يصبو الى الكمال. اذن كيف نتبع يسوع الذي حمل الصليب منذ دخوله الى العالم، والذي تاق كل حياته الى الآلام والاتضاع، والذي اتخذ الفقر ولم يزل يلازمه حتى الجلجلة، إذا احببنا اللذة والامجاد والغنى، وإذا لم نحمل كل يوم الصليب الذي اختاره الله وارسله الينا؟ يقول القديس برنردس: ((عار علينا، تحت إمرة رأس مكلل بالشوك ان نكون اعضاء نتأثر من لا شيء، ونخاف اقل عذاب)).

فلكي نلتئم مع يسوع المسيح ونقترب من كماله، علينا اذن ان نحمل صليبنا مثله.

ب) إذا تقنا الى الرسالة نجد ثم باعثاً جديداً على صلب جسدنا. ان يسوع قد خلص العالم بالصليب. فبالصليب اذن نساعد على خلاص اخوتنا، وتثمر غيرتنا على قدر ما نشترك في آلام المخلص. هذا ما كان ينعش القديس بولس عندما كان يتمم في جسده آلام معلمه، لكي ينال النعم للكنيسة: ((أتم ما ينقص من شدائد المسيح في جسمي لأجل جسده الذي هو الكنيسة)) (كو ١: ٢٤). وهذا ما عضد فيما سلف، ويعضد الآن ايضاً النفوس الكثيرة، التي تترضي ان تكون ذبيحة كي يتمجد الله ويخلص النفوس. لا شك ان العذاب قاس، لكن كيف نجسر ان نتظلم؟ عندما نتأمل يسوع ماشياً امامنا حاملاً

صليه لأجل خلاصنا وخلصنا وخلص اخواتنا، وعندما نتأمل في نزاعه وفي الحكم الجائر عليه، وفي جلده وتكليه بالشوك، وفي صلبه، وعندها نسمع السخرية منه، وما تحمل من الالهانات والمتاعب صامتاً، اننا لم نكيد سفك الدم: ((اننا لم نجاهد حتى الدم)) (عبر ١٢:٤). وإذا عرفنا قدر نفوسنا ونفوس اخوتنا معرفة حقيقة، أفلا نستحق معاناة بعض العذابات الزائلة لأجل مجد لا ينتهي ولا جل مساعدات ربنا على خلاص هذه النفوس، التي أهرق دمه لأجلها حتى آخر نقطة؟

ان بعض النفوس قد أدركت هذه الاسباب على سموها، حتى منذ بداءة اهتدائها. فعرض هذه الاسباب عليها انما هو اسراع في عمل تطهيرها وتقديسها.

### من جهة تقديس نفوسنا

أ) اننا في حاجة لضمان ثباتنا. فالإماتة هي بدون شك إحدى فضليات الوسائل لوقايتنا من الخطيئة. وما يوقعنا في التجربة انما هو حب اللذة او الخوف من التعب والكفاح، خوف الصعوبة وعناء الجهاد.

فالإماتة تحارب هذا الميل المزدوج الذي ليس هو في الحقيقة سوى واحد. واذ تحرمتنا الاماتة من بعض اللذات المحللة، تسليح ارادتنا في وجه اللذات المحرمة، وتسهل لنا الانتصار على الشهوات الحسية والانانية، كما قال بصواب القديس اغناطيوس: ((بقهرنا الشهوة ومحبة الذات)). وان خضعنا بعكس ذلك للذة، مجيزين لفسادنا كل المسرات المسموح بها، كيف نقوى على المقاومة، حين تنهض الشهوة الحسية الحريصة على الملذات الجديدة الخطرة او المحرمة ايضاً، كأنها منجذبة بقوة العادة لاستجابة تطلباتها؟ فالمنحدر زلق جداً، حتى انه في مادة الشهوة الحسية خصوصاً، يسهل التردّي في الهوة التي يجذبنا اليها نوع من الدور. اما هوة الكبرياء فأسرع زلقاً مما يظن: نكذب في مادة خفيفة لنعتذر ونتجنب أمراً يذلنا. وعندما ندنو من منير التوبة المقدس، نتعرض للإخلال في صدق الطوبة خوفاً من اقرار يذل. فتطلب طمأنينتنا اذن أن نصارع الانانية كما نقاوم الشهوة الحسية والطمع ايضاً.

ب) ليس اجتناب الخطيئة بكاف. بل ينبغي التقدم في الكمال. الحال أي هو المانع الاكبر إذا لم يكن حب واللذة والخوف من الصليب؟ فكف من البشر يرغبون ان يكونوا في حالة أحسن، ويصبوا الى القداسة، لو لم يخشوا الجهد اللازم للتقدم، وما يرسله الله من المحن لأعز خلانه؟ فعلينا اذن ان

نذكرهم بما كان القديس بولس يكرره غالباً للمسيحيين الاولين، وهو ما يعني ان الحياة كفاح، وعلينا ام نخجل، لأننا اقل شجاعة من اولئك الذين يجاهدون لينالوا مكافأة ارضية، والذين يمسكون عن كثير من اللذات الجائزة، ويلزمون نفوسهم بالرياضات الشاقة المضحكة، لكي يستعدوا للانتصار، وذلك لأجل اكليل بال، بينما ان الاكليل الذي وعدنا به لا يبلى: ((كل من يجاهد يمسك نفسه عن كل شيء اما اولئك لينالوا اكليلًا يفنى)) (كو ٩:٢٥).

اننا نخشى العذاب، فهل نفكر في تلك العذابات المطهرية الهائلة، التي يجب ان نعانيها سنين طويلة، ان نعيش بدون اماتة، متمتعين بكل ما يغرينا من الملذات؟ ما أحكم رجال هذا الدهر! كثيرون يفرضون على نفوسهم اعمالاً قاسية، واحياناً تصرفات مذلة كي يربحوا بعض الدريهمات، ويضمنوا الحصول على دخل كبير. ونحن لا نلزم نفوسنا ببعض اماتات، لكي نضمن ثوابنا الابدي في المدينة السماوية! أفي ذلك يكون الصواب؟ علينا ان نتحقق انه لا كمال ولا فضيلة ممكنة بدون اماتة. كيف نكون اطهاراً بدون هذه الشهوات الحسية، التي تميل بشدة الى الملذات الخطرة الرديئة؟ كيف نكون قنوعين بدون كبح الشراهة؟ كيف نمارس الفقر والعدل ايضاً ان لم نحارب الطمع؟ كيف نكون متضعين ودعاء، ومحيين القريب بدون قمع اهواء الكبرياء والغضب والحسد، وهذه الغيرة الكامنة في صميم كل قلب بشري؟ ليس من فضيلة واحدة تمكن ممارستها في حالة الطبيعة الساقطة بدون جهاد وصراع، وبدون اماتة ايضاً. اذن يمكن القول مع السيد ترونسون: ((كما ان عدم التقشف هو أصل كل الرذائل، وعلة كل الشرور، فالإماتة هي اساس الفضائل، ونبع كل خيراتنا الروحية)).

ج) الاماتة هي مصدر خيرات كثيرة حتى على هذه الارض، وقد قال ربنا يسوع: ((كل من ترك بيتاً او اخوة او اباء، او حقولاً... لأجل اسمي يأخذ مئة ضعف ويرث الحياة الابدية)) (متى ١٩:٢٩).

## ممارسة الاماتة

مبادئ. اولاً. يجب ان تشمل الاماتة الانسان كله، جسداً ونفساً. لأنه ان لم يكن الانسان كله مهذباً حسناً، فهو نهزة للخطيئة. لا شك ان الادارة وحدها هي التي تخطأ. غير ان شركاءها في الخطيئة وآلاتها لارتكابها، هي جسدنا بكل حواسه الخارجية ونفسنا بكل قواها: اذن على الانسان كله ان يكون مهذباً او مماتاً.

ثانياً. ان الامامة تصادم اللذة. لا شك ان اللذة ليست بذاتها شراً. انما هي خير ايضاً، حين تكون خاضعة للغاية التي وضعها الله لها.

والحال ان الله اراد ان يعلق بعض اللذة في تكميل الواجب، لكي يسهل ممارسته: فنجد بعض اللذة في الاكل والشرب، وفي العمل وفي واجبات سواها من هذا النوع. اذن ليست اللذة في التصميم الالهي غاية بل واسطة.

فتذوق اللذة بقصد تحسين العمل الواجب ليس محرماً: هذا هو النظام الذي وضعه الله. غير ان ارادة الله لأجل اللذة كغاية، دون اية علاقة بالواجب، انما هي على الاقل خطيرة. لأننا بها نتعرض للزلق من اللذات الجاهزة الى الاثيمة. فتذوق اللذة بقطع النظر عن الواجب هو الخطيئة تتفاوت في الثقل والخفة، لأنه خرق النظام الذي اراده الله. تقوم الامامة اذن بحرمات الانسان نفسه اللذات الرديئة المضادة نظام العناية الالهية، او المضادة شرائع الكنيسة. تقوم الامامة ايضاً في نبذ اللذات الخطرة، كي لا نتعرض للخطيئة. وتقوم الامامة كذلك بالامتناع عن ملذات جائزة، لكي نكون على ثقة من تسلط الارادة على الشعور فلهذه الغاية نمسك لا عن بعض الملذات فحسب، بل نلزم نفسنا ببعض اماتات عملية: فمن الاختيار نتحقق، ان لا شيء أفضل في قمع الميل الى اللذة، من فرض الانسان على نفسه بعض نوافل من الاعمال، او بعض العذبات فوق الواجب.

ثالثاً. غير انه يجب ان نمارس الامامة بحكمة او برصانة: أي ان تكون بنسبة قوى كل فرد طبيعية كانت او ادبية، وبنسبة تميم واجبات حالتنا:

(١) تجب مراعاة القوى الطبيعية الا اننا حسب القديس فرنسيس سالس: ((نحن معرضون لتجارب كبيرة في حالتين، أعنى عندما نفرط في تغذية الجسم، وعندما نهكه بزيادة)). ففي هذه الحالة الاخيرة، ينزل به انحطاط القوى العصبية بسهولة، فتضطره الى مداراة خطيرة.

(٢) تجب مراعاة القوة الادبية، أعنى الا نفرط في فرض حرمانات لا تمكن متابعتها زمناً طويلاً، ومتى أهملت فيمكن ان تقود الى الفتور.

(٣) يجب خصوصاً ان تكون منسجمة مع واجبات حالتنا. لأنها بصفة كونها موجبة تفضل

على النوافل. هذا لا يستحسن ان تمارس ام العيلة إِماتات تمنعها عن القيام بواجباتها نحو زوجها واولادها.

رابعاً. في الاماتات درجات: فمن الواضح ان الداخلية أفضل من الخارجية، لأنها تصادم أصل الشر مباشرة. لكي علينا الان نسي، ان هذه الخارجية تسهل كثيراً ممارسة تلك. من شاء تهذيب مخيليه بدون اماتة عينيه لا ينجح ابداً، لان العينين هي التي تغذي المخيلة بالصور الحسية. لقد ضل المحدثون بسخريتهم من زاهدات القرون المسيحية. وفعلاً فان قديسي كل العصور الذين طوبوا في هذه الايام المتأخرة، وغيرهم من القديسين قد عذبوا بقساوة اجسادهم وحواسهم الخارجية، معتقدين انه من الواجب ان يمات الانسان كله في حالة الطبيعة الساقطة، كي يكون بكامله لله.

انا سنستقري تتابعاً كل انواع الاماتة، مبتدئين من الخارجية لكي نبلغ الى اخفاها هذا هو النظام المنطقي، غير انه ينبغي في العمل معرفة مزجها وتعديلها.

## اماتة الجسم والحواس الخارجية

### اولاً. الباعث للإماتة.

أ) ان ربنا يسوع أمر تلاميذه بممارسة الصوم والقطاع المعتدل، وإماتة النظر واللمس. وقد فهم القديس بولس أحسن منهم، ضرورة قمع الجسد الذي يعذبه، كي يتخلص من الخطيئة ومن الرذل: ((بل أقمع جسدي واستعبده حذار ان اكون ان نفسي مرذولاً بعدما وعظت غيري)) (اكو:٩:٢٧). وقد توسطت الكنيسة ذاتها، ففرضت على المؤمنين بعض ايام صوم وقطاع.

ب) ما الباعث لذلك؟ لا شك ان الجسم الهذب حسناً هو خادم نافع وضروري ايضاً، فتجب مراعاة قواه ليقوم بخدمة النفس. غيران الجسم، في حالة الطبيعة الساقطة، يلتمس اللذات الحسية دون مبالاة بما هو جائز او ممنوع بما هو جائز او ممنوع. ويميل ميلاً خاصاً الى اللذات المحرمة، ويتمرد احياناً على القوى العليا التي تنهاه اليها. انه عدو خطر، يرافقنا في مكان في المائدة وفي السرير وفي سيرنا، حتى انه يجد له غالباً معاونين متحفزين لتحريك شهوته وملاده. ان حواسه هي في الواقع ابواب مفتوحة، يتسرب منها سم اللذة المحرمة النافذ، فمن الضرورة المطلقة اذن ان نسهر عليه ونقمعه ونستعبده: والا فانه يخوننا.

## ثانياً. حشمة الجسد.

لقمع جسدنا نبدأ بحفظ قواعد الحشمة وحسن القيام والجلوس: ففيها مادة غزيرة للإماتة. اما المبدأ الواجب ان يكون لنا قاعدة فهو مبدأ القديس بولس: ((اما تعلمون ان اجسادكم هي اعضاء المسيح، اما تعلمون ان اجسادكم هي هيكل الروح القدس الذي فيكم؟)) (١كو٦: ١٥ و١٩).

أ) فعلينا الا نكسوه بملابس غير محتشمة تثير الفضول واللذة. وليرتد كل حسب ما تقتضيه حالته ثوباً بسيطاً لائقاً، على ان تكون دائماً نظيفاً محتشماً.

لا أحكم من نصائح القديس فرنسيس سالس: ((البساطة والاحتشام خير حليه حلية للجمال، وأفضل معذرة للقباحة ... فالنساء المتعلقة بالأباطيل يحملن على الريب في طهارتين)). وقال القديس: ((على الانسان ان يكتسي بما يناسب حالته، حتى لا يقول العقلاء وأهل الصلاح: متأنق في ملابسه متبرج، ولا يقول الفيتان: متبذل الثبات)). اما الرهبان والراهبات والإكلييريكيون فلهم في زي اثوابهم وقماشها قواعد. عليهم ان يتقيدوا بها: فمن العبث القول ان زهو العالم والغنج يضادان حالتهم؛ ويمكن ان يكونا معسرة للعالمين أنفسهم.

ب) ان حسن القيام والجلوس هو اماتة ممتازة، وفي متناول الجميع: فتجنب باعتناء الجلوس المترخي والمخنث، واجلس مستقيماً دون اكرام ولا تصنع ولا تصنع ولا انحناء على الجانبين. لا تبذل كثيراً جلوسك، ولا تضع رجل فوق رجل وساقاً فوق ساق، ولا بتثاقل الى كرسيك او مركعك. تجنب الحركات الفجائية والارشادات المشوشة: هذه الامور بين مئات سواها، هي وسائل إماتة لا يؤذي صحتنا، لا تسترعي الانتباه بل تجعلنا نتسلط على جسمنا تسلطاً عظيماً.

ج) هنا إماتات أخرى ايجابية، يفرضها التائبون الاسخياء على ذواتهم، كي يقمعوا اجسادهم ويلطفوا ما فيها من حميا في غير اوانها، ويستنهضوا رغبتها في التقوى: فالإماتات الايجابية الاكثر شيوعاً، هي ما يوضع في الساعدين من الاساور الحديدية، و ما يتحزم به من السلاسل على الكلى، او المناطق و الاثواب الشعرية، او بعض جلدات حين يمكن فعلها دون استرعاء الانتباه (١) فعلينا في كل ذلك ان نتخذ بعناية رأي مرشدنا، و نتجنب كل ما يدل على الشذوذ او يملق الزهور، و لا نتكلم عما يكون مخالفاً لقواعد الصحة و النظافة. فلا يسمح المرشد بهذه الامور الا باحتراس، وللاختيار الى وقت محدود فقط. وإذا لاحظ بعض عوائق من هذا النوع او سواه فل يُلغِه.

## ثالثاً. حشمة العينين.

أ) من النظرات ما هي ذات إثم ثقيل، لا تجرح الحشمة فقط بل الطهارة نفسها: ((كل من نظر الى امرأة لكي يشتهيها فقد زنى بها في قلبه) (متى ٥: ٢٨). فينبغي الامتناع عن هذا النظر صريحاً. ومنها ما هي ذات خطر، حين يحذق الانسان ينظره، بدون داع، الى اشخاص او الى اشياء من طبعها ان تهيج التجربة: هكذا يحدرننا الكتاب المقدس الا نتفرس في فتاة، كي لا يكون لنا جمالها سبباً للمعسرة: ((لا تتفرس في العذراء لئلا تعثر ك محاسنها)) (سير ٩: ٥). واليوم حيث الاباحة بعرض الفساد وبذاءة الازياء، وحيث معروضات المسارح الوبيلة والمضرة، وحيث تنشأ في بعض المجتمعات أخطار كثيرة فبأي احتراس يجب ان نتسلح كي لا نتعرض للسقوط في الخطيئة!

ب) ان المسيحي الصدوق، الذي يريد ان يخلص نفسه بأي ثمن كان، لا يقف عند هذا الحد ايضاً، ولكن يتحقق عدم سقوطه في الشهوة الجسدية، يमित فضول عينيه متجنباً مثلاً التشوف من النافذة ليرى المارين. وفي تجواله لقضاء اشغاله او لتزهره يضبط عينيه منخفضتين باحتشام. ويجب بعكس ذلك ان يريحهما ناظراً الى بعض الاشياء، كصور تقوية والى برج جرس، والى صليب وتمثال، لكي ينعش فيه عاطفة المحبة لله وللقدسين.

## رابعاً. اماتة السمع والتكلم.

أ) تقتضي هذه الاماتة ان لا نقول، ولا نسمع شيئاً يضاد المحبة والطهارة والاتضاع، وغيرها من الفضائل المسيحية، لان القديس بولس يقول لنا: ((ان العشرة الرديئة تفسد الاخلاق السليمة)) (١ كو ١٥: ٣٣). وفي الواقع، ان نفوسنا كثيرة قد فسدت، لأنها أصغت الى أحاديث بذئية او مضادة المحبة. الكلام الشهري يهيج فضولاً مَرَضِيّاً، ويثير الشهوات ويضرم الاشواق، ويحث على ارتكاب الخطيئة. الكلام القليل المحبة يحمل على الانقسام حتى في العيال، وعلى الريبة والبغضة والاحقاد. علينا اذن ان نسهر على كلامنا مهما كان طفيفاً، كي نتجنب مثل هذه الشكوك، ونعرف ان نصم اذاننا عن ما يمكن ان يكدر الطهارة و المحبة و السلام.

ب) فلكي ننجح تماماً في ذلك، فلنمت بعض الاحيان فضولنا، بتجنبنا الاسئلة عن كل ما يتملقه، او بقمعنا تلك الرغبة الزائدة في المحادثة التي تجر الى ثمرات غير مفيدة ومضرة ايضاً: ((كثرة الكلام لا تخلو من زلة)) (ام ١٠: ١٩).

ج) وبما ان الوسائل السلبية لا تكفي، فلنعتن ان يدور الحديث على مواضيع لا غير مضره فحسب، بل صالحة وشريفة، وأحياناً على ما يكون قدوة حسنة، وبدون ان نثقل على الغير بملاحظات كثيرة الرصانة، غير خيالة من التصنيع.

### خامساً. إماتة الحواس الاخرى.

ما قلناه عن النظر والسمع والتكلم يطابق سائر الحواس. سنعود الى الذوق حين نتكلم عن الشراهة، والى اللمس حين نتكلم عن الطهارة، اما الشم فيكفي القول ان الاستعمال المفرط للعطور، ليس هو في الغالب سوى سبب يحمل على استرضاء الشهوة الحسية، واحياناً على تهيج اللذة. فالمسيحي الحقيقي والرصين لا يستعملها الا بالاعتدال والمنفعة كبرى. اما الرهبان والاكليركيون، فيوجبون على ذواتهم عدم استعمالها على الاطلاق.

### اماتة الحواس الداخلية

ان ما تحب اماتته من الحواس الداخلية، هو المخيلة والذاكرة اللتان تعملان معاً، لان عمل الذاكرة ترافقه صور حسية.

اولاً. مبدأ. تانك هما قوتان ثمينتان، لا تهينان فقط ما يحتاجه العقل من المواد للعمل. بل تسهلان عليه عرض الحقيقة، بصور ووقائع تجعلها أقرب منالاً واوفر حياة، وبالتالي اشد ترغيباً: فمختصر ركيك، او موجز سقيم وبارد، هو جادب ضعيف لعامة البشر. فعلينا اذن الا نلاشي هاتين القوتين، بل ان نهذبهما ونخضع قوتهما لسلطان العقل والارادة. والا، فان أهملنا يجيشان على النفس جماً من الذكريات والاشباح، فتشتتها وتبدد قواها، وتضع عليها وقتاً ثميناً من الصلاة والعمل، وتولد فيها الوفاً من التجارب المضادة الطهارة، والمحبة والاتضاع وسائر الفضائل. فمن الضرورة اذن ان نهذبهما، ونعدّهما لخدمة القوى العليا.

ثانياً. قواعد يجب اتباعها.

أ) فلنجهد اولاً في قمع زيغان الذاكرة والمخيلة ان نطرد بدون شفقة ومنذ البداية، أعني حالما نشعر بذلك، الاشباح والتذكرات الخطرة التي اذ تذكرنا بماضي مشوش، او ينقلنا إيانا الى وسط غاويات الحاضر والمستقبل، فتكون لنا مصدر تجارب. لكن بما ان هناك غالباً شكلاً من الجبرية النفسانية،

ينقلنا من الاحلام الباطلة الى اوهام خطرة، فيجب ان نصون ذاتنا من هذا التشابك، بإماتة الافكار غير النافعة التي تضع علينا وقتاً ثميناً وتمهد السبيل لأفكار غيرها اشد خطراً. قال القديسون: اماتة الافكار غير المفيدة هي موت الافكار الرديئة.

ب) ان أفضل الوسائل الفعالة لبلوغ أفضل نجاح في ذلك، هي ان نشعل نفسنا بكاملها في الواجب الحاضر في اعمالنا وفي دروسنا وفي مهامنا الاعتيادية. بالتالي ان أفضل واسطة لنحسن النجاح في ما نحن آخذون في عمله، هي توجيه كل قوتنا الى العمل الحاضر: ((افعل ما انت فاعل)).

وليتذكر الفتيان ان نموهم في دروسهم وفي سائر واجبات حالتهم، يوجب عليهم ان يفسحوا مكاناً أرحب لعمل العقل والتفكير، ومكاناً اضيق للقوى الحسية. واذ يحققون مستقبلهم هكذا يتجنبون الأخيلة الخطرة.

ج) غير ان استعمال الذاكرة والمخيلة مفيد جداً لتغذية تقوانا، اذ نبحت في كتبنا المقدسة وفي صلواتنا الطقسية، وفي الكتب الروحية عن أجمل الآيات وأبداع التشابيه والصور. ونستخدم المخيلة لتجعلنا بحضرة الله، ونتمثل بالتفصيل اسرار ربنا يسوع والعدراء القديسة. فعوضاً عن ان نضعف المخيلة، نملاًها من التمثيلات التقوية التي تبعد التمثيلات الخطرة وتسهل علينا فهم الحوادث الانجيلية، وتيسر لنا شرحها لسامعينا شرحاً وافياً.

## اماتة الاهواء

ان الاهواء بحسب معنى الكلمة الفلسفي، ليست بالضرورة على الاطلاق رديئة: هي قوى حية، عنيفة نقدر غالباً ان نستخدمها للخير كما للشر، بشرط ان نحسن تهذيبها وتوجيهها الى غاية شريفة. غير انه بحسب اللغة العامية، وحسب بعض المؤلفين الروحيين، تستعمل هذه الكلمة بمعنى سيئ للدلالة على الاهواء الرديئة. سنذكر اذن: أهم المفهومات النفسية عن الاهواء. سندل على معلومات الصالحة والرديئة. سنسن قواعد لاستخدام الاهواء الحسن.

## الاهواء في علم النفس

اولاً. مفهومات. الاهواء حركات عنيفة للشهوة الحسية نحو خير حسي، يحدث ارتجاجاً متفاوتاً في الجسم. اذن في أصل الهوى بعض المعرفة على الاقل حسية لخير مرجو، او مكتسب او لسر يضاد

هذا الخير. فمن هذه المعرفة تنشأ حركات الشهوة الحسية. وبما ان هذه الحركات عنيفة وشديدة التأثير على الميل الحسي، فالغضب يجم الدم الى الدماغ ويمد العروق، والخوف يجعل اللون اصفر، والمحبة تشرح القلب، والخوف يقبضه. وهذه المفاعيل الفيزيولوجية الطبيعية لا تحدث بدرجة واحدة عند الجميع: انها تتعلق بمزاج كل فرد، وبنسبة شدة الهوى ونسبة سيطرة المرء على ذاته. وهذه الالهواء يعدها الصوفيون أحد عشر هوى وكلها متعلقة بالحب. وهي الحب، البغض، الشوق، النفور، السرور، الحزن، الجسارة او الجرأة او الشجاعة، الخوف، الرجاء، اليأس، الغضب.

## مفاعيل الالهواء

مفاعيل الالهواء المنحرفة. تدعى منحرفة الالهواء التي تتجه الى خير حسي ممنوع، او الى خير مسموح به، لكن بتسرع وبدون ان نعزوه لله. والحال ان هذه الالهواء المنحرفة:

أ) تعمي النفس:

انها تميل الى موضوعها بحمّية دون استشارة العقل، اذ تستسلم لقيادة الجاذب او اللذة. والحال ان هذا عنصر مخل في النظام، يفضي الى تعويج الحكم واطلام العقل المستقيم: ان الشهوة الحسية عمياء من طبيعتها، فان سلمت النفس قيادها الى هذه الشهوة عميت هي ايضاً: فعوضاً عن ان تستسلم لقيادة الواجب، تستسلم الى اللذة الوقتية. فهي كسحابة تحجب الحقيقة عنها: فتبيت عاجزة عن اصدار الحكم السليم.

ب) تتعب النفس وتؤلمها:

١) يقول لنا القديس يوحنا الصليبي: ((الالهواء كالأولاد الصغار اللجوجين لا تدري كيف ترضيهم. يسألون امهم تارة هذا الامر وتارة ذلك، وليسوا بمسرورين ابداً. يعنى البخيل نفسه بالتنقيب عبثاً ليملك كنزاً. هكذا النفس تعنى بإرادتها البلوغ الى ما تطلبه هواؤها. فان ارضت أحدها تنشأ الهواء غيرها فتجلب المتاعب، بحيث لا يستطيع شيء ان يرضيها ... فالرغبات تتعب النفس وتغمها. ثم ان هذه الرغبات تحزن النفس شديداً وتهزها وتقلقها، كما تفعل الريح بالأمواج)).

٢) ينتج من ذلك الم شديد بقدر حدة الالهواء: لان هذه الالهواء تعذب نفسنا كثيراً قبل ان ترتوي، وبما ان مفتاح البطن لقمة، فهي تطلب دائماً أكثر، وإذا تمرد ال على اواء يفرغ صبرها، وتستحث الارادة لتدعن الى رغباتها المتجددة على الدوام. ان في ذلك عذاباً لا يوصف.

ت) تضعف الارادة:

متى تجاذبت الالهواء المتمردة الارادة الى انحاء شتى تتفرق قواها اضطراراً حتماً. ان كل ما تتخلى عنه الارادة للأهواء يزيد تطلبات هذه ويضعف قوى تلك، كالفروع غير النافعة والبرية التي تنبت حول جذع الشجرة؛ هكذا الرغبات التي لا تقمع تزداد نمواً وتبتز من النفس قوتها، كما تنزع الفروع الطفيلية قوة الشجرة، فيأتي وقت تسقط فيه النفس الضعيفة في التراخي والفتور، وتبيت على وشك الاستسلام التام.

ث) تدنس النفس:

عندما تدعن النفس للأهواء تتحد بالمخلوقات، وتتسفل الى مستواها، فتسرب اليها خباثة تلك المخلوقات وادناسها. عوضاً ان تكون صورة الله المدققة، تسمي صورة ما تتحد به، وتسود جمالها ذرات من الغبار واوساخ الحياة، وتعترض اتحادها التام بالله.

قال القديس يوحنا الصليبي: ((اجسر على ان اثبت ان شهوة واحدة منحرفة، حتى ولو لم تكن ملطخة بخطيئة، تكفي لجعل النفس في مثل هذه الحالة من الظلمة والشناعة والدنس، وعاجزة عن أي اتحاد وثيق بالله، طيلة الزمن الذي لا نتطهر فيه منها. فماذا اقول عن النفس التي فيها فظاعة كل الالهواء الطبيعية، والمستسلمة الى كل شهواتها؟ والى اي مدى واسع تكون بعيدة عن الطهارة الالهية؟ لا يستطيع الكلام ان يوضح الادناس، التي تنشئها في النفس الشهوات الكثيرة المتنوعة، وتعجز البراهين عنها... فكل رغبة وكل شهوة تلقي على شاكتها شيئاً خاصاً من الدنس والفظاعة في النفس)).

نتيجة. من شاء الاتحاد بالله فليمت حتى أصغر الالهواء، لأنها تشل الارادة مهما كانت خفيفة. اليك ملاحظة القديس يوحنا الصليبي: ((لا فرق عند العصفور المربوط في رجله بخيط نحيف او تخين: انه لا يستطيع الطيران الا بعد قطعه)).

فوائد الاهواء المرتبة. انها تستنهض همة العقل والارادة، وتساعد مساعدة قوية: فالمخترع الذي تحته محبته الحارة، يعمل باشد ما يمكن من الصلابة والحدق، لأنه يريد ان يؤدي خدمة لوطنه. واي خطر لا تقتحمه الامُّ في سبيل نجاة ابنها من الضيق؟ حين يعمل القلب والارادة في وجهة واحدة وبضمان قوتيهما، تكون النتائج دون شك اهم واثبت كثيراً فيهمنا اذن ان ننظر كيف نستفيد من الاهواء.

## حسن استعمال الاهواء

بعد ان ذكّرنا مبادئ علم النفس التي تسهل عملنا، سنبين كيف نقاوم الاهواء الرديئة، وكيف نوجه الاهواء الى الخير، وكيف نلطفها. علينا قبل كل امر ان نتكل على نعمة الله لكي نجمع اهواءنا، وبالتالي على الصلاة والاسرار، لكن علينا ايضاً ان نستعمل واسطة سديدة مرتكزة على علم النفس.

أ) ان يتجه كل فكر الى اشاء عمل يقابله، ولا سيما إذا رافقت هذا الفكر تأثيرات شديدة واعتقادات قوية. فالتفكير مثلاً باللذة الحسية، اذ يملكها المرء بشدة في مخيلته، يحرك الرغبة وغالباً الفعل الحسي. وبالعكس، فالتفكير في الاعمال الشريفة، والتصور بالمفاعيل السعيدة، تحرك الرغبة لصنع اعمال من هذا النوع. يصدق هذا خاصة في الفكر الذي لا يبقى مجرداً، ودون ميل وتكييف، اما الفكر الذي ترافقه صور حسية، فيغدو حياً جذاباً في الوقت نفسه. وبهذا المعنى يمكن القول ان الفكر هو قوة الشروع بالسير هو بداية العمل. فاذا أردنا اذن قمع الاهواء الرديئة، علينا ان نقصي كل فكر، وكل تخيل يمثل لنا اللذة الرديئة جذابة. وإذا شئنا، عكس ذلك، ممارسة الاهواء الصالحة او العواطف الحسنة، علينا ان نغذو فينا صوراً وافكاراً تبين وجهة الواجب الصالح والفضيلة، وتجعل هذه الافكار ايضاً ذات موضوع حقيقي، وقوية قدر المستطاع.

ب) يدوم هذا الفكر طالما لا يحوه فكر أقوى يحل مكانه. هكذا الشهوة الحسية، لا نزال نشعر بها إذا لم يطردها فكر أشرف منها يسيطر على النفس. فاذا شئنا اذن التخلص منها، علينا ان ننصرف الى سلسلة افكار تخالفها، او تضادها بالكلية، بواسطة قراءة او مطالعة مفيدة. إذا أردنا تقوية فكر صالح، علينا ان نديمه بالتأمل في يمكن ان يغدوه.

ت) يزداد تأثير الفكر إذا ضممناه الى افكار أخرى تشبهه، وتعززه وتحوّله فساحة اوسع. هكذا الفكر في خلاص النفس او الرغبة فيه، يغدوان اشد وافعل، إذا قرناهما بفكر العمل في خلاص نفوس اخوتنا، كما نرى مثال ذلك عند القديس فرنسيس كسفاريوس.

ث) اخيراً يبلغ الفكر أوج قوته، عندما يشغلنا عادة ويصير على نحو ما الفكر الدائم، يلقتن كل الافكار والاعمال. هذا ما يلاحظ نظراً للأمور الطبيعية، في من ليس عندهم سوى فكر واحد، فكر في هذا الاكتشاف او في ذاك، او نظراً للأمور الفائقة الطبيعة، في من يتعمقون كثيراً في حكمة إنجيلية، حتى تسمي دستوراً لحياتهم مثلاً: ((بع كل شيء لك ووزعه على المساكين)) (لو ١٨: ٢٢). او ((ماذا ينتفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه)) (متى ١٦: ٢٦). او ايضاً: ((حياتي الخصوصية هي يسوع المسيح)).

فلنقصد اذنان نغرس عميقاً في نفوسنا، بعض افكار هادية أخاذة شاغلة. ثم نوحدها بشعار وحكمة يجعلانها محسوسة ويضبطانها حاضرة دائماً في العقل. مثلاً: ((ألهي وكل شيء لي! لمجد الله الاعظم. الله وحده يكفي! من له يسوع فله كل شيء! الحياة مع يسوع فردوس عذب!)) فشعار من هذا النوع يسهل كثيراً الانتصار على الاهواء الرديئة، والاستفادة من الاهواء الصالحة.

## كيف نحارب الاهواء

حالما نعرف ان حركة منحرفة قامت في نفسنا، علينا ان نستعين بكل الوسائل الطبيعية والفائقة الطبيعة، لكي نوقفها ونتسلط عليها.

أ) فلنوقف هذه الحركة، يجب على الارادة المستعينة بالنعمة ان ترفضها لأول وهلة. هكذا نتجنب الاعمال او الحركات الخارجية، التي من شأنها ان تهيج الهوى او تقويه: فان شعر الانسان ان الغضب مسيطر عليه، فليجانب الحركات المشوشة ونيرات الصوت، ويصمت الى ان تعود السكينة اليه. وان كان الموضوع حياً شديداً للغاية، فليجانب الالتقاء بالشخص المحبوب ومخاطبته، ولا سيما إظهار ما يكرهه له من الحب ولو بشكل غير صريح. هكذا يضعف الهوى قليلاً فقليلًا.

ب) فضلاً عن ذلك، فان كان الموضوع على الاخص هوى لذة فلنجهتد في نسيانه.

ولكي ننجح في ذلك:

١) فلنوجه مخيلتنا وعقلنا بقوة الى كل مهمة شريفة، تستطيع ان تصرفنا عن الموضوع المحبوب، ونسعى ان نستغرق في الدرس وفي قضية ما، وفي اللعب، وفي التنزه وفي الآخرين الخ...

٢) عندما تستتب السكينة، نستعين باعتبارات ادبية تقدر ان تسلح ارادتنا على جانب اللذة: اعتبارات طبيعية كصعوبات الحاضر والمستقبل الناتجة عن علاقة خطيرة، وعن صداقة جد حسية. ولا سيما اعتبارات فائقة الطبيعة، كاستحالة التقدم في الكمال ما دمنا نغذو علائقنا، وما دامت السلاسل التي نحبكها غير مفككة، وما دام تعرض خلاصنا مائلاً للخطر، وما دام الشك ممكناً بسببنا الخ.

وان كانت الالهواء أهواء مصارعة كالغضب والبغضة، فبعد الهرب هنيهة تخفيفاً للهوى، يمكننا غالباً ان نهجم ونقف في وجه الصعوبة، ونعتقد استناداً الى العقل ولا سيما الايمان ان الاستسلام الى الغضب او الى البغضة لا يليق بإنسان وبمسيحي. وان الثبات في الهدوء وضبط النفس لهو اجل وأشرف شيء وأكثر موافقة للإنجيل.

ت) اخيراً فلنجهد جادين في الافعال الايجابية المضادة للهوى. فان شعرنا بنفور من أحد فلنعمل كأننا نرغب اكتساب عطفه، ولنسع في خدمته، ونلاطفه، خصوصاً فلنصل لأجله: لأنه لا شيء يلين القلب كصلاة صادقة لأجل عدو. وان شعرنا بعكس ذلك بحب مفرط لأحد فلنتجنب عشرته، وان لم نستطع ذلك فلنبد له ذلك الطف البادر، وذلك الشكل من اللامبالاة، الذي نبديه لعامة البشر فتنتهي هذه الاعمال المضادة بالضعف ويتلاشى الهوى، ولا سيما إذا عرفنا ان نهذب اهواءنا الصالحة.

## كيف نوجه الالهواء التي الخير

قلنا ان الالهواء ليست رديئة بذاتها. فيمكن اذن توجيهان الى الخير. وذلك دون اي استثناء.

أ) يتجه الحب والفرح الى المودات العائلية النقية والشرعية والى الصدمات الصالحة والفائقة الطبيعة. لكنهما يتجهان خصوصاً الى ربنا الذي يبدي في العطف والسخاء والتفاني ما لا يبديه سواه من الاصدقاء. فإلى هذا النحو علينا ان نوجه قلبنا حين نقرأ ونتأمل الفصلين البديعيين من كتاب الاقتداء بالمسيح اللذين فتنا ويفتنان ايضاً نفوسنا كثيرة: الكتاب الثاني، الفصل السابع: ((محبة يسوع فوق كل شيء)). الكتاب الثاني ايضاً، الفصل الثامن: ((في صحبة يسوع المؤنسة)).

ب) البغضة والنفور ينقلبان حينئذ على الخطيئة والرذيلة وعلى كل ما يقود اليهما، لكي نكرهما ونهرب منها: ((ابغضت الزور واستفظعته)) (مز ١١٨: ١٦٣).

ت) الشوق يتحول الى طموح شرعي، ذلك الطموح الجانح بالمرء الى احترام العلية والوطن. والطموح الفائق الطبيعة الجانح بالمرء كي يصبح قديساً ورسولاً.

ث) الحزن، عوضاً عن ان يتحول الى سويداء يصبح تسليماً عذب ازاء المحن التي هي للمسيحي بذار مجد او مجد او حنان رقيق نظراً الى يسوع المتألم المهان، او نظراً الى النفوس الحزينة.

ج) الامل، يصبح رجاء مسيحياً او ثقة بالله لا تتزعزع، ويضاعف قوانا في صنع لا خير.

ح) اليأس، يتحول الى تحرز عادل، من النفس، مبني على عجزنا وخطايانا، غير ان الثقة بالله تطفه.

خ) الخوف، هو للمسيحي مصدر قوة، عوضاً عن ان يكون عاطفة ضاغطة تضعف النفس: يخاف الخطيئة وجهنم لكن هذا الخوف الشرعي يسلمه بالشجاعة على الشر. يخاف الله خصوصاً ويخشى ان يهينه يزدري الحياء البشري.

د) الغضب ليس هو سوى سخط مقدس شرعي. يقوينا على الخطيئة عوضاً عن ان ينزع سيطرتنا على ذواتنا.

ذ) الجرأة، تصبح شجاعة إزاء الصعوبات والاطخار: كلما كان الامر صعباً يبدو حرياً بجهودنا.

لا أفضل من التأمل المقترن بعواطف الحب التقوية، والمقاصد السخية للبلوغ الى هذه النتيجة السعيدة. بالتأمل ننشئ مثلاً أعلى واعتقادات عميقة لنقترب منها كل يوم. علينا في الواقع ان نستحث نفسنا ونغدو فيها افكاراً وعواطف تلائم ما نريد ممارسته من الفضائل، وان نقصي بالعكس الصور والرسوم والتأثيرات الملائمة للرذائل الى نريد تجنبها. وللوصول الى هذه النتيجة، ليس أفضل من التأمل كل يوم بموجب الطريقة التي بينها بهذه المناجاة المنفردة مع الله الحقيقية والجودة غير المتناهيتين، تصبح الفضيلة كل يوم أحب والرذيلة أكره، واذ تتقوى الارادة بهذه الاعتقادات، تجذب الاهواء الى الخير، عوضاً عن ان تتهاون عن ان تتهاون فتجذبها الاهواء الى الشر.

## كيف نلطف الاهواء

أ) ولو اتجهت الاهواء الى الخير، علينا مع ذلك ان نعرف كيف نلطفها أعنى كيف نخضعها للإرادة والعقل اللذين يقودهما الايمان والنعمة وبدون ذلك انها تتجاوز الحد احياناً، لأنها من طبيعتها شديدة الهياج.

هكذا يمكن ان تصر الرغبة الحارة في الصلاة اجتهاداً، والمحبة ليسوع يمكن ان تظهر بجهود حسية تضني الجسد والنفس. والغيرة المفرطة في غير موضعها تصبح انها كائن والسخط يتحول الى غضب، والفرح الى طيش. نحن معرضون خصوصاً الى الافراط في عصرنا هذا الذي يسمي فيه اندفاع معاصرنا المحموم معدياً. والحال إذا اتجهت هذه الحركات المضطربة الى الخير تتعب الروح والجسد وتنهكهما، ولا يمكن اخيراً ان تدوم طويلاً. مع ذلك ان متابعة الجهد هي أفضل خير نعمله في هذه الحالة.

ب) اذن يجب ان يراقب حماسنا حكيم، وعلينا ان نتبع مشوراته.

١) علينا ان نجعل في مجال تهذيب رغباتنا واهوائنا بعض الاعتدال وشكلاً من السكينة، ونتجنب الجهد المتواصل: من الضروري ان يراعي الانسان مطيته لكي يصل الى غاية شوطه، ويتجنب بالتالي التسرع المفرط الذي ينهك القوى. لان آلتنا البشرية المسكينة لا تقوى على تحمل الضغط الدائم إذا شئنا الا تتفجر.

٢) قبل الجهد العظيم وبعد بذل القوة الجسم، تقتضي الفطنة ان نفرض بعض السكينة وبعض الراحة على المطامح الشرعية، وعلى الغيرة الحرة والصادقية. وهذا هو المثال الذي تركه لنا ربنا يسوع المسيح. كان بعض الاحيان رسله الى الراحة: ((هلموا وحدكم الى موضع قفر واستريحوا قليلاً)) (مز ٦: ٣١).

حاشا الاهواء وهي موجهة وملطفة، ان تكون عائقاً للكمال، بل انها وسائل فعالة تقربنا منه كل يوم. وتغلبنا على الاهواء يسهل علينا ان نحسن تهذيب قوانا العليا.

## اماتة القوى العليا

ان القوى العليا التي تجعل الانسان انساناً، هي الارادة والعقل اللذان يعوزهما التهذيب ايضاً، لان الخطيئة الاصلية قد لحقت كليهما.

## امانة العقل او تهذيبه

منحنا العقل لكي نعرف الحقيقية، ولا سيما الله والامور الالهية. ان الله الذي هو الشمس الحقيقية للعقول يضيئنا بنور مزدوج، نور العقل ونور الايمان. لا نستطيع في الحالة الحاضرة إدراك الحقيقة الكاملة بدون مساعدة هذين النورين. فمن ازدري أحدهما، فقد أعمى نفسه. فتهذيب عقلنا هو امر شديد الاهمية، لأنه هو الذي ينير الارادة ويوجهها الى الخير. والعقل الذي يسمى ضميراً هو قاعد حياتنا الادبية والفائقة الطبيعة. فلكي يكون هكذا، علينا ان نميت امياله الساقطة ومن أخصها الجهل والفضول والتسرع والكبرياء والعناد.

اولاً. الجهل، يصارع بالاجتهاد المنظم الثابت في الدرس. ولا سيما في درس كل يختص بالله وبغايتنا الاخيرة وفي وسائل البلوغ اليها. وفي الواقع ان الاشتغال بكل العلوم وإهمال علم خلاص النفس لهو الحمق بعينه. لا جرم ان كلاً يلتزم ان يدرس ما يناسب حالته من العلوم البشرية.

ولما كان واجبنا الاولي ان نعرف الله لكي نحبه، فليس في اهمال هذا الدرس معذرة. مع ذلك فكم من المسيحين المتضلعين من هذا النوع من العلوم او من ذاك، لا يعرفون سوى معرفة ابتدائية الحقائق المسيحية واللاهوت النظري والادبي والنسكي! وقد ظهر اليوم نمو في نخبة من الشبيبة، وفي بعض المنتديات حيث تدرس برغبة شديدة كل المواضيع الدينية، بينها الروحية. تبارك الله وعسى ان تنتشر هذه الحركة!

ثانياً. الفضول، مرض في العقل يزيد في الجهل الروحي لأنه يدفعنا بحمية مفرطة الى اكتساب المعارف التي تسرنا أكثر من التي تفيدنا، وهكذا نضيع وقتاً ثميناً. وفي الغالب، يرافقه تسرع وتهور يدفعنا الى التعمق في الدروس التي تغري فضولنا وتضيع علينا ما هو أهم منها. فللانتصار على الفضول علينا:

(١) ان ندرس في درجة اولى لا ما يسر فقط، بل ما يفيد. ولا سيما ما هو ضروري كما يقول القديس برنردس: ((الافضلية للأضر)) ولا تهتم بالباقي الا على سبيل التسلية. وبالتالي لا نفرط في مطالعتنا

ما يغذي المخيلة أكثر من العقل، كأغلب الروايات او ما يتعلق بأخبار العالم وفرقعاته كالجرائد وبعض المجالات.

٢) يجب تجنب التسرع في هذه المطالعات، ويجب الا يطالع بسرعة محمومة مجلد بكامله كذلك حين تكون المطالعة صالحة، يجب ان نطالعها بتأن لنحسن فهمها ونتذوق ما نقرأه.

٣) تكون المطالعة أسهل إذا طالعنا لا عن فضول ولا عن عجب بمعارفنا، بل لعل فائقة الطبيعة كي نبي ذواتنا والقريب: ((لدينا لبناء الآخرين المحبة، ولتهذيب ذواتنا لنا الفطنة)). لان القديس أغسطينوس يقول قولاً صوابياً: ((يجبان يوقف العلم لأجل المحبة)). (هكذا يجب ان يكون العلم كآلة بها يتمكن بناء المحبة)). يصدق هذا حتى في درس القضايا الروحية وفي الواقع ان بين من يدرسون هذه الدروس الروحية من يلتمسون ارضاء فضولهم وكبرياتهم أكثر من تطهير قلوبهم من الاماتة.

ثالثاً. الكبرياء، يجب اذن تجنبها، كبرياء العقل هذه هي أكثر خطراً من كبرياء الارادة وأصعب شفاء كما قال سكوبولي.

ان هذه الكبرياء تجعل الايمان عسراً والطاعة للرؤساء صعبة. يرغب الانسان ان يكفي نفسه ما دام واثقاً بعقله، ويجد مشقة في قبول تعاليم الايمان، او انه على الاقل يشاء ان يخضعها لمراقبة عقله وتفسيره. حتى انه يثق كثيراً بحكمة و لا ابدأ ان يستشير غيره خصوصاً رؤساءه.

فينشأ عن ذلك غباوة مؤسفة. ثم عناد في الافكار يجعله يحكم بلهجة حادة على الآراء التي لا توافق اراءه. هذه هي أحد الاسباب المتكاثرة للانقسامات التي نلاحظها بين المسيحيين، واحياناً بين المؤلفين الكاثوليك. كان القديس أغسطينوس يشير في زمانه الى هذه الانقسامات المحزنة التي تهدم السلام والاتفاق المحبة: ((هم ممزقو الوحدة اعداء السلام، فاقدمو المحبة مفعمون عجباً، ملتمسون ارضاء أنفسهم، متعظمون في اعينهم)).

للشفاء من كبرياء العقل هذا: يجب قبل كل امر الخضوع بوادة الصبيان لتعاليم الايمان: لا شك انه يسمح بالبحث عن معرفة القضايا الدينية هذه التي نحصل عليها بالصبر والسعي الجدي المتعب، مستفيدين من اعمال الآباء والجهابذة ولا سيما القديسين أغسطينوس وتوما.

لكن علينا ان نقوم بهذا البحث بتقوى واعتدال كما يقول لنا المجمع الفاتيكاني مستلهماً ذلك من حكمة القديس انسلموس: ((الايمان يتطلب العقل)). عندئذ نتجنب روح الانتقاد المفرط الذي يضعف قضايانا الدنية ويصغرنا بعله شرحها. فنخضع اذ ذاك لا لحقائق الايمان فقط بل للتدابير الحبرية. وفي القضايا التي يترك فيها سبيل للبحث الاختياري، حينئذ نترك للأخرين حرية التمسك بأرائهم الخصوصية. ولا نبحت باحتقار جسم عما يضاد آراءهم. هذا ما يوطد السلام في العقول.

علينا ان نلتمس الحقيقة في الجدل مع غيرنا، لا ترضية كبريائنا ولا تغلب افكارنا. من النادر الا يكون في اختلاف الآراء شيء من الحقيقة خفي عنا حتى حين الجدل: ان الاصغار لبراهين خصومنا بانتباه وبغير تعرض والتسليم بما هو عادل في ملاحظاتهم، هو أفضل وسيلة للتقرب من الحقيقة، كما هو أفضل وسيلة لحماية شرائع الاتضاع والمحبة. وبالاختصار علينا اذن لكي نهذب عقلنا، ان ندرس ما هو أكثر ضرورة وندرسه بأسلوب وثبات وروح فائق الطبيعة، أعني بقصد معرفة الحقيقة ومحبتها وممارستها.

## اماتة الارادة او تهذيبها

اولاً. ضرورتها. ان الارادة في الانسان هي القوة المسيطرة ومملكة سائر القوى، هي التي تدبرها جميعاً، هي التي بما انها حرة، تخول لا اعمالها الخاصة فقط (العمل الاختياري) بل ايضاً اعمال سائر القوى التي تقودها هي (العمل الاضطراري)، فتهبها حريتها واستحقاها او عدمه. فتنظيم الارادة اذن هو تنظيم الانسان كله. والحال ان الارادة تكون منظمة حسناً إذا كانت قوية بالكفاية لكي تقود القوى الدنيا. وإذا كانت وديعة بالكفاية لكي تطيع الله: هذا هو دورنا المزدوج.

ان كلا هذين الدورين صعب. لان القوى الدنيا تتمرد غالباً على الارادة ولا تخضع لسلطانها الا حين نعرف ان نجمع بين الذوق والحزم. ليس للإدارة سلطة مطلقة على القوى الحسية، بل نوع من السلطة الادبية كي تحملها على الخضوع.

اذن لا يمكن البلوغ الى اخضاع القوى الحسية والاهواء للإرادة الا بصعوبة وجهود متكررة غالباً. فلإخضاع ارادتنا لإرادة الله تماماً يقتضي الامر ايضاً مشقة: اننا مائلون بعض الميل لشيء من الاستقلال الذاتي، وبما ان الارادة الالهية لا يمكن ان تقدسنا بغير ان توجب علينا بعض تضحيات،

فأننا ننتكص غالباً إزاء الجهد، ونفضل اذواقنا واهواءنا على ارادة الله المقدسة. الامر الذي يستدعي الامامة في مثل هذه الحالة.

ثانياً. وسائل استعمالية. علينا لكي نحسن تهذيب الارادة، ان نجعلها لينة بكفاية كي تطيع الله في كل أمر، وقوية بكفاية لتدير الجسم والحس. فلكي نبلغ هذه الغاية، علينا ان نزيل العوائق ونتخذ الوسائل الفعالة.

أ) العوائق الاساسية. العوائق الداخلية هي:

(١) عدم التفكير: لا نفكر قبل العمل، بل نتبع دافع الوقت والشهوة والعادة والهوى. فلنفكر اذن قبل العمل ونسأل ذاتنا ماذا يطلب الله اليينا.

(٢) التسرع الحاد الذي اذ يولد فينا جهداً قوياً جداً متجهاً اتجاهاً غير معقول، ينهك الجسم ويوهن النفس هدرأً ويميلنا الى الشر. فلنخلد اذن الى السكينة والاعتدال حتى في الخير، كي نضرم ناراً دائمة لا نار قش.

(٣) البلادة او الحيرة والكسل وفقدان القوة الادبية الذي يعطل قوى الارادة ويميتها. اذن فلننقو اعتقاداتنا وحميتنا كما سنبيين ذلك.

(٤) الخوف من الخذلان ونقصان الثقة الذي يقلل قوانا كثيراً. يجب التذكر بعكس ذلك اننا بعون الله واصلون حتماً الى نتائج حسنة.

يضاف الى تلك العوائق عوائق أخرى خارجية:

(١) الحياء البشري الذي يجعلنا عبيداً للآخرين، اذ يجعلنا نخشى انتقادهم او سخريتهم. فنصارع هذا الحياء قائلين لنفوسنا ان يؤبه له هو دينونة الله العادلة دائماً لا دينونة البشر المعرضة للغلط دائماً.

(٢) الأمثلة الرديئة التي تجرنا بسهولة أكثر ينسبه ما يوافق ميل طبيعتنا. فلنتذكر عندئذ ان المثال الوحيد الواجب ان يقتدي به هو ربنا يسوع المسيح معلمنا ورئيسنا. فعلى المسيحي ان يعمل دوماً عكس ما يعمله أهل العالم.

ب) اما الوسائل الايجابية فتقوم بأن تجمع بتآلف بديع عمل العقل وعمل الارادة والنعمة.

١) من خصائص العقل ان يجهز تلك الاعتقادات العميقة التي تكون في الوقت نفسه قائدة الارادة ومحرضتها.

من خصائص تلك الاعتقادات ان تحمل الارادة على اختبار ما يطابق الارادة الالهية. هكذا تختصر تلك الاعتقادات: ان الله هو غايي، ويسوع هو الطريق التي يجب على ان اتبعها كي أسير اليه: عليّ اذن ان اعمل كل شيء لأجل الله بالاتحاد بيسوع. \_ والعائق الوحيد الذي يصدني عن البلوغ الى غايي هو الخطيئة: على اذن ان اهرب من الخطيئة، وان ارتكبتها لسوء حظي فعلي ان اكفر عنها حالاً. \_ واما الوسطة الوحيدة والضرورية الكافية لتجنب الخطيئة فهي ان اعمل دائماً ارادة الله: فعلي اذن ان اقصد بدون انقطاع معرفة هذه الارادة، وان اطابق سلوكي عليها. ولكي انجح في ذلك اكرر على نفسي غالباً كلمات القديس بولس حين اهتدائه: ((يا رب ماذا تريد ان اصنع)) (اعما ٩:٦). وعند المساء اوبخ نفسي، وقت فحص ضميري، على اقل هفواتي.

ب) ان هذه الاعتقادات تعمل بقوة في الارادة، فعلى الارادة بدورها ان تعمل بحزم وثبات. ١) فالحزم واجب: متى فكرنا وصلينا بحسب اهمية ما نعمل علينا ان نبت حالاً بالرغم مما يمكن ان يستمر من التردد: ان الحياة أقصر جسيماً في المناقشة طويلاً. فلنبت في ما يظهر اكثر ملاءمة للإرادة الالهية، و الله الناظر الى استعداداتنا يبارك عملنا.

٢) يجب ان يكون هذا الحزم حازماً: فلا يكفي ان اقول اتمنى كثيراً وأرغب: ليست هذه سوى ارادة ضعيفة. يجب ان اقول: أريد وأريد بأي ثمن كان. وأبتدى حالاً بالعمل دون انتظار الى الغد، او استمهال الى فرص كبرى: فالحزم في صغار الاعمال يحقق الامانة في كبارها.

٣) مع ذلك ليس الحزم هو ذاك الفوران: بل هو هادئ لأنه يشاء ان يدوم. فلكي نجعله ثابتاً، نجدد غالباً جهدنا دون ان نستسلم ابدأ لليأس بسبب الخذلان: اننا لا نغلب الا حين نترك الكفاح. علينا بالرغم من بعض الجراحات ايضاً، ان نعد أنفسنا منتصرين، لأننا باتكالنا على الله نكون في الحقيقة غير مغلوبين. وان سقطنا لسوء الحظ هنية فننهض سريعاً: لأننا ما دمنا مع طبيب النفوس الالهي، فليس من جراحات ولا من مرض عياء غير قابل الشفاء.

ت) إذن علينا أخيراً ان نتكل على نعمة الله. فاذا طلبناها باتضاع وثقة لا يرفضها عنا ابداً، وبها لا يقوى علينا شيء البتة. علينا إذن ان نجدد غالباً اعتقاداتنا بضرورة النعمة الضرورية المطلقة خصوصاً في بداية كل عمل مهم ونطلبها بإلحاح بالاتحاد بربنا يسوع لكي نتحقق من نوالها. ونتذكر ان يسوع ليس مثالنا فحسب، بل مساعدنا ايضاً، فتعتمد عليه واثقين اننا به نستطيع ان نقوم بكل شيء ونحقق كل شيء في قضية الخلاص: ((أنى أستطيع كل شيء في الذي يقويني)) (فيلبي ٤: ١٣). عندئذ تكون ارادتنا قوية لأنها تشتترط بقوة الله نفسها: ((الرب عزى وتسبيحي لقد كان لي خلاصنا)) (مز ١١٧: ١٤). وتكون حرة: لان الحرية الحقيقية لا تقوم بالاستسلام لما يرهقنا من الاهواء، بل بتحقيق انتصار العقل والارادة على الغريزة والحس.

## نتيجة

هكذا تتحقق الغاية التي عينها للإماتة: ان نخضع حواسنا وقوانا الدنيا للإرادة لله. بذلك نستطيع ان نصارع بسهولة الرذائل السبع، او الخطايا الرئيسية السبع ونستأصلها.

## مُصَارَعَةُ الْخَطَايَا الرَّئِيسِيَّةِ

ليست هذه المصارعة في الحقيقية سوى نوع من الاماتة.

لكي نكمل تطهير نفسنا ونكفها عن السقوط في الخطيئة، علينا ان نصادم ينبوع الشر فينا الذي هو الشهوة المثلثة، وقد شرحناها بكل علاقاتها العامة. لكن بما انها أصل الخطايا الرئيسية السبع فتجب معرفة هذه الاميال الفاسدة ومحاربتها. فهي بالأحرى أميال أكثر منها خطايا. وتسمى مع ذلك خطايانا لأنها تحملنا على ارتكاب الخطيئة. وتسمى خطايا رئيسية لأنها ينبوع جم من الخطايا أو راسها.

فدونك كيف تتعلق هذه الاميال بالشهوة المثلثة: من الترف يتولد الكبرياء والحسد والغضب. أما شهوة الجسد فتولد الشراهة والزناء والكسل. اخيراً ان شهوة العين تتحد بالبخل او بحب الثروة المنحرف. فلمصارعة الخطايا الرئيسية السبع دائماً اهمية عظمى في حياة المسيحي الروحية. اننا نتبع التقسيم الذي يربط الخطايا الرئيسية بالشهوة المثلثة.

## الكبرياء وما يتعلق بها من الرذائل

### الكبرياء ذاتها

هي انحراف تلك العاطفية الصوابية التي تحملنا على ان نقدر ما هو حسن فينا، وعلى التماس احترام الناس لنا قدر ما يجب ان يكون مفيداً لعلاقتنا الطيبة معهم. حقاً اننا نستطيع ويجب علينا ان نقدر ما وضعه الله فينا من حسن عارفين ان الله هو مصدره الاول وغايته الاخيرة: انها عاطفة تمجد الله وتحثنا على احترام ذواتنا. نستطيع ايضاً ان نرغب في ان يرى غيرنا هذا الخير ويوقروه ويمجدوا الله به. كذلك علينا ان نعرف صفات القريب ونقدرها: هذا التقدير المتبادل يعزز العلاقات الطيبة القائمة بين البشر.

لكن قد يكون هناك انحراف او افراط في هذين الميلين. فننسى ان الله هو مصدر هذه المواهب فننسبها لذواتنا: هذا تشويش لأنه نكران على الاقل ضمني لأن يكون الله مبدؤنا الاول. في العمل لذاتنا او في نيل الحظوة عند الآخرين، عوضاً عن ان نعمل لأجل الله وننسب له المجد في كل ما نعمل: ذلك تشويش لأنه نكران على الاقل ضمني لان يكون الله غايتنا الاخيرة. ذانك ما في هذه الرذيلة من التشويش المزدوج.

نقدر اذن ان نحدد الكبرياء بقولنا: هي حب غير مرتب لذاتنا يجعلنا نواقرها صريحاً او ضميناً كأننا مصدرها الأول او غايتها الاخيرة. ذلك نوع من عبادة الوثن، لأننا نعد نفسنا إله ذاتنا، كما لاحظ

بموسويه. فلمحاربة الكبرياء كما يجب سنعرض: اولاً اشكالها الاساسية. ثانياً. النقائص التي تولد. ثالثاً. رداءتها. رابعاً. علاجاتها.

## أخص اشكال الكبرياء

اولاً. يقوم الشكل الاول بحسبان ذاتنا صريحاً او ضمناً كمبدئها الاول. قليلون هم الذين يحبون ذواتهم صريحاً بطريقة غير مرتبة تماماً فيحسبون أنفسهم كمبدأ اول لذواتهم.

(١) تلك هي الخطيئة الكفار الذين ينكرون الله اختيارياً ولا يريدون لهم سيداً: لا إله ولا سيد. وعنهم تكلم صاحب الزبور قائلاً: ((قال الجاهل في قلبه: ليس إله)) (مز ١٣:١).

(٢) تلك هي خطيئة لوسيفورس الذي إذ اراد ان يستقل، رفض الخضوع لله. وهي خطيئة أبونا الاولين اللذين إذ طمعا في ان يكونا إلهين أرادا ان يعرفا بنفسيهما الخير والشر. وهي خطيئة الهرطقة الذين أبوها ان يقروا بسلطة الكنيسة التي وضعها الله وهي خطيئة البرهان الفخورين بعقلهم الذين لم يشاؤوا ان يخضعوه للأيمان. وهي أيضاً خطيئة بعض العقلين الكثيرين الكبرياء فلم يقبلوا تفسير القضايا التقليدي فاحتقروها وشوهوها ليجعلوها طبق تطلبتهم.

كثيرون يسقطون ضمناً في هذه النقيصة. لا شك اننا نعرف نظراً ان الله هو مبدؤنا الاول. لكن عملياً نقدر ذواتنا كأننا مبدعو ما فينا من الصفات.

وأفزع من ذلك الذين ينسبون ممارسة الفضيلة لذواتنا كالرواقيين، او كمن يتوهمون ان واهب الله المجانية انما هي ثمرات استحقاقاتنا. ان اعمالنا الصالحة نختص بنا أكثر مما بالله، مع ان الله هو حقاً علتها الاساسية. فنسر بها كما كانت صادرت عنا فقط.

هذا ما يجعلنا نبالغ في إطراء صفاتنا الشخصية، فنغمض عيوننا عن عيوبنا ونحديق الى مزاينا بالمكبرات. فتصدق عن تيه وافتخار. يخيل الينا اننا قديسون بسبب ما نشعر به من التغزيات الحسية، او لأننا كتبنا بعض افكار جميلة او مقاصد صالحة، ونحن في الحقيقة بعد في أولى درجات الكمال. نبحت عن عيوب القريب بالمكبرة، ونكاد لا نشعر بنقائصنا. نرى القذى في عين قريبننا ولا نفطن للخشبة التي في عيننا. نحط قدر القريب ونحفره ظلماً دون بحث. ونظن اننا أفضل من سوانا، حينما نكون في الحقيقة أحط منهم قدرأ. لذلك نسعى في ان نسيطر عليهم ونظهر تفوقنا.

وتظهر هذه الكبرياء نظراً الى الرؤساء في روح انتقادي عيَّاب، يجعلنا نراقب أدنى حركاتهم او تصرفاتهم لنعدلهم: نريد ان نحكم على كل شيء ونبحث عن كل أمر. بهذا نجعل الطاعة أصعب كثيراً. ويشق علينا ان نخضع لسלטتهم ولأحكامهم، وان نطلب إليهم المأذونات، ونتوق الى الاستقلال.

ثانياً. يقوم شكل الكبرياء الثاني بحسبان ذواتنا صريحاً او ضمناً كغاية اخيرة لأنفسنا، اذ نعمل اعمالنا دون ان ننسبها الى الله، واذ نرغب ان يمدح الناس صفاتنا كأنها كلها صادرة عنا تماماً لا علاقة لها بالله. ان هذه النقيصة تنتج من الاولى، لأن من يريد ان يحسب ذاته المصدر الاول، يريد ايضاً ان يكون الغاية الاخيرة.

(أ) قليلون هم الذين يحسبون ذواتهم كغاية اخيرة لأنفسهم ما عدا الكفرة وغير المؤمنين.

(ب) لكن كثيرون يتصرفون عملياً كأنهم مشاركون في هذا الضلال.

(١) يبتغون المدح والثناء على اعمالهم الصالحة كأنهم مبدعوها الاصليون، وانه من حقهم ان يتموها على ما يرغبون لكي يرضوا زهوهم عوضاً عن ان يعبدوا كل شيء لله يرغبون ان يهنئهم البشر على نجاحاتهم المزعومة، كأنهم جديرون بكل المجد الحاصل من تلك النجاحات.

(٢) يعملون عن أنانية لفائدتهم الشخصية، إذ قلما يعبتون بمجد الله وخير القريب. فيؤول بهم الأمر ايضاً الى الافراط، حتى يخيل إليهم عملياً ان على البشر ان يقفوا حياتهم على إرضائهم، او على خدمتهم. وهكذا ينصبون ذواتهم مرجعاً للآخرين، وان صح القول غاية لهم. أليس في ذلك اختلاس لحقوق الله لا تشعر النفس به؟

(ت) لا نبعد كثيراً، ان بعض الاتقياء يلتمسون أنفسهم في العبادة، يتذمرون على الله حين لا يفيض عليهم التعزيات، فيحزنون حين اليبوسة، ويخيل إليهم بهتاناً ان غاية العبادة هي التنعم بالتعزيات بينما انه في الحقيقة، يجب ان يكون مجد الله غايتنا السامية في كل اعمالنا، ولا سيما في الصلاة والرياضات الروحية.

ينبغي اذن الاعتراف بأن الكبرياء في كلا مظهريها هي نقيصة شائعة جداً، حتى بين اولئك الذين ينقطعون الى الكمال؛ انها نقيصة تتبعنا في كل مراحل الحياة الروحية ولا تموت الا بموتنا. لا يشعر بها المبتدئون مطلقاً لأنهم لا يدرسون أنفسهم بطريقة متعمقة. فيقتضي الأمر ان نسترعى انتباههم

لهذه النقطة، وان نصف لهم المظاهر العادية لهذه النقيصة كي نجعل لهم منها موضوعاً لفحص ضميرهم الخاص.

## ما ينشأ من النقائص عن الكبرياء

أخص هذه النقائص هي الادعاء والطمع والمجد الباطل.

اولاً. الادعاء هو الرغبة والأمل المنحرف ان يعمل الانسان أموراً تفوق قدرته، وهو ينشأ عن حسن ظن الانسان بنفسه وبملكاته الطبيعية، وبعمله، وبقواه وبفضائله.

أ) فيما يخص العقل، نظن نفسنا أهلاً لاقتحام أصعب المسائل والمشاكل وأعقدها، وأهلاً لحلها، او على الاقل اهلاً لمباشرة دروس لا تتفق مع مواهبنا. ونعتقد اننا اصحاب حصافة وحكمة غزيرة. فعوضاً عن ان تردد نبت في المسائل التي يكثر الخلاف فيها.

ب) ومن الوجهة الادبية يخيل الينا اننا حاصلون على نور كافٍ كي ندير نفسنا ولا فائدة من استنارة مرشد البتة. وبالرغم من خطايانا الماضية نؤكد لنفسنا ان لا خوف علينا من السقطات ونرمي نفسنا بدون تزو في اسباب الخطيئة حيث نزل متهورين، وينشأ عن ذلك القنوط والغيط اللذان يسببان في الغالب سقطات جديدة.

ت) أما من الوجهة الروحية فلا نتذوق سوى القليل من الفضائل المستترة المؤلمة فنفضل عليها الفضائل اللماعة. وعوضاً عن ان تبني على اساس الاتضاع المتين نحلم في عظمة النفس وقوة المزاج والمرة والغيرة الرسولية والنجاحات الوهمية التي نعلل نفسنا للمستقبل. لكن عند هجوم اول تجربة شديدة نلحظ حالاً مبلغ الضعف والاضطراب في ارادتنا. وأحياناً نزدري ايضاً الصلوات العقلية العمومية وما يسمّى ممارسات التقوى الصغيرة. ونتوق الى نعم غير مألوفة، بينما لا نزال في بداءة الحياة الروحية.

ثانياً. ان هذا الادعاء المقترن بالكبرياء يولد الطمع أعني الحب الشاذ للأمجاد والمراتب والتسلط على الغير. لأننا نبالغ في تقدير قوانا ونحسب اننا نفوق الآخرين فنريد ان نسودهم وتتولى عليهم ونفرض عليهم افكاراً الخاصة.

قال القديس توما: قد تظهر ببلبة الطمع في ثلاث صور:

١) نلتمس ما لا نستحقه من الامجاد، وما يفوق مقدرتنا.

٢) نلتمسها لذواتنا لا لمجد الله بل لمجدنا الشخصي.

٣) نلتبث في الامجاد لنها أمجاد ولا نستخدمها لخير القريب، خلاف النظام الذي وضعه الله الذي يطلب ان يعمل الأعلى لخير الأدنى.

يتسرب هذا الطمع الى كل النواحي:

١) الى الناحية السياسية حيث نرغب السيادة على سوانا، وذلك أحياناً بارتكاب كثير من الدنيا، والتعرض لكثير من الاخطار، وبارتكاب كثير من السفالات للحصول على أصوات الناخبين.

٢) الى الناحية العقلية اذ نلتمس بعناد إلزام الناس باتباع آرائنا حتى في المسائل القابلة للجدل.

٣) الى الناحية المدنية حيث نلتمس بجشع المراكز الاولى والمراتب اللماعة واحترام الجمهور.

٤) الى الحياة الإكليريكية ايضاً لأنه كما قال بوسويه: ((كم يلزم من الاحتراس في الانتخابات الإكليريكية والرهبانية نفسها لمنع الطمع والتحزبات والسعي بالحيل والمكيد والتحريضات السرية، وآثم الطرائق والاجراءات السيمونية وسائر التشويشات الشائعة كثيراً في هذه المادة. ولا نستطيع التباهي بأننا أخفينا وموهنا بعض الامور ولطفناها دون ان نكون قد استأصلناها تماماً)). وكما يلاحظ القديس غريغوريوس: ((أليست هذه الامور ايضاً في الإكليريكيون الذين يشاؤون ان يدعوا جهابذة، ويلتمسون بجشع المراكز الاول والتقريظ)).

الطمع اذن نقيصة أكثر شيوعاً مما كنا نظن قبلاً، ومرده الى الزهو.

ثالثاً. الزهور هو الرغبة غير المرتبة في لبي ان يقدرنا الآخرون. انه يتميز عن الكبرياء التي تسر بالعظمة الشخصية. غير ان الزهو ينشأ عادة عن الكبرياء: حين المرء نفسه بشكل مفرط، يرغب طبيعياً في ان يقدره الآخرون.

أ) خباثة الزهو. من الرغبة في ان يقدرها الناس ما لا خلل فيها: فاذا رغبتنا في ان تُعرف صفاتنا الطبيعية او الفائقة الطبيعة كي يتمجد الله بها، وان تزيد سلطتنا تأثيراً لعمل الخير، فليس في ذلك بجد ذاته خطيئة. من حسن المعاملة في الواقع ومن اللائق ان يقدر كل ما هو صالح حق قدره، شريطة الاقرار

بأن الله مبدعه، والى الله وحده يجب ان يعود المجد. ويمكننا ان نقول أكثر من ذلك، ان الخطر هو في وقف فكرنا في مثل هذه الرغبات، لأننا في ان يقدرنا الآخرون لغايات انانية غيرها.

ان الخلل يقوم اذن بإرادتنا ان يقدرنا الناس بدون ان ننسب هذا المجد لله، الذي وضع فينا كل ما هو صالح. او نرغب يقدرنا الآخرون لأجل أمور باطلة لا تستحق الثناء مطلقاً. او اخيراً لالتماسنا ذلك ممن لا قيمة لحكمهم كالدنيويين مثلاً الذين لا يوقرون سوى الامور الباطلة.

لم يصف أحد هذه النقيصة أحسن من القديس فرنسيس سالس: ((نسمي باطلاً ذلك المجد الذي نعطيه لنفسنا، او لما ليس فينا، او لما هو فينا وليس هو لنا، او لما هو فينا ولنا ولكنه لا يستحق ان نتباهى به: شرف الاصل، والحظوة لدى العظماء، والمجد الشعبي، كلها أمور ليست فينا لكنها في أسلافنا او في ما يقدره القريب. من الناس من يتكبر لأنه يمتطي جواداً مطهماً، وينتفخ لان في قبعته ريشة، او لأنه يرتدي اثواباً فاخرة. فمن لا يرى هذا الجنون.؟ لأنه ان يكن شيء من المجد في ذلك فهو للحصان وللطائر وللخياط. ويعجب بعضهم بذواتهم ويتباهون بشاريين مرتفعين وبلحية ممشوطة وشعر مجعد، وبدين ناعمين، والبعض الآخر يعجب بمهارته في الرقص واللعب والأغاني. لكن أليس من النذالة والجبين انهم يريدون ان يرفعوا قدرهم ويوسعوا شهرتهم بأمور تافهة ومجانة كهذه وغيرهم يريدون ان يكرمهم الناس لأجل قليل من العلم ويحترمون كأنه يجب على كل ان ينطلق الى مدرستهم ويتلمذ لهم، لذلك يدعون متغطفين. ويتباهى بعضهم كالطاووس بجمالهم ظانين ان العالم بأسره يتغزل بهم. كل ذلك منتهى البطلان والحماقة والسفاهة. فالمجد في مواضع سخيفة كهذه يدعى مجداً باطلاً وزهوقاً وتافهاً)).

ب) ان المجد الباطل يولد نقائص كثيرة تكون بمثابة ظاهرة خارجية، أخصها: الادعاء والمباهاة والرياء.

(١) الادعاء او تمجيد النفس هو عادة تُحدث الانسان نفسه او عما يعود الى شخصيته بقصد حمل السامعين على ان يقدروا ذلك. منهم من يتحدث عن ذاته وعن أسرته وعن نجاحاته ببلاهة تضحك السامعين. وغيرهم يدسّون بمهارة الحديث عن ذواتهم في موضوع يمكنهم ان يلمعون فيه. ومنهم من يتكلمون بحياء عن نقائصهم على أمل خفي ان يعذرهم السامعون اذ يعظمون طيب مزايهم.

٢) المباهاة، تقوم بأن يستميل الانسان اليه ببعض طرائق يعملها، وبما يظهره من الفخفخة وبغرابة الاقوال والاعمال التي يستبيحها لذاته.

٣) الرياء، يتخذ خارج الفضيلة او ظاهرها، اذ يخفي فيها عيوباً حقيقية.

## خبائة الكبرياء

لكي نحكم على هذه الخبائة نستطيع ان ندرس الكبرياء في ذاتها او في نتائجها.

اولاً. الكبرياء في ذاتها.

أ) الكبرياء بحصر المعنى، التي تختلس عن معرفة ورضى وضمنياً ايضاً حقوق الله، هي خطيئة ثقيلة، حتى انها أثقل الخطايا، كقول القديس توما لأنها لا تشاء الخضوع لسلطة الله السامية.

١) هكذا تكون نزعة الاستقلال ورفض الطاعة لله ولممثليه الشرعيين في مادة مهمة خطيئة مميتة، لأن فيها تمرداً على الله مولانا الشرعي.

٢) انها خطيئة ثقيلة بما اننا ننسب الى ذاتنا ما يصدر عن الله صريحاً، ولا سيما مواهب النعمة: لان ذلك رفض ضمني لأن يكون الله المبدأ الاول لكل ما فينا من الخير. كثيرون مع ذلك يعلمون هكذا بقولهم مثلاً: انا ابن اعмали.

٣) نخطأ ايضاً ثقيلاً حين نريد ان نعمل لأجل ذاتنا دون الله. هذا هو الواقع نكران حق الله بأن يكون غايتنا الاخيرة.

ب) الكبرياء الملطفة التي مع اعترافاتها بأن الله هو المبدأ الاول والغاية الاخيرة، لا تؤدي له كل ما يجب، وتسلبه ضمناً قسماً من مجده، هي خطيئة عرضية جداً. تلك حالة من يفتخرون بصفاتهم الطيبة، او بفضائلهم كما لو كانوا على يقين ان كل ذلك لهم ملك خصوصي. او تلك حالة اولئك المدعين والمعجيين بنفوسهم والطماعين، دون ان يأتوا مع ذلك أمراً يخالف الشريعة الالهية او البشرية في مادة ثقيلة. غير ان هذه الخطايا قد تصير مميتة، إذا أدت الى اعمال تستحق اللوم الشديد. هكذا الزهو الباطل الذي ليس هو بحد ذاته سوي خطيئة عرضية، يصير خطيئة ثقيلة عندما يوقر المرء بديون يعجز عن وفائها، او حين يسعى في حمل الناس على حب منحرف. علينا اذن ان ندرس الكبرياء في نتائجها.

## ثانياً. في نتائجها.

ان ما لا يكبح من الكبرياء يؤدي احياناً الى نتائج مضرّة. فكم من الحروب أثارت كبرياء الحكام، وبعض الاحيان كبرياء الشعوب أنفسهم (فم الذهب رسالة ٢ تسالونيكية عظة اولى). ولا تقف عند هذا الحد، فكم يعزى لهذا الحد، فكم يعزى لهذه الرذيلة من الانقسامات في العيال والبعض بين الأخصان، فالصواب يعلم الآباء انها أصل سائر الرذائل.

وفوق ذلك انها تفسد كثيراً من اعمال الفضيلة لأنها تجعلنا نتممها عن أنانية.

إذا نظرنا في ما يهمننا من أمر الكمال، أمكننا القول ان الكبرياء اكبر أعداء الكمال لأنها تنشئ فينا عقياً محزناً، ولأنها مصدر خطايا كثيرة.

أ) في الواقع ان الكبرياء تحرمنا نعماً كثيرة واستحقاقات وفيرة.

١) تحرمنا نعماً كثيرة، لان الله الذي يمنح نعمته للمتواضعين بسخاء يحبسها عن المتكبرين: ((ان الله يقاوم المتكبرين ويعطي النعمة للمتواضعين)) (يعقو٤:٦). فلنحسن وزن هذه الكلمات: ان الله يقاوم المتكبرين. لان المتكبر كما يقول الاب أولية يهاجم الله رأساً، وبينما يضمّر المتكبر الشر لله، يقاوم الله ادعاءات هذا المتكبر الوقحة الفظيعة. وبما ان الله يشاء ان يحفظ لذاته ما يختص به فانه يسحق من يقاومه ويلاشيه.

٢) تحرمنا استحقاقات وفيرة: ان النية الطاهرة هي أحد الشروط الجوهرية للاستحقاق. والحال ان المتكبر يعمل لأجل ذاته او ليرضي البشر، عن ان يعمل لأجل الله، فهكذا يستحق التوبيخ الموجه الى الفريسيين، الذين كانوا يعملون اعمالهم الصالحة بتباهٍ كي يراهم الناس، ولذلك لم يقدر ان ينتظروا مكافأة الله: ((احترزوا ألا تصنعوا بركم قدام الناس لكي ينظروكم وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذي في السماوات. فاذا صنعت صدقة فلا تهتف قدامك بالبوق كما يفعل المراؤون في المجمع والازقة لكي يمجدهم الناس الحق اقول لكم انهم قد أخذوا أجرهم)) (متى ٦: ١ و ٢).

ب) ان الكبرياء هي ينبوع خطايا كثيرة:

١) خطايا شخصية: بالادعاء نتعرض للخطر ونسقط فيه. وبسبب الكبرياء لا نطلب بلجاجة ما نحن بحاجة اليه من النعم فنسقط. ثم نياس بعدئذ ونتعرض الى كتم خطايانا في سر الاعترافات.

٢) خطايا ضد. ان الكبرياء تمنعنا عن الاذعان للحق حتى حين نكون على خطأ. وفي الحديث نلذع ونستسلم الى مباحث فظة وعنيفة تؤدي الى فتن واختلافات، والى الكلام القارص والجائر حتى على الخصوم ايضاً بقصد إذلالهم، والى انتقاد الرؤساء بشدة ورفض الطاعة لأوامرهم.

ت) أخيراً من يتسكع في بيداء الكبرياء، تكون له سبب شقاء: فكما انه يريد ان يكون عظيماً في كل أمر، وان يسيطر على نظرائه، فلا سلام له ولا راحة البتة. وفي الواقع لا يهدأ له فكر ما دام عاجزاً عن الفوز على خصومه. وبما انه لا يبلغ ذلك منهم تماماً فهو قلق مضطرب تاعس. فيقتضي الامر اذن التماس علاج لهذه الرذيلة الشديدة الخطر.

## علاجات الكبرياء

سبق القول ان أنجع علاج للكبرياء بأن الله هو الاعتراف بأن الله هو مصدر كل خير، وبالنتيجة ان كل عز ومجد يختص به وحده. أما نحن فلسنا سوى عدم وخطيئة، فلا نستحق سوى السلوان والازدراء.

اولاً. لسنا سوى عدم. هذا ما يجب ان يعتقده المبتدئون في التأمل في التأمل، مرددين في ذهنهم بتأن على النور الالهي الافكار التابعة: لست شيئاً، لا أستطيع شيئاً، لا أساوى شيئاً.

أ) لست شيئاً: لا شك ان الجودة الالهية قد سرت فاخترتني من بين مليارات من الممكنات الوجود كي تمنحني الكيان والحياة ونفسياً روحية خالدة، فعلي ان اشكر له ذلك كل الايام. لكن:

١) خرجت من العدم وبثقلي الذاتي أميل اليه، ولو لم يحفظني مبدعي بفعله الدائم لكنك، ولا بد أهوى فيه. إذن ان كياني لا يتعلق بي بل يختص بالله وعلى ان أقدمه احترام.

٢) ان هذا الكيان الذي منحني الله هو حقيقة حبه واحسان لا حد له، فمهما عملت أظل مقصراً في تأدية الشكر لعزته تعالى. لكن مهما يكن هذا الكيان عجباً فهو كالعدم بالمقابلة مع الكيان الالهي:

((عمري كلا شيء امامك)) (مز ٣٨:٦). لما فيه من نقص: انه كائن عارض يقبل الزوال دون ان ينقص شيء من كمال العالم. وهو كيان مستعار لم أعطه إلا بالاحتياط الصريح لكي يبقى لله ملكاً مطلقاً. هو كيان سريع الزوال لا يمكن ان يدوم بذاته، ويحتاج في كل هنيئة الى عون من خلقه. اذن هو كيان

متعلق جوهرياً بالله، ولا علة لوجوده سوى تأدية المجد لمبدعه. فأغفالننا هذه العلاقة وتصرفنا كأنا مبدعو صفاتنا، ومباهاتنا بها ضلال لا يسلم به العقل بل هو جنون وظلم.

ان ما نقوله عن الانسان الطبيعي هو أصدق في نظام النعمة ايضاً: ان هذا الاشتراك في الحياة الالهية الذي يشرفني ويعظمني، هو موهبة مجانية جوهرياً، نلتها من الله ومن يسوع المسيح، لا أستطيع حفظها طويلاً بدون النعمة الالهية، وهي لا تنمو في إلا بمعونة الله الفائقة الله الفائقة الطبيعة. اذن انها فرصة مناسبة لنقول: ((شكراً لله على موهبته التي لا توصف)) (٢ كو ٩: ١٥) فيا له من نكران للجميل، ويا لها من ظلامه ان ننسب لذواتنا اقل نصيب من هذه الموهبة الالهية الجوهريه! ((من الذي يميرك يا هذا واي شيء لك لم تنله فان كنت قد نلته فلماذا تفتخر كأنك لم تنله)) (١ كو ٤: ٧).

ب) لا أستطيع شيئاً بذاتي: لا جرم اني نلت من الله قوى ثمينة تخولني ان اعرف الحقيقة والصلاح وأحبهما. وقد تكلمت هذه القوى بالفضائل الفائقة الطبيعة وبمواهب الروح القدس. ولا نقدر مهما عملنا ان نتمالك عن الدهش الشديد من هذه المواهب الفائقة الطبيعة، ومن مواهب النعمة التي تتكلم وتأنف ائتلافاً حسناً. لكني لا أستطيع شيئاً في ما يتعلق بي وفي ما اعمله من ذاتي مبادهة، كي اسيره واكمله: اني لا استطيع شيئاً في النظام الطبيعي بدون مساعدة الله. ولا في النظام الفائق الطبيعة بدون النعمة الحالية، حتى اني لا استطيع ان لا استطيع ان افكر فكراً صالحاً خلاصياً، ولا ان اوجس في قلبي رغبة صالحة فائقة الطبيعة. وإذا عرفت أقدر ان اباهي بهذه القوى الطبيعية والفائقة الطبيعة كما لو كانت باسرها ملكي؟ وهذا ايضاً نكران جميل وحنون وظلم.

ج) انا لا اساوي شيئاً: أني، إذا لاحظت ما وضعه الله في، وما يعمل بي بنعمه فلا شك أني ذو قيمة كبرى: ((قد اشتريتكم بثمن كريم فمجدوا الله واحملوه في اجسادكم)) (١ كو ٦: ٢٠). أني اساوي ما اشتريت به، اشتراني دم إله! هل يعود شرف افتدائي وتقديسي الى ام الى الله؟ لاريب في الجواب عن ذلك. لكن اخيراً يقول الحب الذاتي المغلوب على امره. لي بعض الشيء الذي يختص بي، ويجعل لي قيمة وهو قبولي عن اختيار مساعدة الله ونعمته. حقاً ان لنا قسماً من هذا، لكن ليس هو القسم الاهم: ليس هذا المرضي الاختياري سوى استعمال ما وهبنا الله من القوى مجاناً، ففي الوقت نفسه الذي فيه نقدمها له، يكون الله العامل فينا كعلة اولي: ((ان الله هو الذي يعمل فيكم الارادة والعمل

على حسب مرضاته)) (فيلبي ٢: ١٣). فان رضينا مرة باتباع تحريض النعمة فكم قاومناها، وكم من مرة لم نساعدنا الا مساعدة ناقصة؟ حقاً ليس في ذلك ما يجعلنا نباهي، بل ان في ذلك ما يدلنا.

إذا رسم فنان عظيم طرفة فاليه تنسب لا الى الصانع الثانويين الذين عاونوه. فبالأحرى يجب علينا ان ننسب استحقاقاتنا لله كعلة اولى واساسية، حتى ان الكنيسة ترنم مع القديس أغسطينوس: (يتوج الله مواهبه حين يكافئ استحقاقاتنا)) (مقدمة خطاب جميع القديسين).

اذن من اية جهة اعتبرنا نفسنا ومهما كانت قيمة مواهبنا واستحقاقاتنا ذاتها غير متناهية فلا يحق لنا ان نباهي بها بل علينا ان نؤدي لله الاحترام عنها من أعماق قلوبنا. وان نسأله الغفران عن استعمالنا هذه المواهب استعمالاً سيئاً.

ثانياً. انني خاطئ، وبهذه الصفة استحق كل ازدراء يشاء الله ان يبلوني به. ولكن نتيقن ذلك يكفيننا ان نتذكر ما قلنا عن الخطيئة الميئة والعرضية.

ا) إذا كنت لسوء حظي ارتكبت خطيئة واحدة مميئة، فاستحق الخزي الابدي لأني استحققت جهنم. لا شك ان لي الثقة العذبة ان يكون الله قد غفر لي. لكن لا أستطيع الانكار أني اتيت جناية، اهانة العزة الالهية، شكلاً من قتل الاله، شكلاً من الانتحار الروحي. فلكي اكفر عن اهانة العظمة الالهية، على ان اكون مستعداً لتقبل كل خزي ممكن ايضاً، والنمائم والافتراءات والشتائم والاهانات، وعلّي ان ارغبها ايضاً: وهذا اقل شيء يستحقه من اغاظ مرة فقط عظمة الله غير المتناهية. وان كنت قد اغظتها مرات كثيرة، فكم يجب ان يكون تسليمي للعناية الالهية، وفرحي ايضاً عندما يتيسر لي التكفير عن خطاي بتحمل بعض الاهانات مدة قصيرة؟

ب) لا شك اننا جميعاً قد ارتكبنا خطايا عرضية اختيارية وفضلنا برضانا ارادتنا على ارادة الله ومجده. وقد قلنا ان اهانة واحدة للعظمة الالهية تستحق كل الخزي، فلو قضينا حياتنا كلها في ممارسة الاتضاع، لا نستطيع بذاتنا ان نعيد لله كل المجد الذي سلبناه. فان ظهر لنا في هذه اللهجة مغالاة، فلنتذكر دموع القديسين وتوبتهم الشاقة، أولئك القديسين الذين لم يخطئوا سوى خطايا عريضة، ولم يحسبوا مع ذلك انهم تابوا توبة كافية لتطهير نفوسهم، والتكفير عن الاهانة الموجهة للعظمة الالهية. كان أولئك القديسون ادق نظراً منا. فان فكرنا عكس ما كانوا يفكرون فما ذلك إلا لأن الكبرياء قد أعمتنا.

فعلينا نحن الخاطئين ان لا نلتمس من الناس ان يقدرونا فقط، بل فلنزدر نفسنا ونقبل كل خزي  
يشاء الله ان يرسله الينا.

## الحسد

ان الحسد هو شهوة ورذيلة رئيسية معاً. فهو كشهوة شكل من الحزن العميق نتأثر به في شعورنا عند  
نظرنا ما نلاحظه من الخير في القريب. يرافق هذا الاحساس ضيقة قلب تخذ الحمياً وتنشئ فينا  
شعوراً بالغم.

ندرس الحسد من حيث هو خطيئة رئيسية ونعرض: طبيعته. رداءته. علاجاته.

### اولاً. طبيعته.

أ) الحسد ميل الى الغم من خير في القريب كأنه مضرة تلحق كرامتنا، ترافقه غالباً رغبة في ان نرى  
القريب خالياً من الخير الذي ينغصنا.

ان منشأ هذه الرذيلة هو اذن في الكبرياء التي لا يكنها احتمال الرؤساء والمنافسين. حين نعتقد بتفوقنا  
الخاص نحزن إذا رأينا في الآخرين صفات كصفاتنا وأفضل، او على الاقل إذا رأيناهم ينجحون أكثر  
مننا. ان الصفات اللامعة تكون موضوع الحسد. غير ان الحسد عند ذوي الرصانة يتجه الى الصفات  
المتينة ويتجه ايضاً حتى الى الفضيلة نفسها. تبدو هذه النقيصة بالغصة التي نشعر بها عند سماعنا  
الثناء على القريب، فنجتهد عندئذ في إضعاف هذه التقريظ بانتقادنا من يوجه المديح إليهم.

ب) كثيراً ما نخلط الحسد بالغيرة. فالحسد يكون بالغم من خير القريب. والغيرة الرغبة في خيرنا  
الخاص دون اغتمام من خير القريب.

ج) هنا ايضاً فرق بين الحسد والمنافسة: فهذه عاطفة محمودة تحملنا على الاقتداء والمجاراة،  
واحياناً على التفوق على صفات الآخرين لكن بوسائل محللة شرعية.

### ثانياً: رداءته.

فلندرس هذه الرداءة في حد ذاتها وفي مفاعيلها.

١) الحسد في حد ذاته خطيئة مميتة من طبيعته، لأنه يضاد رأسناً فضيلة المحبة التي تأمرنا نفرح لخير القريب. فبقدر أهمية الخير الذي نحسده يكون ثقل الخطيئة. يقول لنا ايضاً القديس توما: ان حسد القريب على خيالاته الروحية والحزن من نمو رسالاته الروحية او نجاحها، هو خطيئة كبيرة جداً. ويصدق هذا القول حين نقبل نوازع الحسد قبولاً تاماً. لكن هذه الحركات لا تكون في الغالب سوى تأثيرات او عواطف طائشة، او عارضة على الفكر او على ارادة غير كاملة: ففي هذه الحالة الاخيرة لا تكون الخطيئة إلا عرضية.

ب) الحسد في مفاعيله، يكمن فيه اثم كبير.

١) يثير عواطف البغضة لمن نحسدهم او نغار منهم، ونتعرض لكلام الشر فيهم وتحقيرهم واغتيالهم، واردة الشر لهم.

٢) يزرع الانقسام في العيال (فلنتذكر قصة يوسف) ويخلق عداوات وشكوك، ويرمي الشقاق في الكنيسة.

٣) يدفع الى التماس الغنى والامجاد بجشع: ونستسلم الى الكدح في العمل والى وسائل تكاد لا يكون شرعية فتعرض شرفنا للخطر.

٤) يقلق نفس الحسود ما دام لا يتفق على خصومه. وبما انه يندر كثيراً الوصول الى ذلك، فهناك الغصص والمرارة الدائمة.

**ثالثاً. علاجات سلبية او ايجابية.**

أ) الوسائل السلبية:

١) باحتقار ما يتلظى في القلب من عواطف الحسد والغيرة الاولى وسحقها كشيء دنيء كما نسحق زحافة سامة.

٢) بالتلهي عنها واشتغالنا بأمر آخر سواها. وحين تعود الطمأنينة نقول لفسنا ان صفات القريب لا تغض من صفاتنا، بل هي لنا كدافع يحثنا على الاقتداء بها.

ب) لدينا وسيلتان من أنجع الوسائل الايجابية.

١) تستخلص أولاهما من اتحادنا بالمسيح: فبقوة هذه العقيدة نحن جميعاً أخوة كلنا أعضاء الجسم السري الذي رأسه يسوع، فصفت أحد هذه الأعضاء ونجاحاته تعود الى باقي الاعضاء. فعوض ان نحزن من تفوق اخوتنا، علينا ان نسر حسب تعليم القديس بولس الجميل، لان ذلك يساعد على الخيرين العام والخاص أيضاً: ((افرحوا مع الفرحين وابكوا مع الباكين. اهتموا فيما بيتكم اهتماماً واحداً. لا تهتموا لأنفسكم بالأعالي، بل ميلوا الى ما هو أسفل. لا تكونوا فظنين عند انفسكم)) (رو ١٢: ١٥).

فان كانت فضائل القريب هي التي تحسدها، يقول الاب أوليه: ((عوضاً ان تحسد هذه الفضائل او تغار منها، ذلك ما يوسوس به الشيطان غالباً ويحمل عليه حب الذات، فعليك ان تتحد بروح يسوع القدوس في سر القربان الاقدس، واذ تمجد فيه ينبوع هذه الفضائل وتلتمس منه النعمة لكي يشرك بها ترى كم تكون هذه الممارسة مفيدة لك)).

٢) الواسطة الثانية هي المنافسة، هذه العاطفة المسيحية المحمودة تحملنا على الاقتداء بفضائل القريب والتفوق عليها ايضاً باتكالنا على النعمة الالهية.

لكي تكون المنافسة المسيحية صالحة ومميزة عن الحسد يجب: ان تكون شريفة في موضوعها اي ان لا تتوخى النجاح بل الاقتداء بفضائل القريب. وان تكون شريفة في مرماها اي لا تلتمس التغلب على الآخرين وإذلال وإخضاعهم، بل ان تجعلنا، إذا أمكن الامر، أفضل لكي يتمجد الله ويزيد احترام الكنيسة. وان تكون شرعية في وسائلها العملية، فلا تستعمل للبلوغ الى غاياتها، لا المكاييد ولا الحيل ولا الطرائق الاخرى غير الجائزة، بل الجهد والعمل وحسن استعمال الواهب الالهية. إذا فهمنا المنافسة على هذا الوجه تكون دواء ناجعاً للحسد، لأنها لا تجرح المحبة ابداً، وتكون في الوقت حافزاً عظيماً. فاعتبارنا أفضل اخوتنا كمثل للاقتداء به او للتفوق عليه هو في الحقيقة اقرار بنقصنا، وهو الرغبة في معالجة هذا النقص باستفادتنا من امثلة من يحيط بنا. ألا يقرب ذلك في الحقيقة من عمل القديس بولس حين كان يدعو تلاميذه للاقتداء به مثلما كان هو يقتدى بالمسيح: ((اقتدوا بي كما انا اقتدي بالمسيح)) (١ كو ١١: ١). ويدعوهم لاتباع المشورات التي كان ينصح بها المسيحيين كي يحترم بعضهم بعضاً ويتحاثوا على المحبة والاعمال الصالحة: ((وليتأمل بعضنا في بعض تحريضاً لنا على المحبة والاعمال الصالحة)) (عبر ١٠: ٢٤).

ألا نرى في ذلك أيضاً روح الكنيسة التي تقوم لنا القديسين كي نفتدي بهم، وتدعونا الى منافسة شريفة ومقدسة؟ هكذا لا يكون لنا الحسد سوى نهزة للتمرن على الفضيلة.

## الغضب

الغضب هو تلك العاطفة الغريزية التي تحملنا على الدفاع عن نفسنا حين نهاجم، اذ ندفع القوة بمثلها. سنتكلم عن طبيعته. عن خباثته عن علاجاته.

## طبيعة الغضب

من الغضب ما هو هوى ومنه ما هو عاطفة.

اولاً. ان الغضب المعتبر كهوى هو حاجة شديدة للمقاومة يسببها ألم او مضادة طبيعية او ادبية. هذه المقاومة تثير عاطفة هوجاء تدفع القوى للتغلب على الصعوبة: تحمل الانسان على يصب غضبة على البشر والبهائم والاشياء.

للغضب مظهران اساسيان: الغضب الأحمر او الثائر في الاشداء.

والغضب الابيض او الاصفر او التشنجي في الضعفاء. ففي الاول يخفق القلب ويدفع الدم الى جميع اجزاء الجسم الظاهرة. يهيج النفس ويتورد الوجه وينتفخ العنق وتنفر العروق تحت الجلد وبقف الشعر وبقدح النظر شرراً وتجحظ العينان ويتمدد الانف ويبح الصوت ويميل الجسم كله الى الخصام فيضرب ويهشم ما يعقيه. اما في الغضب الابيض فينقبض القلب ويعسر التنفس ويمتقع الوجه للغاية ويندى الجبين عرقاً بارداً وينقبض الفك، ويصمت الغضوب صمتاً مؤثراً. وينتهي بانفجار فظيع يتطاير منه الشرر بضربات عنيفة.

ثانياً. الغضب المعتبر كعاطفة هو رغبة شديدة في درء المعتدي وعقابه.

أ) من الغضب ما هو شرعي، او سخط مقدس، اي رغبة حارة صوابية في معاقبة المجرمين عقاباً عادلاً. هكذا دخل ربنا يسوع بيت ابيه السماوي مغضباً غضباً عادلاً على الباعة الذين دنسوه

بتجارتهم: ((صعد الى اورشليم. فوجد في الهيكل باعة البقر والخرفان والحمام والصيافة موائدهم. فصنع سوطاً من حبال جميعهم من الهيكل والخرفان البقر ايضاً ونثر دارهم الصيافة وقلب الموائد. وقال لباعة الحمام: ارفعوا هذه من ههنا ولا تجعلوا بيت ابي بيت تجارة. فذكر تلاميذه انه مكتوب غيرة بيتك اكلتني)) (يو ٢: ١٣-١٧). أما الكاهن الاكبر عالي فبعكس ذلك وبخ بقساوة لأنه لم يردع ابنه حفي وبنحاس عن سلوكها الرديء. (١ ملوك ٢ و٤).

لكي يكون الغضب شرعياً يجب ان يكون:

(١) عادلاً في موضوعه لا يقصد سوى قصاص من يستحق العقاب وبالقدر الذي يستحقه.  
(٢) ملطفاً في ممارسته غير بالغ الى ابعد ما تقتضيه الالهانة المرتكبة، وبحسب النظام الذي يفرضه العدل.

(٣) محباً في نيته لا يرمي الى عواطف بغضة، ولا يلتمس سوى اصلاح امر المجرم وتهذيبه، وان نقص شرط واحد من هذه كان الغضب تجاوزاً معيباً. فالغضب الشرعي انما هو غضب الرؤساء والوالدين خصوصاً. غير انه من حق المواطنين العاديين احياناً، بل من واجبهم ان يتمادوا في الغضب دفاعاً عن مصالح بلادهم وصدماً للتغلب الاشرار. وفي الواقع، من البشر من لا يؤثر فيهم اللطف ولا يخشون سوى العقاب.

(ب) غير ان الغضب أحد الخطايا الرئيسية، هو رغبة شديدة مفرطة في معاقبة القريب دون اعتبار الشروط الثلاثة التي أشرنا اليها. وكثيراً ما يرافق الغضب بغض لا يكتفي بدفع التعدي، بل يطلب الانتقام. فالبغضة اذن هي عاطفة ألصق بالفكر من الغضب وأثبت منه، ولذلك كانت نتائجها أفظع.

ثالثاً. للغضب درجات:

(أ) هو في بداءته حركة جزع لا غير: يبدي الغضوب خلقه لأول معاكسة وخذلان.

(ب) ثم هو احتدام يجعل الغضوب يستشيط حتى يخرج من إهابه، فيظهر امتعاضه بحركات مشوشة.

(ت) يبلغ أحياناً حتى الفوران ويظهر بالضرب لا بالكلام فقط.

ث) وقد يؤدي الى الحمق الذي هو جنون عارض. عندئذ لا يعود الغضوب يملك نفسه بل يتمادى بكلام غير متزن وبحركات مضطربة يصح القول فيها انها من جنون حقيقي.

ج) أخيراً يتحول احياناً الى بغض لا يهدأ، ولا يتنسم الغضوب سوى انتقام يجب معه موت خصمه. فيهمنا ان نميز بين هذه الدرجات لكي نفهم شر الغضب.

## شر الغضب

يمكننا ان نعتبر الغضب بذاته وبمفاعيله.

اولاً. نظراً الى الغضب بذاته لدينا مجال للتمييز أيضاً.

ا) حين يكون الغضب حركة هوى عابرة، فهو بطبيعته خطيئة عرضية: لأن في كيفية حدوثه تطرفاً. ذلك انه قدر تجاوز الحد، لكن ليس في ذلك كما نزن مخالفة لفضيلتي العدل او المحبة العظيمتين. مع ذلك هناك حالات يشتد فيها الغضب حتى لا يعود المرء يملك نفسه، فيتمادى في اهانة القريب. فان كانت هذه الحركات اختيارية واردة، فأنها تنشئ خطيئة كبيرة ولو صدرت عن الهوى، لكن كثيراً ما تكون عن ارادة غير كاملة.

ب) ان الغضب الذي يبلغ البغضة هو بحد ذاته خطيئة كبيرة، حين يكون اختيارياً وارادياً ينقض شنيعاً، وغالباً يخرق العدل. وبهذا المعنى قال ربنا يسوع: ((اما انا فأقول لكم كل من غضب على أخيه يستوجب الدينونة ومن قال لأخيه راقا يستوجب حكم المحفل ومن قال يا أحمق يستوجب نار جهنم)) (متى ٥: ٢٢). لكن إذا كانت حركة البغضة غير اختيارية او كان الرضى بها ناقصاً كانت الخطيئة خفيفة.

ثانياً. يجب قمع الغضب وإلا فمفاعيله هائلة. وقد نسب لها سينكا: الخيانة والقتل والتسمم والانقسامات الداخلية في العيال والحروب الاهلية مع كل لواحقها، والعداوات الرهيبة.

وقال القديس غريغوريوس: ((ان الغضب كبير عن كبير عن النمو الروحي. فان لم نقمعه بفقدنا الحكمة والاتزان واللطف وعدوثة العلاقات الاجتماعية، والاهتمام بالعدل فلا نحترم حقوق القريب. ويفقدها الاختلاء الداخلي الضروري للاتحاد الوثيق بالله، ولسلام النفس وللامتثال لالهامات النعمة)). فيهمنا اذن نلتمس العلاج لهذه الآفة:

## علاجات الغضب

ان هذه العلاجات يجب ان تكافح هوى الغضب وعاطفة البغضة الناتجة منه أحياناً.

اولاً. علينا ألا نمهل ولا واسطة واحدة لكي نتغلب على الهوى.

(ا) من الوسائل ما هي صحية تساعد على تلافي الغضب او على تخفيفه: مثل اتباع نظام غذائي ملين، والحمامات الفاترة والمناضح الباردة، والامتناع عن المشروبات المهيجة وخصوصاً الروحية منها. بسبب العلاقة المتينة بين الجسد والنفس، علينا ان نعرف كيف نلطف الجسد ذاته. لكن بما انه في مثل هذه المادة، ينبغي ان نعتبر المزاج والحالة الصحية فالفطنة تقضي ان نستشير أحد الاطباء.

(ب) لكن الافضلية هي العلاجات الادبية.

(١) فلتلافي الغضب يحسن ان نعتاد التفكير قبل العمل لكي لا ندع اصابات الهوى الاولى تسيطر علينا: انه لعمل طويل شاق لكنه كثير الفائدة.

(٢) على كّل إذا طرق هذا الهوى قلبنا، فيفضل، كما قال القديس فرنسيس سالس:

((ان نرفضه حالاً أخرى من الرضى بالمساومة معه ... لأنه، لأضيق مجال نفسه له، يجعل ذاته رب المنزل، فيعمل كالحية التي تجر كل جسمها بسهولة حيث تقدر ان تضع رأسها ... فعليك ان تجمع قواك بسرعة حالما تشعر به، لا بفضاظة وحدة بل بلطف ورضانة)). (مدخل العبادة). أما إذا شئنا قمع غضبنا بحدة فإنما نزداد اضطراباً.

(٣) ان أفضل طريقة وأفيد واسطة هي التلهي عنه، أعني ان نفكر في كل أمر ما عدا الامور التي تهيجه. علينا اذن ان نقضي عنا تذكر ما التحق بنا مرة من الالهانات ونبعد الظنون ... الخ

(٤) وعلينا ان نلتمس معونة الله حين نرى في أنفسنا اضطراباً من الغضب، على مثال الرسل حين ازعجتهم الرياح والعاصفة وسط المياه. لأنه يأمر أهواءنا فتزول ويصير هدوء عظيم)) (فرنسيس سالس، مدخل العبادة).

ثانياً. متى هيج الغضب فينا عواطف البغضة والحقد والانتقام، فلا يمكن ان تشفى هذه العواطف تماماً إلا بالمحلة المؤسسة على الله. هي حالة تذكرنا اننا جميعاً اولاد أب سماوي واحد متحدون

بالمسيح نفسه، مدعوون الى السعادة الابدية ذاتها، وان هذه الحقائق العظمى لا تتفق مع أية عاطفة بغضة. فيجب اذن:

(ا) ان نتذكر كلمات الأبانا: ((اغفر لنا ذنوبنا كما نحن نغفر لمن أساء الينا)) وبما اننا نرغب شديداً ان ننال الغفران الالهي، فلنغفر اذن بكل رضى لأعدائنا.

(ب) لا ننس أمثلة ربنا يسوع الذي لم يكف عن يهوذا صاحبه حين خيانتته ويصلي من على صليبه لأجل مضطهديه. ولنطلب اليه الشجاعة للنسيان والصفح.

(ت) ولنتجنب التفكير في الاهدانات التي التحقت بنا وفي كل ما يتعلق بها. وليصل الكاملون لأجل توبة من آذوهم ويتخذوا من هذه الصلاة بلسماً كبيراً لجروح نفوسهم.

سنبحث الآن عما يتولد عن اللذة البدنية او شهوة الجسد من الخطايا: الشراهة والزنى والكسل.

## الخطايا المتعلقة باللذة الحسية

### الشراهة

ليست الشراهة سوى الافراط في اللذة المحللة التي يشاء ان يعلقها بالأكل والشرب الضرورين لحفظ الفرد. لنعرض: طبيعتها. رداءتها، علاجاتها.

اولاً. طبيعتها. الشراهة هي محبة مفرطة للذات المائدة اي الشرب

والأكل. يقوم هذا الخلل بالتماس لذة الطعام ذاتها، اذ نعتبرها ظاهرياً وضمنياً كغاية لنا، على مثال من جعلوا إلههم بطنهم: ((إلههم البطن)) (فيلبي ٣: ١٩). او من يسعون وراء البطن دون اهتمام بالقواعد التي تملئها القناعة وتراهم أحياناً يؤذون صحتهم.

يشير اللاهوتيون الى اربعة وجوه متنوعة تخالف فيها هذه القواعد.

قبل الأوان: الأكل قبل الشعور بالاحتياج اليه، وخارج الاوقات المعينة له، وذلك ارضاء للشراهة دون داع آخر.

بتأن وعناية مفرطة: التماس المآكل الفاخرة او المعتنى بطبخها لأجل التنعم الزايد: هذه هي خطيئة المتأنقين والنهمين.

بكثرة: تجاوز حدود الشهوة للأكل او للشرب، الاكتظاظ منهما مع خطر تعريض الصحة للضرر، وهذا ما يسميه العالم نهماً.

بلهوجة او بتلهوج: الأكل بشهوة كلبة وجشع ونهم كما تأكل بعض البهائم. وتعتبر هذه الطريقة في العالم طريقة فظة.

ثانياً. رداءة الشراهة من انها تستعد النفس للجسد وتجعل الانسان مادياً وتضعف فيه الحياة العقلية والادبية، وتعرض للتهور في منحدر لا يدرك من لذة التنعم ومن النوع نفسه. فلكي نحدد المأثمة في ذلك يجب تمييز ما يلي:

(ا) الشراهة خطيئة ثقيلة: حين تؤدي الى افراط يجعلنا وقتاً طويلاً عاجزين عن القيام بواجبات حالتنا وعن الازعان للشرائع الالهية او الكنيسة. مثلاً حين تضر بالصحة وحين تكون سبباً لنفقات متزايدة تهدد مصالح العيلة، وعندما تجعل الانسان مقصراً في شرائع القطاعة او الصوم. كذلك حين تكون سبباً لخطايا ثقيلة. قال الاب جانفير: ((الافراط في المائدة، ولا سيما في الولائم والمآدب الفخمة حيث يجلسون الى الموائد ساعات طويلة، يحمل الانسان على ارتكاب كل خطايا اللسان:

النميمة والغيبة و الثلب بأنواعها، وإفشاء اسرار المهن، و الطعن و ...))

(ب) لا تكون الشراهة سوى خطيئة عرضية حين نستسلم الى لذة الموائد بشكل يتجاوز الاعتدال، لكن بدون افراط جسيم وبدون تعرض لمخالفة الوصايا المهمة. لذلك فالأكل او الشرب أكثر من العادة، بلذة او تعظيماً لمأدبة فاخرة او اكراماً لصديق وبدون أفراط زائد، يكون خطيئة عرضية.

(ج) بالنظر الى الكمال تكون الشراهة عائقاً حقيقياً:

(١) لأنها تغذي الرفاهية التي تضعف الارادة وتنمي حب اللذة الحسية وتهيئ النفس الى خنوع واستسلام خطرين.

(٢) لأنها مصدر خطايا كثيرة، اذ تنشئ فرحاً عظيماً يحمل على التشتت والثثرة والمزاج المريب والطيش وفقدان الحشمة. وتفتح في النفس سبيلاً لهجمات ابليس. فمصارعتها اذن واجبة.

ثالثاً. علاجاتها. ان المبدأ الذي يحملنا على مصارعة الشهوة هو ان اللذة ليست غاية بل واسطة. ومن ثم يجب ان تكون خاضعاً للعقل المستقيم المستنير بالإيمان والحال ان الايمان يأمرنا بتقديس ملذات المائدة بطهارة النية والقناعة والإماتة.

(١) يجب قبل كل شيء ان نأخذ طعامنا بنية مستقيمة وفائقة الطبيعة، لا كالبهائم التي لا تلتمس من الطعام غير اللذة. ولا كالفيلسوف الذي يقتصر على النية الشريفة. بل كمسيحي يبتغي بالحري تحسين عمله لتمجيد الله. وبروح الشكر لجودة الله الذي تنازل وأعطانا خبزنا اليومي. وبروح الاتضاع قائلين لنفسنا، كالقديس منصور دي بول اننا لا نستحق الخبز الذي نأكله. وبروح المحلة واضعين كل ما نحصل عليه من التقوى في سبيل خدمة الله والنفوس. بهذا نتم نصائح القديس للمسيحيين الاولين التي يذكرونها الجمهور في جمعيات كثيرة في بدء الطعام: ((فاذا أكلتم او شربتم او عملتم شيئاً فاعملوا كل شيء لمجد الله)) (١ كو ١٠: ٣١).

(٢) ان طهارة النية تجعلنا نحفظ القناعة والاعتدال، اذ نأكل لتجديد القوى الضرورية للقيام بواجبات حالتنا. ونتجنب كل ما يؤدي صحتنا.

والحال ان علماء الصحة يقولون: ((ان القناعة شرط جوهرى للقوة الطبيعية والادبية. بما اننا نأكل لنعيش، علينا ان نأكل باعتدال كعاقليين لنعيش في سلامة. اذن يجب ألا نكثر من الأكل والشرب ... علينا ان نغادر المائدة ونحن شاعرين بخفة ونشاط ودون الشبع قانعون، وللتخمة والكظة متجنبون)).

مع ذلك تحسن الملاحظة ان النظام لا يجري مع الجميع على نمط واحد. فمن الامزجة ما يلزمها لعدة الصدر، ان تغتذي بكثيرة. وغيرها بالعكس يلزم تعديل شهوتها لمقاومة الامراض المعرضة لها. اذن على الفريقين ان يتقيدا بنصائح طبيب حكيم. على المسيحي ان يمارس مع القناعة بعض اماتات. (١) بما ان الزلق في المنحدر سهل والاستسلام الى الشهوة اسهل فلنمتنع أحياناً عن بعض أطعمة نحبها و هي غير ضرورية، و لو كانت مفيدة. فنكتسب بذلك بعض السيطرة على اللذة الحسية إذ نحرمها بعض المسرات المحللة. ونعتق الروح من الخنوع للحواس ونمنحها حرية أوفر للصلاة والدرس. ونتجنب كثيراً من التجارب الخطرة.

ب) من أحسن العادات ان لا نتناول طعاماً بدون ان نجعل فيه للإماتة مكاناً، فلهذه الحرمانات الصغيرة فائدة في تقوية الارادة دون إلحاق اي ضرر بالصحة، وتفضل عموماً على أهم الاماتات الكبرى التي لا تقوم بها الا نادراً. أما النفوس الصالحة فتضيف الى ذلك باعث المحلة، كأن تترك قطعة صغيرة للفقراء، وبالتالي اكراماً ليسوع نفسه الحّي فيهم. ويجب ان لا تكون القطعة المتروكة نفاية، كما لا حظ القديس منصور فاربه، بل قطعة فاخرة مهما كانت صغيرة. ومن الممارسات الحميدة ايضاً ان يعتاد الانسان أكل القليل من طعام لا يحبه.

فلنذكر في هذا الموضوع بالمبادئ التالية:

ا) ليس من شر في اخذ الكحول او الاشربة الروحية باعتدال: لا نقدر اذن ان نعذل العلمانيين او الكهنة الذين يستعملونها باعتدال.

ب) غير ان الامتناع من شربها بروح الاماتة ، او رغبة في اعطاء المثل الصالح هو في الحقيقة حميداً جداً. لذلك يمتنع بعض الكهنة ورجال العمل عن كل مشروب ، كي يصرفوا الاخرين عن شربها بسهولة .

ت) ان هذا الامتناع ضروري في بعض الحالات، ضرورة ادبية لتجنب الافراط:

١) حين يتخذ الانسان عن وراثة سلالية بعض الميل الى الاشربة الروحية. فالعادة التي لا شأن لها قد تنشئ عندئذ ميلاً شديداً يصعب دفعه، كما تكفي شرارة لإضرار حريق في مواد سريعة الالتهاب.

٢) وان ساء حظ أحد وتمكنت فيه عادة شرب الكحول فالعلاج الوحيد عندئذ يكون في الغالب الامتناع التام عن الشرب.

## الزنى

اولاً. طبيعته كما ان الله تعالى قد اراد ان تتعلق اللذة الحسية بالغذاء لمساعدة الانسان على حفظ حياته، هكذا علق لذة خصوصية، بالأفعال التي ينمو بها تناسل النوع البشري.

هذه اللذة محللة اذن للمتزوجين، على ان يستعملوها للغاية التي سن لأجلها سر الزواج: انها انتقال الحياة. اما خارجاً عن ذلك فاللذة ممنوعة بشدة. ومن سوء الحظ ان فينا مع هذا المنع ميلاً متفاوت الشدة وخصوصاً منذ زمن البلوغ او زمن الفتوة. انه ميل الى التمتع بهذه اللذة خارج نطاق الزواج الشرعي. وهذا الميل الغير المرتب يسمى الزنى، وهو الذي حرّمته هذه الوصية المزدوجة من الوصايا العشر:

((شهوانياً لا تكن لا بالجسم ولا بالرضى. فعل اللحم لا تشتهه الا في الزواج فقط)).

اذن ليست الافعال الخارجية وحدها محرمة، بل الافعال الداخلية كالتصورات والافكار والشهوات. وهذا هو عين الصواب: لأننا ان توقفنا اختيارياً لدى اشباح او افكار قبيحة، او شهوات رديئة، حينئذ تضطرب الحواس وتنشأ الحركات العضوية التي تكون في الغالب ممهدات لأفعال تضاد الطهارة. فاذا شئنا اذن ان نتجنب هذه الافعال فيقتضي الأمر ان نحارب الافكار والتصورات الخطرة.

ثانياً. جسامة هذه الخطايا.

(ا) حين نلتمس رأساً اللذة الرديئة ونريدها، نخطأ خطأ مميتاً. وفي الواقع ان التعرض بسلامة حفظ السلاسل البشرية ونموها للخطر هو اختلال جسيم. فلو فرضنا مبدئياً اننا نستطيع مرة واحدة ان نلتمس اللذة الشهوية بالفكر او بالقول او بالفعل في غير وجهها الشرعي المحلل في الزواج، لبات مستحيلاً ان نضع لجاماً لهيجان هذه الشهوة التي تطلبتها بقدر ما نلبي رغباتها، ولخابت سريعاً غاية الخالق من سر الزواج. وبالتالي هذا ما ترينها الخبرة: فكم من الفتيات يمسون عاجزين عن ان ينقلوا الحياة لأنهم اساءوا استعمال اجسادهم! وعلى هذا فليس من خفة مادة في اللذة الرديئة المقصودة رأساً.

(ب) غير انه في بعض الحالات، فبدون ان تلمس هذه اللذة رأساً، تنشأ مع ذلك عن بعض أفعال حسنة بذاتها او أقله عن أفعال مجردة. فان لم نرتض بهذه اللذة وكان اذ ذاك سبب كاف لصنع ذلك الفعل الذي يسببها، فلا جناح علينا إذا عملناه، وينبغي ألا تقلق. لكن ان كانت هذه الافعال تسبب ذلك الشعور غير ضرورية، ولا فائدة حقيقية منها، كالقراءات الخطرة والمشاهد المسرحية

والمحادثات الخفيفة والرقص الداعر، فمن الواضح ان في ممارستها خطيئة غرور تتفاوت جسامتها بحسب جسامه التشويش الصادر عنها، وعلى مقدار خطر الرضى بها.

(ج) بالنظر الى الكمال، وليس من مانع، بعد الكبرياء يمنع النمو الروحي، أكبر من رذيلة الدنس.

(١) سواء كانت الخطيئة فردية او مرتكبة مع اشخاص آخرين، فأنها لا تعتم ان تنشئ عوائد مرهقة تشلّ كل وثبة الى الكمال، وتميل بالإرادة الى الافراح الفضة. ولا تعود النفس تستعذب الصلاة ولا فضيلة الامامة، ولا الاندفاع الى الامور الشريفة السخية.

(٢) تسيطر الانانية على النفس: فيذبل ما كان فيها من المحبة للأهل او للأصدقاء ويكاد يزول بالكلية. ولا يبقى سوى الرغبة بالتمتع، مهما اقتضى الامر، باللذات الرديئة: ان هذا اعتراء حقيقي.

(٣) عندئذ يختل توازن القوى النفسية: ويصبح الامر للجسد وللشهوة. وتسمي الارادة عبدة هذا الهوى الفاضح، فتتمرد بعدئذ على الله الذي يحرم هذه اللذات الرديئة ويعاقبها.

(٤) فيشعر عما قليل بالمفاعيل المحزنة الناشئة عن تخاذل الارادة هذا: يكل العقل ويضعف لأن الحياة قد هوت من الرأس الى الحواس: فلا يعود هذا الشهوي يتذوق الدروس الجدية، ولا تحوم مخيلته إلا على الاشياء السافلة. أما قلبه فيذوي شيئاً فشيئاً ويجف ويقسو، اذ لا يبقى فيه ميل لغير اللذات الغاشمة.

(٥) وكثيراً ما يبتلى الجسم في صميمه: فالجهاز العصبي المتهيج بمثل هذه العوائد الرديئة يضعف ويعجز عن اتمام رسالته في حفظ التوازن والدفاع. اما بقية الاعضاء فلا تأتي إلا عملاً ناقصاً فيسوء الهضم وتضعف القوى ويتهدد الانسان بالفناء.

فيتضح ان نفساً فاقدة التوازن هكذا، وهي تحيا في جسم هزيل، لا تفكر في الكمال مطلقاً، وكل يوم تزداد بعداً عنه. وإذا استطاعت ان تضبط ذاتها قبل فوات الاوان ونتأكد على الاقل خلاصها تكون سعيدة. اذن يقتضي الامر ان نشير الى بعض علاجات لهذه الرذيلة الفظيعة.

ثالثاً. علاجاته. لمقاومة الهوى الشديد الخطر يجب: اعتقاد عميق، والهرب من الاسباب الخطرة، والامامة والصلاة.

(١) يشمل الاعتقاد العميق ضرورة محاربة هذه الرذيلة وامكانية النجاح فيها.

١) ان ما قلناه عن جسامه خطيئة الزنى يبين ضرورة تجنبها لكي لا نتعرض للعقوبات الابدية. يضاف الى ذلك سببان نقلهما عن القديس بولس: نحن هياكل مقدسة بسكنى إله كل قداسة وبشركة الحياة الالهية (١ كو٣:١٦ و١٧) والحال لا شيء يدنس هذا الهيكل أكثر من رذيلة الدنس التي تنجس جسد المعتمد ونفسه معاً. ونحن أعضاء يسوع المسيح المتحدون معه بالمعمودية. فعلينا اذن ان نحترم أجسادنا كجسد يسوع نفسه: فيا لها من وقاحة ان ندنس بعد ذلك بأفعال تضاد الطهارة! أليس ذلك شكلاً قبيحاً من تدنس الاشياء المقدسة، ألا وهو اجتناء لذة فظيعة تنزل بنا الى أحط من مستوى البهائم؟

٢) يزعم البعض ان الحفاظ على الطهارة مستحيل. هكذا كان يقول القديس أغسطينوس قبل اهتدائه، لكن حين رجع الى الله وعضدته أمثلة القديسين ونعمة الاسرار، فهم ان ذلك غير مستحيل إذا عرفنا كيف نصلي وتجاهد بشجاعة. هذه هي الحقيقة الراهنة: ونحن بذواتنا ضعفاء جداً واللذة الرديئة تجذبنا أحياناً بشدة حتى توشك ان تسقطنا. لكي حين نتكل على النعمة الالهية ونبذل جهوداً جدية تخرج من أكبر التجارب منتصرين. ولا يزعم أحد ان طهارة الفتیان مضره بصحتهم. اليك شهادة نبلاء الاطباء ومعهم جمعية الامم في بروكسل ((يجب تعليم الشبيبة من الذكور خصوصاً ان الطهارة والعفة لا تضران بل هما فضيلتان أيضاً يفرضهما علم الطلب الصحيح وعلم الصحة)). وفي الواقع اننا لا نعرف مرضاً واحداً تأتي عن العفة، وهناك امراض كثيرة تنشأ عن الدعارة.

ب) الهرب من الاسباب. من المبادئ الروحية التي لا تقبل الجدل ان الطهارة تحفظ خصوصاً من الاسباب الخطرة. متى أيقن الانسان بضعفه فلا يتعرض بدون داع للخطر، ومتى كانت هذه الاسباب غير ضرورية و جب تجنبها بعناية خوفاً من السقوط فيها: ((الذي يحب الخطر يسقط فيه)) (سير ٢٧:٣). اذن متى أمكن الاستغناء عن المطالعات والزيارات والمقابلات وتمثيل الروايات بدون عائق ذي شأن، فلا مسوغ للتردد في ذلك فنستعيز عن التماسها بالهرب منها كما نهرب من حية مؤذية. وإذا تعذر تجنب هذه الاسباب فيقضي الامر تقوية ارادتنا باستعدادات داخلية تبعد الخطر عنا. ان القديس فرنسيس سالس يصرح هكذا ((إذا تعذر تجنب الرقص، فيجب على الأقل ان يرافقه الاحتشام والحفاظ على الوقار والنية الصالحة. و لكي لا توظف هذه النزاهة الخطرة مودات دنسة،

يصلح ان يخاطب المرء نفسه و هو في المرقص قائلاً: ان نفوساً كثيرة تحترق في جهنم لأجل خطايا ارتكبتها في الرقص)). فما أصدق هذا القول اليوم، اذ يغشى الرقص الدعاري أبهاء كثيرة!

(ج) هناك اسباب لا يمكن تجنبها وهي ما نجده كل يوم في نفسنا وما يدهمنا من الخارج ولا يستطيع التغلب عليها إلا بالإماتة. وقد قلنا ما هي هذه الفضيلة وما هي ممارستها. ولا يسعنا إلا التذكر ببعض ما تفه مما يتعلق بالطهارة مباشرة.

(١) يجب السهر على العينين خصوصاً لان النظر الطموح بعدم فطنة يضرم الشهوات وهذه الشهوات وهذه تستهوي الارادة. لذلك يصرح ربنا يسوع: ((كل من نظر الى امرأة لكي يشتهيها فقد زنى بها في قلبه)) (متى ٥: ٢٨). ويضيف أيضاً: ((ان شككتك عينك اليمنى فاقلعها)) (متى ٥: ٢٩)، أعني ان نكف نظرنا عن التفرس في أمر يشككنا. ان حشمة العينين هذه واجبة لكثرة ما نتعرض في هذه الايام، وفي كل مكان، لان نلاقي بعض الاشخاص والاشياء التي من شأنها ان تهيج التجارب.

(٢) أما حاسة اللمس فهي أكثر خطراً أيضاً لأنها تهيج الشعور الحسي المائل بسهولة الى الملذات الرديئة فيجب اذن الامتناع عن تلك الملامسات والتدليلات التي تثير الالهواء.

(٣) أما فيما يختص بالمخيلة والذاكرة، فلنتذكر القواعد المبينة في ((اماتة الحواس الداخلية)). أما فيما يتعلق بالإرادة فعلياً ان نقويها بتهذيب رجولي المبادئ المعلنة في ((اماتة الارادة وتهذيبها)).

(٤) كذلك يجب ان نميت القلب بمحاربة الصداقات الحسية والخطرة كما مر في الجزء الاول ((الصداقات الكاذبة)). لا شك انه يحين وقت يتهياً فيه اشخاص للزواج فيرتبطون بعضهم بمحبة محللة، لكن يجبان تستمر هذه المحبة طاهرة وفائقة الطبيعة. اذن فليتجنبوا تلك الاشارات الحبية التي تضاد شرائع الحشمة، وليتذكر انه من الواجب ان يكون اتحادهم طاهراً كي يباركه الله. أما الفتیان القاصر والتفكير في الزواج لحدائثة سنهم فليتحرسوا من المحبات الحسية ومن محبة اللذات الجسدية، التي إذ تخنث القلب تعده لاستسلامات خطيرة. لا تُداعب النار بدون ان تلحق بمداعبتها أذى. وعدا ذلك إذا طلبت ممن تريد ان تقترن بها قلباً طاهراً، أما يجب ان يكون القلب الذي تقدمه انت طاهراً أيضاً؟

٥) واخيراً ان أجدى الاماتات هو الاجتهاد القوي والثابت في واجبات حالتنا. ان البطالة هي مشير رديء. أما العمل فبعكس ذلك، فانه حين يستغرق كل نشاطنا يبعد مخيلتنا وعقلنا وقلبنا عن المواضيع الخطرة. سنعود عما قليل الى هذا الموضوع في ((الكسل)).

د) الصلاة. ١) ينبهنا المجمع التريدينتيني ان الله لا يأمر بشيء مستحيل، غير انه يطلب منا ان نعمل ما نستطيع عمله، وان نصلي كي نحصل على النعمة لعمل ما نحن عاجزون عنه بذواتنا. وهذا الامر يطابق على الخصوص الطهارة التي تجلب لأغلب المسيحين حتى في حالة الزواج المقدس صعوبات خصوصية. فللتغلب على هذه الصعوبات، علينا ان نصلي غالباً ونتأمل في الحقائق الكبرى: هذه الارتقاءات النفسية المتواترة الى الله تفصلنا رويداً فرويداً عن الافراح الجسدية كي ترفعنا الى الافراح الطاهرة المقدسة.

٢) علينا ان نضيف الى الصلاة الممارسة المتواترة للأسرار. حين يعترف التائب غالباً ويشكو نفسه بإخلاص بالخطايا بالسفاهات المفعولة ضد الطهارة، فنعمة الحلة المقترنة بالنصائح المقبولة تقوي الارادة على التجارب بشكل عجيب. ان هذه النعمة تتأيد أيضاً بالتناول المتكاثر:

فالاتحاد الوثيق بمن هو إله كل قداسة يخمد الشهوة ويجعل النفس أكثر شعوراً بالخيرات الروحية ويفصلها عن اللذات الفظيعة. كان القديس فليس نيري يشفي بالاعترافات والتناول المتواتر الفتیان المتوغلين في رذيلة الدنس. لا دواء حتى الآن أنج منه للثبات في الفضيلة ولتقويتها. فاذا نجا فتیان وفتيات كثيرون من سريان عدوى هذه الرذيلة، فذلك لأنهم وجدوا في الممارسة الدينية سلاحاً على التجارب التي تضايقهم. لا شك ان هذا السلاح يطلب شجاعة ونشاطاً وجهوداً متجددة كثيراً. غير أننا بالصلاة والاسرار والارادة الثابتة ننتصر على كل العوائق .

## الكسل

يتعلق الكسل باللذة الحسية، لأنه في الحقيقة ينشأ عن حب اللذة، من حيث انها تحملنا على تجنب والعناء. وفي الواقع اننا نحمل جميعنا ميلاً الى الجهد الأقل يشل نشاطنا ويضعفه فلنبين: طبيعته. خباثته. علاجاته.

اولاً. طبيعته. ا) الكسل ميل الى البطالة، او أقله الى التهاون والخدر في العمل. يكون الكسل احياناً حالة مرضية ناشئة عن صحة ضعيفة. لكنه في غالب الاحيان مرض في الارادة التي تخشى الجهد وتاباه. يريد الكسول تجنب كل مشقة، وكل ما يعكر راحته ويجلب المشقات. الكسول طفيلياً حقيقي يعيش على حساب غيره ما أمكنه ذلك. والكسول حليم وخضوع إذا لم يعنف، وإذا شئت ان تنتشله من جموده يمسي شرساً شريراً.

ب) للكسل درجات متنوعة. فالبليد او المتراخي يقدم على عمله ببطء وجبانه وبدون مبالاة. ان أتى عملاً فعمله معيب غير محكم. والمتوان يؤجل. اما الكسول الحقيقي فلا يأتي عملاً متعباً وينفر من كل عمل جديّ جسدياً كان ام روحياً.

ثانياً. خباثته. أ) لكي نفهم خباثة الكسل، علينا بالتذكر ان الانسان خلق كي يعمل. عندما خلق الله ابانا الاول وضعه في فردوس النعيم كي يعمل فيه: ((وأخذ الرب الاله الانسان وجعله في وجعله في جنة عدن ليفلحها ويحرسها)) (تك ٢: ١٥). وليس الانسان في الواقع مثل الله كائناً تاماً. ففي الانسان قوى عديدة تحتاج الى العمل لتتكمّل: فالعمل اذن من ضروريات طبيعته لكي يهذب قواه، ويقوم بمتطلبات جسده ونفسه، ويتجه الى غايته. فشرعية العمل اذن سابقة الخطيئة الاصلية. لكن الانسان بعد ان أخطأ بات الشغل له لا شرعية طبيعية فحسب بل عقاباً. وبمقتضى هذا المعنى غدا الشغل واسطة للتفكير عن خطيئة: فبعرق جبيننا علينا ان نأكل خبزنا خبز المعرفة كالخبز الذي نأكله لتغذية جسدنا: ((بعرق وجهك تأكل خبزك)) (تك ٣: ١٩).

فالكسلان ينتهك هذه الشريعة المزدوجة، الطبيعية والوضعية. ويرتكب خطيئة يكون ثقلها بقدر جسامة ما يهمله من الواجبات.

١) متى أهمل الواجبات الدينية الضرورية لخلاص نفسه وتقديسها، فالخطيئة ثقيلة وكذلك حين يمهّل اختيارياً في مادة مهمة أحد واجبات حالته.

٢) تكون الخطيئة عرضية إذا لم يهمل، بسبب هذا الخدر، واجبات دينية او مدنية اقل اهمية. غير ان المنحدر زلق، فان لم يقاوم هذا التراخي لا يعتنم ان يستحکم ويغدو أشد أذى وأثماً.

ب) الكسل الروحي هو أحد أهم الموانع بالنظر الى الكمال بسبب نتائجه السيئة.

١) انه يعرض حياتنا للعقم. ويمكننا في الواقع ان نخصص بالنفس ما قاله الكتاب المقدس عن حقل الكسلان: ((أني مررت بحقل الكسلان وبكرم الانسان الفاقد اللب. فاذا الشوك قد علاه كله والعضة غطى وجهه وجدار حجارته قد انهدم. فنظرت فوعيت في قلبي ورأيت فاستفدت تأديباً قليل من الوسن، قليل من النوم، طي اليدين قليلاً للرقاد. فيأتي عوزك كساعٍ وفاقتك كرجل متسلح)) (امثا ٢٤:٣٠ و ٣٤).

هذا ما نجده حقاً في نفس الكسلان: فبدل الفضائل تنمو فيها الرذائل، والجدران التي كانت الامانة قد بنتها لتدافع عن الفضيلة، تسقط قليلاً قليلاً وتمهد السبيل لغارة العدو، أعني الخطيئة.

٢) لا تلبث التجارب حتى تزداد لجاجةً ومضايقةً: ((لان الفراغ يعلم ضروب الخبث)) (سير ٢٩:٣٣). ان الكسل مع الكبرياء قد أهلكنا سدوم: ((هذا كان إثم سدوم اختك ان الاستكثار والشبع من الخبز وطمانينة الفراغ كانت فيها وفي توابعهما ولم تعضد يد البائس والمسكين)) (حز ١٦:٤٩). في الواقع ان عقل الانسان وقلبه لا يقويان ان يلبثا بطالين: فان لم يستغرقا في الدرس او في عمل آخر، تهاجمهما دون إبطاء جحافل من الأخيلة والافكار والرغبات والمحبات. والحال ان ما يسيطر علينا ونحن في حالة الطبيعة الساقطة ان لم نعمل على معاكسته، انما هو الشهوة المثلثة. هي اذن الافكار الشهوية البدنية، والطمع والكبرياء والانانية النفعية التي تستولي على نفسنا، وتعرضها للسقوط في الخطيئة.

ج) اذن ليس الغرض هنا كمال نفسنا فقط، بل خلاصها الابدي. لأنه عدا الخطايا العرضية التي توقعنا فيها البطالة، فإهمال واجباتنا المهمة وحده سبب كاف للقضاء علينا. خلقنا لنخدم الله ونتمم واجبات حالتنا. نحن عملة ارسلهم الله للعمل في كرمه. والحال ان رب الكرم لا يطلب من عملته ان يمتنعوا عن العمل الباطل فقط. بل يريد ان يعملوا. فان بقينا اذن مكتوفي الايدي بلا عمل، ودون ان نأتي اعمالاً وضعية تضاد الشرائع الالهية، ألا يوبخنا رب البيت على فراغنا كما وبخ الفعلة: ((ما بالكم واقفين ههنا النهار كله بطالين)) (متى ٦:٢٠). ان الشجرة العقيمة تستحق القطع والطرح في النار، لأنها لم تثمر: ((ها ان الفأس قد وضعت على أصل الشجر فكل شجرة لا تثمر ثمرة جيدة تقطع وتلقى في النار)) (متى ١٠:٣).

ثالثاً. علاجاته أ) لكي نشفي الكسول، علينا قبل كل أمر، ان نلقي في ذهنه اعتقادات عميقة بضرورة العمل، ونفهمه ان الاغنياء خاضعون لهذه الشريعة كالفقراء، وان مخالفتها كافية كي تعرّض المرء

للهلاك الابدي. هو الدرس الذي اعطاناہ ربنا يسوع بمثل التنبه الفاقدۃ الثمر. كان رب البيت يأتي ويلتمس منها ثمرة مدى ثلاث سنين واذ لم يجد شيئاً أمر الكرام بقطعها: ((اقطعها لماذا تعطل الارض)) (لو ١٣: ٧)

اذن لا يستطيع أحد ان يقول: أنى غني ولا احتاج الى الشغل. فاذا منحك الله ذراعين ودماعاً وفهماً وصحة واموالاً فذلك لتستخدمها لمجده تعالى وخير اخوتك ذوي القلوب الكسيرة.

ب) علينا ان نضيف الى ذلك الجهد المتواصل والمتواصل والمنظم مستخدمين القواعد التي وضعنا في تهذيب الارادة: ((في اماتة الارادة او تهذيبها)). وبما ان الكسول ينهزم غريزياً امام الجهد فعلينا ان نبين له، انه لا أتعس في الحقيقة من الانسان البطال: اذ لا يعرف يستعمل الوقت، او حسب قوله كيف يقتل الوقت. فتراه يسأم ويشمئز من كل شيء، حتى تسمي الحياة كرية في نظره. أليس من الأفضل ان يجتهد ويكون نافعاً، ويفوز بسقط من السعادة، اذ يجد في ان يجعل من حوله سعداء؟ هناك كسالى يظهرون بعض النشاط، لكن في الالعاب والالعاب الرياضية، وفي الاجتماعات العالمية، فعلينا ان نذكر هؤلاء أهمية الحياة، وان الواجب يقضي ان يكونوا نافعين، لكي يحولوا نشاطهم الى حقل أشرف ويكوهوا ان يكونوا طفيليين. فالزواج المسيحي مع كل واجبات العلية التي تلازمه، هي في الغالب علاج ممتاز: ان رب العيلة يشعر بالحاجة الى العمل من أجل أولاده والى ان لا يفوض ادارة ارزاقهم للغرباء.

لكن ما يجب ان نذكرهم به دائماً هو غاية الحياة: نحن هنا على الارض لا لنعيش طفيليين، بل لنفتتح بالعمل والفضيلة مكاناً في السماء. وان الله لا يبرح يقول لنا: ماذا تعملون هنا ايها الكسالى؟ ((ما بالكم واقفين هنا النهار كله بطالين امضوا أنتم أيضاً الى كرمي)) (متى ٦: ٢٠ و٧).

## البخل

يتعلق البخل بشهوة العين التي تكلمنا عنها في الجزء الاول (صفحة ٧٧ و٧٨). سنبين طبيعته. خباثته. علاجاته.

اولاً. طبيعته. البخل حب مفرط لخيرات الارض. فلكي نبين موضوع الخلل الصادر عن البخل، علينا ان نتذكر قبل كل شيء للغاية التي لأجلها أعطى الله الانسان الخيرات الزمنية.

ان الغاية التي توخاها الله هي مزدوجة: منفعتنا الشخصية وفائدة اخوتنا.

أ) أعطيت لنا الخيرات الارضية للقيام باحتياجات الانسان نفساً وجسيمياً، لحفظ حياتنا وحياء من يتعلقون بنا، وإعداد الوسائل لتهديب عقولنا وسائر قوانا، وللتفريح عن المعوزين من الفائض لدينا. فليست الرغبة في الخيرات الارضية محرمة إذا كانت الغاية شريفة على ان تجعل منها نصيباً للفقراء وللبر. فنحن على وجه ما خزنة العناية الالهية.

ب) إذا جعلتنا الثروات كغاية أخيرة، مثلاً لأجل المال او للفوز بالملذة والامجاد فذلك ضرب من عبادة الاصنام، عبادة عجل الذهب.

ت) يتجلى عيب حشد المال في سن النضوج او في سن الشيخوخة، فينمو في الشيوخ لخوفهم من العوز، وخشية من الامراض والطوارئ ومن التقصير عن العمل. فالعزاب العانسون والعوانس معرضون لذلك، اذ لا اولاد لهم يعينونهم في شيخوختهم.

ث) ويتجلى أيضاً لا لتأمين مستقبل الثري او مستقبل سلالته، بل لتحصيل السلطان الذي يوليه المال، فيكون له سلطة أنفذ من سلطة أنفذ من سلطة الحكام. فهو ملك الحديد والفولاذ والذهب الخ... يأمر الملوك كما يأمر الشعوب، ان سلطان الذهب يتحول في الغالب الى ظلم مرهق.

ثانياً. خباثته. أ) البخل دليل على عدم الثقة بالله، الذي وعدنا بانه يسهر علينا بعناية ابوية، ولا يسمح ان ينقصنا ما هو ضروري لنا، بشرط ان نثق به. انه يدعونا لننظر الى طيور السماء التي لا تزرع ولا تحصد والى زنابق الحقول التي لا تشتغل ولا تغزل، لا ليشجعنا في الحقيقة على الكسل، بل ليلطف همومنا ويدعونا الى الثقة بأبينا السماوي: ((لا يستطيع أحد ان يعبد ريين لأنه إما ان يبغض الواحد ويحب الآخر او يلازم الواحد ويرذل الآخر: لا تقدر ان تعبدوا الله والمال. فلهذا اقول لكم لا تهتموا لأنفسكم بما تأكلون ولا لأجسادكم بما تلبسون: أليست النفس أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس؟ انظروا الى طيور السماء فأنها لا تزرع ولا تحصد ولا تحزن في الاهراء وابوكم السماوي يقوتها: أفلمستم أنتم أفضل منها؟ ومن منكم إذا هم يقدر ان يزيد على قامته ذراعاً واحداً؟ ولماذا تهتمون باللباس؟ اعتبروا زنابق الحقل كيف تنمو انها لا تتعب ولا تغزل، وأنا اقول لكم ان سليمان في كل مجده لم يلبس كواحدة منها. فاذا كان عشب الحقل الذي يوجد اليوم وفي غد يطرح في التنور يلبسه الله هكذا أفلا يلبسكم بالأحرى أنتم يا قليلي الايمان؟ فلا تهتموا قائلين: ماذا نأكل او

ماذا نشرب او ماذا نلبس. لان هذا كله تطلبه الامم وابوكم السماوي يعلم انكم تحتاجون الى هذا كله. فاطلبوا اولاً ملكوت الله وبزّه وهذا كله يزداد لكم. فلا تهتموا بشأن الغد فالغد يهتم بشأنه: يكفي كل يوم شره)) (متى ٦: ٢٤-٣٤). أما البخيل فعوض ان يضع ثقته بالله يضعها بكثرة غناه ويهين الله اذ لا يثق به ((هذا هو الرجل الذي لم يجعل الله له حصناً بل اتكل على كثرة غناه واعتز بهواه)) (مز ٩٠: ٥١). وتصحب عدم الثقة هذه ثقة بالنفس عظيمة جداً، وبالانشاط الذاتي: يريد ان يكون عناية الهية لنفسه وهكذا يسقط في شكل من عبادة الوثن، اذ يجعل المال إلهه. والحال ((لا يستطيع أحد ان يعبد ريين معاً الله والمال)) (متى ٦: ٢٤).

ان هذه الخطيئة اذن ثقيلة من طبيعتها للأسباب التي سبق بيانها. وهي ثقيلة أيضاً حين تجعلنا مقصرين في واجبات العدل الكبرى، باستعمال الطرائق الخداعة لكسب الثروة وحبسها. وحين تجعلنا مقصرين في واجبات المحبة اذ لا نبذل الصدمات الضرورية. وحين تجعلنا مقصرين في واجبات الديانة بانهما كنا في المهام العالمية، وترك الواجبات الدينية جانباً. لكنها لا تكون إلا خطيئة عرضية، عندما لا تجعلنا مقصرين في إحدى الفضائل المسيحية الكبرى، وفي واجباتنا نحو الله.

ب) ان حب المال ينزع الله من القلب: ((لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك)) (متى ٦: ٢١). فيجدر بنا ان نقاوم هذا الانحراف الشاذ.

ثالثاً. علاجاته. ا) ان أنجع علاج هو الاعتقاد العميق المرتكز على العقل والايمان، ان الثروات ليست هي غايتنا، بل وسائل أعطتنا اياها العناية الالهية لتقوم بحاجاتنا وبما يحتاج اليه اخوتنا. وان الله هو ربها المطلق. ولسنا في الحقيقة سوى وكلاء عليها، وسنؤدي الحساب عنها يوماً الى القاضي المطلق. وبالتالي ان الثروات هي خيارات زائلة لا ننقلها معنا الى الحياة الاخرى، فضلاً عن انها غير رائجة هناك. فاذا كنا عقلاء فلندخر للسماء لا للأرض: ((اكنزوا لكم كنوزاً في السماء حيث لا يفسد سوس ولا آكلة ولا ينقب السارقون ولا يسرقون)) (متى ٦: ٢٠).

ب) لكي يتجرد المرء تجرداً أفضل، ليس من واسطة أفعل من ان يضع ماله في مصرف السماء، اذ يجعل النصيب الاوفر للفقراء وللمشاريع الخيرية. ان العطية للفقراء هي قرض لله، هي استيفاء مئة ضعف عنها حتى على الارض، اذ يتعزى بسعادة من يحيطون به، ولا سيما في السماء حيث يعتبر يسوع ما أعطي لأصغر اخوته كأنه أعطي له نفسه، فيأخذ على نفسه ان يعوضنا عما ضحينا به لأجله

من الخيرات الزمنية خيرات لا تزول. فالعقلاء هم من يبدلون الكنوز الارضية بكنوز السماء. فبالتماس الله والقداسة اذن تقوم الفطنة المسيحية: ((اطلبوا اولاً ملكوت الله وبره وهذا كله يزداد لكم)) (متى ٣٣:٦).

ج) أما الكاملون فيتوجهون الى ما أبعد: يبيعون كل شيء ليعطوا ثمنه للفقراء، او ليجعلوه مشتركاً بدخولهم في إحدى الجمعيات. وفي استطاعتهم أيضاً ان يتخلوا عن الغلال مع الاحتفاظ برأس المال، اذ لا يتصرفون بها إلا بحسب مشورة حكيم. بذلك نتجرد عقلاً وقلباً، ونحن مستمررون في الحالة التي وضعتنا فيها العناية الالهية.

ان محاربة الخطايا الرئيسية السبع نتيجة على هذا المنوال، تستأصل منا الاميال الرديئة التي تتولد عن الشهوة المثلثة. لا شك انه يبقى فينا دائماً بعض هذه الاميال لكي نتمرن على الصبر، ونبقى على حذر من ذواتنا. غير ان هذه الاميال تكون اقل خطراً. فباتكالنا على نعمة الله ننتصر عليها بسهولة. ولا جرم انه مع جهودنا، ستثور ايضاً في نفوسنا بعض التجارب، لكنها ستكون لنا نهضة لانتصار جديد.

## مَقَاوِمَةُ التَّجَارِبِ

بالرغم عما نبذله من الجهود في استئصال رذائلنا، قد تعرض لنا التجربة. فعلينا ان نتوقعها. فان لنا اعداء روح، هم الشهوة والعالم والشيطان، (الكتاب الاول، صفحة ٧٣\_٩١) لا يرحون ينصبون لنا حباثتهم. إذن علينا ان نحتاط لنفسنا مكن التجربة، سواء كانت تجربة عمومية ام من تجارب المبتدئين الاساسية.

## التجربة عموماً

التجربة هي تحريض اعداء الروح على ارتكاب الشر. نبين مقاصد العناية الالهية من التجربة. ثم ندرس نفسية التجربة. وموقفنا ازاءها.

## مقاصد العناية الالهية من التجربة

ان الله لا يجربنا رأسناً: (لا يقل أحد إذا جُرب ان الله قد جربني فان الله غير مجرب بالشر وهو لا يجرب أحداً)) (يعقوب ١: ١٣). غير انه يسمح ان يجربنا اعداء الروح، مع منحه ايانا النعم الضرورية للمقاومة: ((ان الله أمين لا يدعمكم تجربون فوق طاقتكم بل يجعل مع التجربة مخرجاً لتستطيعوا ان تحتملوا)) (١ كو ١٠: ١٣). وله في ذلك اسباب سامية.

اولاً. يريد ان يؤهلنا للمساء: كان ولا شك، قادراً ان يمنحنا السماء هبة، لكنه شاء عن حكمته ان نستحقها ثواباً. ويريد ايضاً ان يكون الثواب بنسبة الاستحقاق بالتالي بنسبة الصعوبة التي ذللنا. من الثابتان بين اشد الصعوبات إرهاقاً التجربة التي تجعل فضيلتنا الواهية في خطر. فمحاورة التجربة بشجاعة هي من أعظم الافعال استحقاقاً. وحين نتغلب عليها بنعمة الله نستطيع ان نقول مع القديس بولس: ((قد جاهدت الجهاد الجميل ... وانما يبقى اكليل العدل المحفوظ لي الذي يجزييني به في ذلك اليوم الديان العادل)) (٢ تيمو ٤: ٨٧). هناك مجد أعظم، ومسرة أوفر في امتلاك الاكليل، يوازنان ما نكون قد عملناه كي نستحقه ونفوز به.

ثانياً. انها واسطة تطهير ايضاً.

(١) لأنها تذكرنا اننا فيما سلف قد زللنا بسبب طيشنا وقلة نشاطنا. كذلك هي لنا باعث على تجديد فعال الندامة والخجل والاتضاع التي تساعد على تطهير نفسنا.

(٢) تضطرننا في الوقت نفسه الى بذل جهود قوية متواصلة تجنباً نكفر للسقوط. وتجعلنا نكفر عن جبانتنا واستسلامنا بأفعال تعاكسها، وهذا كله يزيد طهارة نفسنا. لذلك حين يشاء الله ان يظهر إحدى النفوس تطهيراً أكمل، كي يرقئها الى المشاهدة الالهية، يتسمح في ان تقاسي تجارب هائلة.

ثالثاً. اخيراً انها وسيلة للنمو الروحي.

(١) ان التجربة هي كضربة سوطٍ توقفنا حين نوشك ان نغفل و نترأخى. و تفهمنا انه يجب ألا نتوقف في وسط الطريق، بل نتجه الى ما أعلى كي نقضي كل خطر بأمن اكثر.

٢) هي ايضاً مدرسة اتضاع وحذر من النفس: بها نحسن معرفة ضعفنا وعجزنا، ويزداد شعورنا باحتياجنا الى النعمة، ونصلي بحرارة أكثر، ونرى جلياً الضرورة الى اماتة حب اللذة ينبوع تجاربنا، ونعانق باندفاع صلباننا الصغيرة اليومية لنخمد بها حدة شهوتنا.

٣) هي مدرسة حب لله: لأننا نرتمي بين ذراعي الله ونستمد منه الحماية والقوة لنقاوم بأمن أكثر. ونشكره عما يهبنا من النعم ونسلك معه كابن يلتجئ في جميع صعوباته الى الآباء.

للتجربة اذن فوائد كثيرة، لذلك يتسمح الله في تجربة أصفياؤه، كما قال الملاك لطوبيا: ((اذ كنت مقبولاً امام الله كان لا بد ان تمتحن بتجربة)) (طو ١٢:١٣).

## درس التجربة النفسي

سنصف تواتر التجربة. اطوارها المختلفة. دلائل الرضى ودرجاته.

اولاً. تواتر التجارب. كثيراً ما يتنوع تواتر التجربة وحدتها: من النفوس من تجرب غالباً وبشدة. بينما ان غيرها لا تجرب إلا نادراً وبدون ان نشعر بقلق عميق. اسباب كثيرة توضح هذا التنوع.

أ) المزاج والخلق قبل كل أمر: من البشر من تغلب بهم الاهواء كثيراً، وهم في الوقت نفسه ضعيفو الارادة كثير والتجارب، والتجربة تقلقهم. وغيرهم من اصحاب الاتزان والحزم لا يجربون الا نادراً، ويلازمون السكينة حتى في غمرة التجربة.

ب) أما التربية فتأتي بفروقات أخرى: هناك نفوس نشأت على خوف الله ومحبته في ممارسة الواجب الشاقة الاعتيادية، ولم يتلقوا سوى الامثلة الصالحة. وعلى العكس نرى سواها قد تربت في حب اللذة وخشية كل ألم، وقد شاهدت كثيراً من امثلة الحياة العالمية والشهوية. فمن الواضح ان يكون هؤلاء مجريين بعنف أكثر من الاولين.

ت) علينا ان نعتبر ايضاً مقاصد العناية الالهية. من النفوس من يدعوها الله دعوة مقدسة، ويحفظها في الطهارة بعناية الغيور. ويعد غيرها للقداسة، لكنه يريد ان يختبرها بتجارب قاسية كي يثبتها في الفضيلة. وغيرها اخيراً لا يدعوها الله دعوة سامية، فتكون في أغلب الاوقات مجربة، مع ان التجربة لا تفوق قواها ابداً.

ثانياً. أطوار التجربة الثلاثة. جاء في التعليم التقليدي الذي بينه القديس أغسطينوس ان للتجربة ثلاثة أطوار: الاغواء والالتذاذ والرضى.

أ) ينشأ الاغواء عن اقتراح شر ما: فالمخيلة او العقل يتمثلان بشكل متفاوت الحدة جواذب الثمرة المحرمة. يكون هذا التصور أحياناً شديداً الفتنة. ويفرض ذاته بالحاح ويمسي موضوعاً ملازماً. ليس في هذا الاغواء خطيئة مهما كان خطراً، على ان لا نهيجه او لا نرضى به طوعاًك لا خطيئة في الاغواء إلا متى رضيت الارادة به.

ب) يقترن الاغواء بالالتذاذ: ان جزء النفس الادنى يتجه غريزياً ويميل الى ما يلقي في الذهن من الشر، فنشعر ببعض اللذة. قال القديس فرنسيس سالس: ((يتفق أحياناً كثيرة ان يتلذذ الجزء الادنى بالتجربة دون الرضى بها، بالرغم ايضاً عن الاعلى: هذه هي الحرب التي وصفها القديس بولس حين قال: ((ان الجسد يشتهي ما هو ضد الروح والروح يشتهي ما هو ضد الجسد كلاهما يقاوم الآخر حتى انكم لا تصنعون ما تريدون)) (غلا ٥: ١٧). فتلذذ القسم الادنى هذا ليس بخطيئة ما دامت الارادة لا ترضاه. لكنه خطر لان الارادة تكون اذ ذاك مدفوعة بالحاح الى الرضى به. عندئذ يفرض الخيار: أترضى الارادة بذلك، نعم ام لا؟

ت) فاذا رفضت الارادة قبوله قمعت التجربة وطردتها وانتصرت، وأنت عملاً ذا استحقاق وافر. وان سرت بعكس ذلك اللذة، وتلذذت بها اختيارياً وارتضتها ارتكبت الخطيئة داخلياً. فالخطأ اذن وعدمه متعلق برضى الارادة الاختياري، لذلك سنعين، لزيادة الايضاح الدلائل التي نستطيع بها ان نعرف هل قبلنا التجربة، وبأية درجة.

ثالثاً. دلائل القبول. علينا، لكي نشرح هذه النقطة المهمة شرحاً وافياً، ان ننظر في دلائل عدم الرضى، وفي الرضى الناقص، في الرضى التام.

أ) نقدر ان نعتبر اننا لم نقبل التجربة، إذا شعرنا، بالرغم من الاغواء ومن اللذة الغريزية التي تصحبه، بعدم السرور وبالضجر من رؤيتنا نفسنا مجربين هكذا، وإذا حاربنا كي نتقي السقوط، وإذا شعرنا، بقسم نفسنا الأعلى، بكره شديد للشر المعروض لنا.

ب) قد نأثم في التجربة في علتها، حين نعرف ان هذا العمل، او ذاك الذي تستطيع ان نتجنبه يكون لنا مصدر تجارب. قال لنا القديس فرنسيس سالس: ((اذا عرفت ان بعض المحادثات تسبب لي التجربة والسقوط ، فتابعت الحديث اختيارياً، فانا بدون شك مذنب في كل ما يعرض لي من التجارب (( . غير أني لا آثم اذ ذاك إلا بقدر ما اكون قد سبقت فتبصرت في العاقبة، فاذا كان هذا النظر مبهماً وملتبساً فبقدره يخف الاثم)).

ت) في استطاعتنا ان نعتبر الرضى ناقصاً:

١) حين لا نطرد التجربة بسرعة تساوي شعورنا بثقل الخطر. هنا تنشأ خطيئة الغباوة التي وان لم تكن ثقيلة، إلا انها تعرضنا لخطر الرضى بالتجربة.

٢) عندما نتردد قليلاً هنيهة: نرغب التمتع قليلاً باللذة المحرمة، لكننا لا نريد إهانة الله. وبالاختصار اننا بعد هنيهة تردد نطرد التجربة. هنا ايضاً خطيئة غباوة عرضية.

٣) إن لم نطرد التجربة سوى نصف طرد اي رفض ناقص: نقاومه لكن بشكل مترخ وغير كامل. والحال ان المقاومة الناقصة هي رضى ناقص. فالخطيئة اذن عرضية.

ث) يكون الرضى تاماً وكاملاً حين تجر الارادة الضعيفة بسبب مسامحاتها الاولى، الى تذوق اللذة الرديئة اختيارياً، بالرغم من تصريح الضمير الذي يعرف ان ذلك شر. عندئذ ان كانت المادة ثقيلة فالخطيئة مميتة: وهي إما خطيئة فكرية وإما تلذذ شرس كما يقول اللاهوتيون. وان صحب الفكر رغبة مقبولة تكون الخطيئة أثقل. أخيراً إذا حزنا من الرغبة الى العمل، او على الاقل الى التماس الوسائل المختصة بإنجاز مقصدنا وتتبعها، فهي خطيئة فعلية.

ينشأ بعض الاحيان، في الحالات التي بسطناها، شكوك في الرضى او في الرضى غير التام المذكور. عندئذ ينبغي التمييز بين الضمائر الدقيقة والضمائر المترخية. ففي الحالة الاولى يُحكم بعدم الرضى، لان من عادة الشخص المنصور عنه في المادة الاول انه لا يرضى، بينما اننا في الحالة الثانية نحكم بعكس ذلك تماماً.

**موقفنا تجاه التجربة**

لكي نتصر على التجارب ونستخدمها لخير نفسنا الروحي، هناك ثلاثة امور اساسية ينبغي عملها: اولاً. ان نبتدر التجربة . ثانياً. ان ننازلها بشدة. ثالثاً. ان نشكر الله بعد الانتصار. او ان ننهض بعد السقوط.

اولاً. ان نبتدر التجربة نعرف المثل القائل: ( درهم وقاية خير من قنطار علاج)). هذا ما تشير به الحكمة المسيحية. عندما انطلق يسوع بالرسالة الى بستان الزيتون قال لهم: ((اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة)) (متى ٢٦:٤١). فالتيقظ والصلاة إذن هما الواسطتان العظيمتان لتدارك التجربة.

التيقظ هو احاطة النفس بالصيانة تجنباً للمباغثة: لان السقوط في وقت المفاجأة يسهل كثيراً! وهذا التيقظ يتضمن استعدادين اساسيين: الحذر من الذات والثقة بالله.

ا) اذن علينا ان نتجنب هذا الادعاء العريض، الذي يرمي بنا وسط الاخطار، بحجة اننا اقوياء بالكفاية فنتغلب عليها. تلك كانت خطيئة القديس بطرس، الذي صاح حين كان يسوع يتنبأ عن تخلي التلاميذ عنه: ((لو شك فيك جميعهم لن اشك انا)) (مزمور ١٤:٢٩). فلنتذكر بعكس ذلك ((من ظن انه قائم فليحذر ان يسقط)). (١ كو ١٠:١٢). لأنه إن كانت النفس مستعدة فالجسد ضعيف: ((أما الروح فمستعد وأما الجسد فضعيف)) (متى ٢٦:٤١). فلا امان الا في التحذير الوضيع من الضعف الذاتي.

ب) علينا ايضاً ان نتجنب المخاوف الباطلة التي تزيد الخطر. لا ريب اننا بذواتنا ضعفاء، غير اننا بقوة من يقوينا لا يغلب: ((لكن الله امين، لا يدعكم تجربون فوق طاقتكم بل يجعل مع التجربة مخرجاً لتستطيعوا)) (١ كو ١٠:١٣).

ت) ان هذا التحذير العادل من النفس، يجعلنا نتجنب الاسباب الخطرة مثل تلك الالفة، وذاك اللهو الخ حين أرتنا خيرتنا اننا كنا معرضين للسقوط. فالتحذير يصارع البطالة التي هي أحد أخطر الاسباب، كما انه يقاتل التواني العادي الذي يرخي عزائم الارادة، ويعرضها لكل استسلام. ان التحذير يخشى تلك البطالة التي تملأ النفس أخيلة لا تلبث ان تسمى خطرة. وخالصة القول ان التحذير هو التمرس بالإماتة على مختلف اشكالها. والاجتهاد في تميم واجبات حالتنا، وفي الحياة الداخلية وفي الرسالة. عندئذ يبقى من الوقت للتجارب، في تلك الحياة المملأ بالواجبات.

ث) يجب إدمان التيقظ بوجه خاص على النقطة الضعيفة في النفس، لان الحملة في الغالب تشن عليها عادة من هذه الجهة. فلتقوية هذه النقطة السهلة المأخذ، نستعمل فحص الضمير الخاص الذي يحصر كل انتباهنا زمناً طويلاً في هذه النقيصة، او بالأفضل في الفضيلة التي تعاكسها كما رأينا في الجزء الاول صفحة ١٨٤.

ج) الى التيقظ تنضم الصلاة التي، اذ تجعل الله بجانبنا، تقوينا فلا يقهرنا شيء. وفي الحقيقة ان الله يهتم بنصرتنا: فان الشيطان يصادم الله فينا، ويريد ان يقوض عمله الالهي فينا ايضاً. اذن نستطيع ان ندعو الله بثقة مقدسة، موقنين انه لا يريد الا مساعدتنا. فكل صلاة هي ناجعة طرد التجربة، سواء كانت لفظية ام عقلية، فردية ام جمهورية، بشكليها العبادة او الطلب. نقدر خصوصاً في اوقات السكينة ان نصلي عن زمن التجربة. وعند حلول التجربة لا نحتاج الا الى رفع قلبنا هنيهة كي نقام بنجاح أكثر.

ثانياً. مقاومة التجربة. تختلف هذه المقاومة حسب طبيعة التجارب. منها تجارب متواترة، لكنها خفيفة الوطأة: علينا ان نعالجها بالازدراء كما يشرحها القديس فرنسيس سالس بقوله: ((أما تلك التجارب الخفيفة كالزهو والظن والغم والغيرة والحسد والمحبات العابرة، وأمثال المخاتلات التي تمر مَرّ الذباب امام عيوننا وكالبعوض، فتلدعنا تارة في خدنا وغيرها في أنفنا... فأفضل مقاومة نقوى عليها هي ان لا نقلق لها. ليس في كل ذلك ضرر. ولو اضجرنا، على ان نقصد قصداً ثانياً اننا نبتغي ان نخدم الله. اذدر اذن هذه الحملات الصغيرة، ولا تتنازل حتى الى التفكير في ما تنقله اليك، بل دعها تدندن حول اذنيك ما شاءت ... كما تعامل الذباب ...))

هنا نهتم خصوصاً بالتجارب الثقيلة. علينا ان نحاربها بسرعة وقوة وثبات واتضاع.

ا) بسرعة. دون جدال العدو وبغير تردد: ففي البداية، اذ لا تكون التجربة قد تمكنت بعد في أنفسنا، يسهل رفضها. وإذا انتظرناها حتى تتأصل، يتعذر طردها أكثر. فلا نتفاوض اذن معهما. ولنضم فكر اللذة المحرمة الى أكره الاشياء الى حية، الى خائن يريد ان يباغتتنا، ولنتذكر قول كتبنا المقدسة: (اهرب من الخطيئة هربك من الحية فأنها ان دنوت منها لدغتك)) (سيرا ٢:٢). اننا نهرب منها بالصلاة وبتوجيه روحنا الى اي موضوع آخر.

ب) بقوة، بلا تراخ ولا إكراه: الامر الذي يظهر كاستدعاء التجربة للعودة. بل فلنحارب بحماسة ونشاط معربين عن كرهنا الشديد لهذا الاقتراح: ((اذهب خلقي يا شيطان)) (مر ٨: ٣٣). لكن هناك وسائل مختلفة تجب ممارستها حسب نوع التجربة: فان موضوعها اللذات المغربة، علينا ان نتحول عنها ونهرب منها بحصر انتباهنا بقوة في موضوع غيره يستغرق فكرنا: فليس في المقاومة الصريحة غير زيادة الخطر. وان كان موضوع التجربة الكره من عمل الواجب، او الاشتمزاز او البغضة او من الحياء البشري، فالأفضل خصوصاً ان نجابه التجربة، وننظر في الصعوبة وجهاً لوجه، ونستعين بمبادئ الايمان كي نتصر عليها.

ج) بثبات. في الواقع ان التجربة المغلوبة، حيناً، تعاود أحياناً بعناد جديد، ويعود الشيطان من القفر بسبعة ارواح شر منه. فلمقاومة عناد العدو هذا يقضي الامر مناصبه لا تقل عنه صلابة: لان النصر لمن يجاهد الى النهاية. فينبغي اذ ذاك ان يطلع المجرب مرشده على التجربة كي يحقق انتصاره.

هذه هي نصيحة جميع القديسين وخصوصاً نصيحة القديسين اغناطيوس وفرنسيس سالس لان هذا الاخير يقول: ((لا حظوا ان اول شرط يشترط ذلك الروح الخبيث على النفس يريد ان يغويها، هو الصمت. كما يعمل الراغبون في إغواء النساء والبنات، اللواتي يمنعونهن في اول الامر ان يطلعن الآباء والازواج على العروض: او ان الله يطلب عكس ذلك في إلهاماته ان تكشف لرؤسائنا ومرشدينا كل ما عندنا)). يظهر في الواقع ان نعمه خصوصية تتعلق بفتح القلب هذا: ان التجربة المكشوفة هي نصف مغلوبة.

د) بالاتضاع: في الواقع ان الاتضاع هو الذي يجذب النعمة. والنعمة هي تنصرنا. فالشيطان الذي خطئ خطيئة الكبرياء ينهزم امام الاتضاع الصادق؛ والشهوة المثلثة التي تستمد قوتها من الكبرياء تغلب بسهولة، على قول بعضهم، حين نقطع بالاتضاع رأسها.

ثالثاً. بعد التجربة علينا ان نتحذر من البحث الدقيق عن هل رضينا ام لا: فهذه الغرارة قد تعيد التجربة وتجدد الخطر. فيسهل مع ذلك ان نرى بشهادة الضمير، وبدون فحص عميق، هل كنا في التجربة منتصرين؟

أ) إذا اسعدنا الحظ وانتصرنا، فلنشكر بقلب كبير من اولانا الظفر: ذلك واجب عرفان الجميل، وهذا أفضل وسيلة للحصول، في الوقت الموافق، على نعم جديدة. الويل لنا كاري الجميل الذين اذ ينسبون الغلبة لأنفسهم، لا يفكرون في شكر الله عنها! لن يبطن هؤلاء حتى يختبروا ضعفهم.

ب) وان بالعكس سقطوا لسوء حظهم، فلا يياسوا. وليتذكر الحفاوة في استقبال الابن الشاطر، ولينطلقوا نظيرة يرتمون عند قدمي ممثل الله بهذا الصراخ يتصعد من قلوبهم: ((يا ابت قد خطئت الى السماء وامامك وليست مستحقاً بعد ان ادعى لك ابناً)) (لو ١٥: ٢١). فالله الذي هو ايضاً أرحم من ابي الابن الشاطر يقبلهم قبلة السلام ويعيدهم الى صداقته.

لكن، على الخاطئ التائب كي يتجنب الرجوع الى الخطيئة، ان يستفيد من سقطته كي يتدلل عميقاً امام الله، ويعرف عجزه عن عمل الخير، ويضع ثقته كلها بالله، ويغدو أيقظ بتجنبه اسباب الخطيئة باهتمام، ويعود الى ممارسة التوبة. فالخطيئة التي يكفر عنها هذا التكفير لا تكون عائقاً حقيقياً عن الكمال، كما يلاحظ ذلك بكل صواب القديس أغسطينوس: ((ان الذين يرتدعون عن غيهم يصبحون افطن وأكثر تواضعاً وحرارة)).

## أهم تجارب المبتدئين

ان المبتدئين عرضة لكل نوع من نوع من التجارب الناشئة عن المصادر التي أشرنا اليها. لكن لهم مع ذلك تجاربهم الخاصة، وهي: الأوهام الناشئة عن التعزيات واليبوسات. التقلب. التسرع. الوسوس.

## اوهام المبتدئين في التعزيات

عادة يمنح الله الجواد بعض التعزيات الحسية للمبتدئين كي يجذبهم الى خدمته. ثم يمنعها عنهم بعض الوقت ليتمحن فضيلتهم ويثبتها. فيظن بعضهم انه بلغ درجة مرموقة في القداسة حين يحصل على تعزيات وافرة. فان اتفق ان تلاشت هذه التعزيات وأخلت المكان لليبوسات، فيتوهم هؤلاء المبتدئون انهم قد هلكوا. فيقضي الامر اذن ان نشرح التعليم الحقيقي في التعزيات واليبوسات، كي نتلاقى الادعاء واليأس معاً.

## التعزيات

أولاً. طبيعتها ومنشؤها. أ) التعزيات الحسية شعور عذب يؤثر في الحس، ويذيق سروراً روحياً محسوساً. عندئذ ينشرح القلب ويحقق بحمية أكثر، ويسري الدم بسرعة اشد ويشرق الوجه، ويتأثر الصوت، واحياناً يبدو هذا الفرح بالدموع.

ب) تتميز التعزيات الحسية عن التعزيات الروحية الممنوحة للنفوس الآخذة في النمو. هذه التعزيات هي من درجة أسمى تعمل في العقل فتثيره، وفي الارادة فتجذبها الى الصلاة والفضيلة. وبالتالي هناك امتزاج لكتا التعزيتين. ويمكن تطبيق ما سنتكلم عنه على كليهما. يمكن ان تنشأ هذه التعزيات عن أصل ذي ثلاث شعب.

١) عن الله الذي يعاملنا معاملة الام لولدها، فيجذبنا اليه بما تجد من العذوبة في خدمته، لكي يسهل عليه فصلنا عن ملذات العالم الكاذبة.

٢) عن الشيطان الذي اذ يعمل في الجهاز العصبي والمخيلة والحس، ينشئ بعض التأثيرات حسية، يستخدمها فيما بعد ليحملنا بها على إماتات غير رصينة، وعلى الزهو والعجب المتبوع باليأس سريعاً.

٣) عن الطبيعة نفسها: امزجة سريعة التخيل والتأثر متفائلة، فحين تعكف على العبادة، تجد ما يغدو الحس في ما تعكف عليه من ضروب العبادة.

ثانياً. فوائدها. حقاً ان للتعزيات فائدتها.

أ) انها تسهل معرفة الله: فالمخيلة التي تساعدنا النعمة، تود ان تتصور الصفات الالهية المحبوبة، فيميل القلب الى تذوقها. عندئذ نسر بالصلاة وبالتأمل الطويل، وتحسن النفس فهم جودة الله.

ب) ان التعزيات تساعد على تقوية الارادة: فاذا لا تجد الارادة في القوى الدنيا شيئاً من العوائق، بل بالعكس تجد مساعدين اعزاء، تنفصل عن المخلوقات بسهولة أكثر، وتحب الله بحرارة اشد، وتقصد مقاصد نافذة تتممها بأهون طريقة بقوة المعونات التي تنالها بالصلاة. واذا تحب الله بشكل حسي، تحتمل بشجاعة صغار التضحيات اليومية، وتلزم ذاتها ايضاً ببعض اماتات طوعية.

ت) تساعدنا التعزيات على اعتياد التأمل والصلاة، والطاعة ومحبة الله، وتستمر على قياس ما بعد احتجاب التعزيات.

ثالثاً. مخاطرها. مع ذلك فللتعزيات اخطارها ايضاً.

أ) انها تثير نوعاً من الشراهة الروحية يعلقنا بتعزيات الله أكثر من إله التعزيات، حتى اننا، حين تزول هذه التعزيات، نهمل رياضاتنا الروحية وواجبات حالتنا. وحين نتمتع بالتعزيات يبعد ايضاً ان تكون عبادتنا وطيدة: اننا وان ذرفنا الدموع على آلام المخلص، نرفض عليه التضحية بتلك الصداقة الحسية، او بذلك الحرمان! والحال، ليس من فضيلة راسخة إلا حين تبلغ محبة الله التضحية ايضاً ((راجع صفحة ١٢٥ من الجزء الاول)) (هناك نفوس كثيرة حاصلة على النعمات والتعزيات، وتبقى مع ذلك شديدة الفساد، وبالتالي خالية من المحبة الحقيقية لله، وبالأكثر خالية من العبادة الحقيقية)) (فرنسيس سالس) حياة التقوى.

ب) انها غالباً تعزز الكبرياء بمظاهر مختلفة:

١) السرور الباطل بالذات: حين نكون حاصلين على التعزية والصلاة متيسرة، نعد ذواتنا بسهولة قديسين، على اننا لا نزال بعد مبتدئين في الكمال!

٢) الزهو: نرغب ان نحدث سوانا عن تعزياتنا لكي نباهي بها. ونغلب ان نكون اذ ذاك فاقدى التعزية زمناً طويلاً.

٣) العجب: نعد ذواتنا اقوياء لا نغلب، ونتعرض أحياناً للخطر، او على الاقل نخلد الى الاستراحة حين يجب ان نضاعف الجهود وننمو.

رابعاً. موقفنا تجاه التعزيات. لكي نحسن الاستفادة من التعزيات الالهية، ونبجو من الاخطار التي أشرنا اليها، دونك القواعد الواجب اتباعها.

أ) نقدر ولا شك ان نتوق الى هذه التعزيات بأسلوب شرطي، مع العزم ان نستخدمها لمحبة الله وتتميم ارادته المقدسة. هكذا جعلنا الكنيسة نطلب يوم العنصرة في الصلاة: ((يا يسوع امنح عبديك تعزية سريعة وثابتة الخ...)). وفي صلاة أخرى نعمة التعزية الروحية: ((فلننعم دائماً بتعزيه)) وفي الواقع انها موهبة الهية غايتها مساعدتنا على تقديسنا. فعلينا ان نقدرها كثيراً، وفي استطاعتنا ان نطلبها، شريطة ان نطيع الارادة الالهية.

ب) حين يمنحنا الله هذه التعزيزات فلنقبلها بشكر واتضاع، مقرين بعدم استحقاقنا وناسيين كل الاستحقاق لله. فاذا سر ان يعاملنا كأبناء الدلال، فليكن مباركاً، لكن فلنقر باننا لا نزال ايضاً غير كاملين، بحيث يعوزنا لبن الاطفال: ((قد غذوتكم باللبن لا بالطعام)) (١ كو ٣: ٢)؛ ولا نفتخر بذلك: فالافتخار اقوى واسطة لفقدانها.

ت) واذا نتقبلها باتضاع فلنمارسها باعتناء حسب ارادة من اعطاناها. وقد منحناها الله كما يقول القديس فرنسيس: (لكي تكون حلماة نحو كل انسان ومحيين لله. ان الأم تعطي لابنها كي يقبلها. اذن فلنقبل نحن هذا المخلص الذي يعطينا كثيراً من الحلويات. والحال ان تقبيل المخلص هو معانقته بحنو وخضوع واتضاع)).

ث) فلنعتقد اخيراً ان هذه التعزيزات لا تدوم، ويجب ان نلتمس باتضاع النعمة من الله في زمن اليبوسة حين يتفضل ويرسلها الينا. وفي اثناء ذلك علينا ألا نرغب في إطالة زمن التعزيزات بإجهد الفكر، بل يجب ان نلطفها ونلازم، إله التعزيزات

## اليبوسات

كي يثبتنا الله في الفضيلة يبعث الينا اليبوسات بين حين وآخر. فلنن: طبيعتها. غاية العناية الالهية منها. كيفية التصرف معها.

اولاً. طبيعتها. ان اليبوسات هي فقدان التعزيزات الحسية والروحية التي كانت تسهل الصلاة وممارسة الفضائل. بالرغم عن جهودنا المتجددة غالباً ترانا لا نتذوق الصلاة، ونشعر فيها بملل وتعب، ونستطيل الوقت كثيراً. ويتنين لنا الايمان والرجاء. غافيين. وتعيش النفس في شكل من الفتور، بدل النشاط والفرح: لا يعمل الا بإجهد الارادة. انها في الحقيقة حالة شاقة جداً. غير لها فوائدها ايضاً. ثانياً. غاية العناية الالهية من اليبوسات.

أ) عندما يبعث الله اليبوسات الينا، يقصد بذلك ان يفصلنا عما هو مخلوق، حتى عما نجده من السعادة في التقوى، لكي نتعلم ان نتعلم ان نحب الله وحده ولأجل ذاته فقط.

ب) يريد ايضاً ان يوضّعنا اذ يرينا ان يرينا ان التعزيزات غير واجبة، بل هي تعمم مجانية من جوهرها.

ت) انه بذلك ايضاً يطهرنا أكثر، إما من خطايا وإما من علاقاتنا الحاضرة، وإما من كل محاولة انانية: حين ينبغي ان نخدم الله بدون رغبة وعن اعتقاد واردة، نتألم كثيراً وهذا التألم هو تكفير وتعويض.

ث) اخيراً يثبتنا في الفضيلة: لان المواظبة على الصلاة وعمل الخير، يقتضي لها استعمال الارادة بشجاعة وثبات، فبهذه الممارسة تثبت الفضيلة.

ثالثاً. السلوك الواجب اتخاذه.

أ) بما ان اليبوسات تنشأ أحياناً من خطايانا، فعلينا اولاً ان نفحص كل شيء فحصاً دقيقاً دون اضطراب زائد، إذا كنا غير مسؤولين عنها.

١) بسبب حركات نقبلها على نحو ما، تنم عن رضى بالنفس فارغ وعن كبرياء.

٢) بسبب نوع من الكسل الروحي، او بالعكس بسبب جهود شديدة في غير اوانها.

٣) بسبب تعزيات بشرية وصدقات جد محسوسة، وملذات دنيوية، فالله لا يريد قلباً مقتسماً.

٤) بسبب نقص الاستقامة مع الاعتقاد مع المرشد، لان القديس فرنسيس سالس يقول: ((بما أنك تكذب على الروح القدس، ليس من العجب ان يحجب الروح القدس تعزياته عنك)). متى عرفنا سبب هذه اليبوسات نتذلل ونجتهد في نزعها.

ب) فان لم نكن سبباً لهذه اليبوسات، فيجب ان نستفيد من هذه المحنة.

١) ان الوسطة الكبرى للنجاح هي الاعتقاد ان خدمة الله بدون رغبة وبغير شعور، هي أكثر استحقاقاً من خدمته مع تعزيات كثيرة. فلكي نحب الله يكفي اننا نريد ان نحبه، وعدا ذلك، ان اتم اعمال المحبة هو ان تطابق ارادتنا ارادة الله.

٢) لكي نجعل ايضاً لهذا الفعل استحقاقاً أكثر، فليس أفضل من ان نتحد بيسوع، الذي ارتضى ان يكتب في بستان الزيتون ويحزن حباً لنا، ولا أحسن من تكرار ما قاله: ((لا تكن مشيئتي)) (لو ٢٢:٤٢). ولا سيما ينبغي ألا نياس ولا نبطل شيئاً من رياضتنا وجهودنا ومقاصدنا. بل نقتدي بسيدنا يسوع الذي اذ غرق في النزاع كان يطيل في صلاته: ((ولما اخذ في النزاع أطال في الصلاة)) (لو ٢٢:٤٣).

## تقلب المبتدئين

اولاً. الشر. عندما تقدّم احدى النفوس ذاتها لله، وتأخذ تنمو في الطرائق الروحية، تعضدها الله وجاذب، ووثبة اكيدة الى الفضيلة التي تذلل صعوبات كثيرة. لكن يأتي الوقت اذ يعطينا الله نعمته بشكل اقل حساً، واذ نشعر بسامة من تكرار الجهود نفسها، واذ تخمد رغبتنا من توالي الصعوبات ذاتها. حينئذ نتعرض للتقلب والتراخي.

يظهر هذا الاستعداد:

(١) في ممارستنا الروحية التي نعملها بقليل من الاجتهاد، ثم نختصرها او نهملها.

(٢) في ممارسة الفضائل: وقد دخلنا بقلب كبير في طريق التوبة والامامة، غير اننا نجده شاقاً ومملأً فنخفف جهودنا.

(٣) في تقديس اعمالنا الاعتيادية: وقد كان من عادتنا ان نجدد تقدمتها، كي نتأكد اننا نعملها بخلوص نية. فنتعبن هذه الممارسة، فنهملها، وتكون النتيجة اننا نمارسها على سبيل العادة، فيندس فيما بعد روح الفضول والزهو، وحب اللذات الجسدية في كثير من اعمالنا. ان التقدم مستحيل في مثل هذا الاستعدادات: لأننا لا نبلغ أية بغير الجهد المتواصل.

ثانياً. العلاج. ينبغي الاعتقاد ان عمل الكمال يطلب ثباتاً متيناً، وان الذين يعكفون على العمل بمداومة وحمية متجددة وحدهم هم الناجحون، بالرغم مما يلاقون من نادر الاخفاء. هذا ما يفعله رجال العمل متى ارادوا النجاح. وهذا ما يجب ان تصنعه كل نفس ترغب في النجاح. تسأل في كل صباح ذاتها، هل في وسعها ان تعمل أكثر، ولا سيما أفضل قليلاً لأجل الله. وفي كل مساء تفحص بدقة هل حققت جزءاً من عهدتها الصباحي.

لا شيء يؤكّد الثبات أكثر من الامامة في ممارسة فحص الضمير الخاص (راجع صفحة ١٨٤ من الكتاب الاول). فبتوجيه انتباها الى نقطة واحدة وفضيلة واحدة وباطلاع مرشدنا على ما أحرزنا من النمو، يتأكد لنا نمونا ولو ندر بذلك.

ان ما قلنا سابقاً عن تهذيب الارادة، هو ايضاً واسطة كبرى للتغلب على التقلب.

## تسرع المبتدئين المفرط

يتحمس الكثيرون من المبتدئين ذوي الارادة الصالحة، ويتسرعون تسرعاً مفرطاً في طلبهم الكمال، فيؤول بهم الامر الى الكلال والضحى بجهود باطلة.

اولاً. اسباب التسرع.

أ) ان السبب الرئيسي لهذه النقيصة هو اننا نضع قوتنا للعمل موضع قوة الله: فبذل التفكير قبل العمل، وبدل التماس انوار الروح القدس والاذعان لها، نندفع الى العمل بحرارة محمومة. وبذل استنارة مرشدها نعمل رأساً، ونضعه بعدئذ تجاه الامر الواقع. فينتج من ذلك حماقات كثيرة وجهود ضائعة: ((خطوات واسعة خارج الطريق)).

ب) كذلك نخلط غالباً قوتنا بالادعاء: نرغب ألا نقف في مراحل الحياة الروحية، وان نخرج سريعاً من رياضات التوبة، وان نبلغ حالاً مرحلة الاتحاد بالله. لكن يا للأسف! تنتصب في وجهنا صعوبات مفاجئة، فنيأس وندكس الى الوراء، ونسقط أحياناً في خطايا فظيعة.

ت) واحياناً اخرى يسيطر علينا الفضول: نلتمس دائماً وسائل جديدة تبلغنا الكمال فنختبرها بعض الوقت، ثم نتركها حتى قبل ان نقوى على استخراج نتائجها. نقصد دائماً مقاصد جديدة لإصلاح ذاتنا واصلاح الغير وننسى ان ننفذها.

ان اوضح نتيجة لهذا التسرع المفرط هي فقدان الخلوة الداخلية، هي الاضطراب والبلبال بدون أية نتيجة ذات قيمة.

ثالثاً. العلاجات.

أ) ان العلاج الأهم هو الامتثال بطاعة تامة لعمل الله، والتفكير الناضج قبل العمل، والصلاة للحصول على النور الالهي، واستشارة المرشد، التقيد بحكمه. فكما انه في النظام الطبيعي، ليست القوى المحمومة الهائجة هي التي تصيب أفضل النتائج، بل القوى الحسنة التنظيم، هكذا في الحياة الفائقة الطبيعية ليست الجهود المحمومة هي التي تجعلنا ننمو بل الجهود الهادئة الحسنة التنظيم: من سار بتأن سار بأمان.

ب) غير انه يجب ان نحارب اسباب التسرع، كي نمثل عمل الله كما شرحنا:

(١) حدة الخلق التي تدفعنا الى الاحكام السريعة.

(٢) الادعاء الذي ينشأ عن تقدير الذات تقديراً كبيراً.

(٣) الفضول الذي يبحث دائماً عن اشياء جديدة. علينا اذن ان نصارع دائماً وعلى التوالي هذه النقائص في فحص الضمير الخاص، عندئذ يستقر الله في نفسنا ويقودها بهدوء وعدوبة في سبيل الكمال.

## الوسواس

ان الوسواس مرض طبيعي يحدث في الضمير نوعاً من الاحتلال، فيجعله لأسباب تافهة يخاف من اهانة الله. وهذا المرض لا يختص بالمبتدئين، بل نجده فيهم ايضاً كما نجدة في نفوس أكثر تقدماً. فعلياً اذن ان نقول كلمة عنه ونبين: طبيعته موضوعه. مضاره وفوائده. علاجاته.

## طبيعة الوسواس

ان كلمة الوسواس في اللاهوت الادبي تدل على سبب دقيق تعلق له الضمائر الحساسة وحدها. من هنا يتأتى ايضاح ما تشعر به بعض الضمائر من الاضطراب المفرط، اهانت الله بأثفه الاسباب. فلنبيين منشأه ودرجاته ومميزاته عن الضمير الرقيق لكي نحسن معرفة طبيعته.

اولاً. منشأه. ينشأ الوسواس تارة عن سبب طبيعي مخص، وتارة عن سبب فائق الطبيعة.

أ) فالوسواس من الوجهة الطبيعة هو في الغالب مرض طبيعي وادبي.

(١) فالمرض الطبيعي الذي يؤدي الى حدوث هذا التشويش، هو شكل من الانحطاط العصبي، ويجعل تقدير الامور الادبية أكثر صعوبة. ويفضي الى خلق فكر ملازم: اننا قد ارتكبنا خطيئة حيث لا داع حقيقي.

(٢) لكن هناك ايضاً اسباب ادبية تؤدي الى النتيجة نفسها: هناك عقل يبالغ في التدقيق، يرتبك في أصغر التفاصيل، ويرغب التأكد المطلق في كل شيء. او عقل مستنير بكفاية يتمثل الله لا كقاض ظالم فحسب، بل عديم الشفقة. وفي الافعال البشرية يخلط الشعور بالرضى، ويخيل اليه انه قد

أخطأ بحيث ان المخيلة قد تأثرت شديداً ووقتاً طويلاً. هناك عقل عنيد يفضل حكمه الخاص على حكم المعرف، وذلك لأنه يسلم قياده الى شعوره أكثر منع الى عقله.

متى اجتمع هذان السببان الطبيعي والادبي معاً، تمكن الداء العضال وتعسر شفاؤه.

(ب) قد ينشأ الوسواس ايضاً عن طارئ فائق الطبيعة، عن الله او عن الشيطان.

(١) يسمح الله بإعاناتنا هكذا كي يعاقبنا، ولا سيما كي يعاقب كبرياءنا وحركات سرورنا الباطل تارة. وتارة ليمتحننا فنكفر عن الخطايا الماضية، ويفصلنا عن التعزيات الروحية، ويقودنا الى أسوأ درجات القداسة. هذا ما يحصل خصوصاً للنفوس التي يريد الله ان يعدها للمشاهد الطوباوية.

(٢) واحياناً يأتي الشيطان ايضاً ويدس عمله في استعداد جهازنا العصبي السقيم، كي يلقي الاضطراب في نفسنا: يؤكد لنا اننا في حال الخطيئة المميتة كي يصدنا عن تناول، او ليضايقنا في تميم واجبات حالتنا. ويسعى خصوصاً ان يخدعنا في جسامه هذا العمل او ذاك، حتى يجعلنا نخطأ صريحاً، ولو لم يكن هناك مادة للخطيئة، ولا سيما الخطيئة الثقيلة.

ثانياً. من الواضح ان للوسواس درجات كثيرة:

(أ) ليس هو في البداية سوى ضمير مبالغ في التدقيق، شديد الخوف، يرى الخطيئة

حيث لا خطيئة.

(ب) وهناك وساوس عابرة نخضعها للمرشد، لكن بقبولنا مباشرة الحلة التي يمنحها.

(ت) اخيراً الوسواس المعنى، وهو تصلب يرافقه العناد.

ثالثاً. الفرق بين الضميرين الموسوس والرقيق. يقتضي الامر ان نحسن التمييز بين الضمير الموسوس والضمير الرقيق او الورع.

(أ) ليس منشأها واحداً: فالضمير الرقيق يحب الله بحرارة، ويجانب اقل الهفوات والنقائص الاختيارية لكي يرضيه تعالى اسمه. اما الضمير الموسوس فيقوده شكل من الأثرة، يحمله على الرغبة بحرارة شديدة جداً في ان يكون حائزاً حالة النعمة.

ب) واذا يكره الضمير الرقيق الخطيئة ويعرف ضعفه، يخاف خوفاً حقيقياً لا مشوشاً من ان يغيظ الله. اما الموسوس فتعتريه مخاوف تافهة من ان يخطأ في كل سانحة.

ت) الضمير الورع يبقى مميزاً الخطيئة المميتة عن العرضية، وفي حالة الشك يخضع حالاً لحكم مرشده. اما الموسوس فيجادل مرشده بعنف ولا يخضع لأحكامه الا بصعوبة.

## موضوع الوسواس

فاذا اقتضى الامر مجانية الوسواس، فالضمير الرقيق الحساس هو أئمن معوان يساعدنا على تجنبه.

اولاً. يكون الوسواس احياناً عاماً يشمل كل المواضيع. قبل العمل، يجسّم كثيراً ما قد يحدث في هذا الوقت او ذاك، مع انه لا شر فيه. وبعد العمل، يملأ النفس بلبالاً وهمياً، ويؤكد للضمير انه أجرم جرماً كبيراً

ثانياً. في اغلب الاحيان يكون موضوع الوسواس بعض مواضيع خصوصية.

أ) كالاترافات الماضية: حتى انه بعد اعتراف الموسوس اعترافات عامة مرات كثيرة لا يقتنع بها، فيخشى الا يكون قد شكنا نفسه بها كلها، او قصر في الندامة عنها، فيريد ان يعيدها دائماً.

ب) كالأفكار الرديئة ايضاً: فبما ان المخيلة مشحونة بالصور الخطرة او البذيئة، وبما ان هذه الصور تنشئ بعض الشعور، فيخاف الموسوس من ان يكون قد رضي بها، حتى انه يؤكد ذلك ايضاً، مع انها تغمه كثيراً.

ت) كأفكار التجديف: لان هذه تمر في العقل، فيؤكد انه قبلها بالرغم من كل ما يشعر به من الكراهية.

ث) وكأفكار المحبة: قد سمع نائم دون ان يحتج ببسالة، و فقصر في واجب الاصلاح الاخوي عن حياء بشري، وشكك القريب بكلام يضاد الفطنة، وشاهد غوغاء ولم يذهب ليرى، هل عرض هناك حادث لأحد يحتاج الى كاهن يمنحه الحلة، فيرى في كل ذلك خطايا كبيرة مميتة.

ج) كالأشكال المقدسة التي يخشى ان يكون قد لمسها دون حق، فيريد ان يديه ان يطهر يديه وثيابه.

ح) ككلام التقديس وتلاوة الفرض الالهي التامة.

## مضار الوسواس وفوائده

اولاً. ان ساء حظنا وجعلنا الوسواس تسيطر علينا، فتسبب لنا مفاعيل محزنة في جسمنا ونفسنا:

(ا) تجعل في جهازنا العصبي انحطاطاً وشكلاً من الاختلال وعدم التوازن: فالمخاوف والغصص المتتابعة تهزل الجسم. وقد تصير فكرة مسيطرة، تنقلب الى ملازمة على نحو ما قريبة من الجنون.

(ب) انها نعمي العقل وتفسد الحكم: تفقد قليلاً قوة التمييز بين ما هو خطيئة وما ليس خطيئة، وبين ما هو خطيئة ثقيلة وما هو خطيئة خفيفة فتسمي النفس سفينة بدون سكان دفة.

(ت) تكون العاقبة في الغالب عدم تعبد القلب لكثرة ما يخبط الوسواس في الاضطراب والبلبال. فيمسي انانياً هائلاً، فيتحذر من البشر اجمع ومن الله نفسه الذي يحسبه شديد القساوة. ويتظلم من انه يهمله في هذه الحالة السيئة، فيعنفه بغير حق. فيتضح ان العبادة تعود عندئذ مستحيلة.

(ث) اخيراً يقبل الضعف وتردد السقطات.

(ا) متي توسوس أحد يلاشي قواه بجهود غير نافعة؛ وبسفساف لا طائل تحتها، ولا تبقى له القوى الكافية للمصارعة في نقاط عظيمة الشأن، ويفقد السيطرة على انتباهه التام طويلاً. فينشأ عن ذلك مفاجآت واعجاز، واحياناً خطايا ثقيلة. مع هذا انه يلتمس طبيعياً راحة من اشقائه، وبما انه لا يجدها في العبادة، يروح يبحث عنها في موضع آخر، في مطالعات وعلاقات خطيرة: تكون نهزة لخطايا تدمي الفؤاد وتنزج في قنوط عميق.

ثالثاً. لكن إذا قبل الوسواس وساوسه كامتحان، وأصلح نفسه منها قليلاً فقليلاً بمساعدة مرشد حكيم فانه يحصل منها بعكس ذلك فوائد ذات قيمة.

(أ) تصلح لتطهير النفس: في الواقع اذ يجتهد الوسواس في ان يجانب أخف الخطايا والنقائص الطوعية. وهكذا يحصل على طهارة قلب عظيمة.

(ب) تساعدنا الوسواس على ممارسة الاتضاع والطاعة، اذ تلزمننا بان نخضع كل شك يعرض لنا مرشدنا بكل بساطة، ونتبع اراءه بطاعة تامة لا لإرادته فحسب بل لحكمه.

ت) تساعدنا بمنحها ايانا خلوص نية عظمى، اذ تنزع منا التعزيزات الروحية، كي تتعلق بالله وحده الذي نزداد حباً له بقدر ما يمتحننا.

## علاجات الوسواس

يجب ان نحارب الوسواس منذ البداية قبل يتأصل في النفس. ان أنجع علاج هو الطاعة التامة لمرشد حكيم: متى أظلم نور الضمير وجب الالتجاء الى نور آخر. فالموسوس هو سفينة بدون دفة وبغير ابرة مغنطيس يجب ان يسير بالجر فعلى المرشد اذن ان يكتسب ثقة الموسوس ويعرف ان يسيطر عليه ليشفيه.

اولاً. عليه قبل كل شيء ان يكتسب ثقته: لان المرء يطيع بسهولة من يثق به. لا شك ان الموسوسين يشعرون بافتقادهم الى قائد. لكن بعضهم لا يجسرون ان يستسلموا اليه تماماً: يريدون ان يستشيروه، لكنهم يريدون ايضاً أن يجادلوه في الاسباب. فمن الواجب الا يجادل الموسوس، بل ينبغي ان يخاطب بسلطان وبكلام صريح يعين ما يجب ان يعمل.

فعلى المرشد، كي يرغب في هذه الثقة، ان يستحقها بجدارته وتفانيه.

أ) فليدع التائب يتكلم اولاً، والمرشد يعترض ببعض ملاحظات فقط، كي يبين انه فهم حسناً. وبعدئذ يسأل المرشد بعض اسئلة. ليس على الموسوس ان يجيب عليها الا بكلمة: نعم او لا، وهكذا ينظم المرشد للتائب فحص ضميره. ثم يضيف: قد فهمت حالتك، أنك تتألم من هذا الاسلوب او ذاك. \_ هذه تعزية عظمى للتائب، وهي انه رأى المرشد قد فهم حالته حسناً، واحياناً يكتفي التائب. بهذا كي يضع في المرشد ثقته التامة.

ب) على المرشد ان يقرن التفاني بالحداقة. اذن فليظهر صبوراً، ويصغي بدون غيظ ولا قلق الى ايضاحات الموسوس الطويلة، اقله في بداءتها. وان يبدي جودته على هذه النفس وعنايته بها، ورغبته

وامله في شفائها. وحلمه ايضاً فلا يكلمه بلهجة قاسية وجافية، بل بجودة، حتى حين يضطر الى استعمال الامر والنهي. لا شيء اكسب للثقة من مزج الحزم بالجودة.

ثانياً. متى فاز المرشد بالثقة عليها ان يمارس سلطته، ويطلب الموسوس بالطاعة بقوله: ((ان اردت ان تشفى عليك ان تطيع طاعة عمياء: فبالطاعة انت في امان ولو انخدع مرشدك، لان الله لا يطلب منك الا امراً واحداً، وهو ان تطيع. والطاعة واجبة، حتى إذا اعتقدت أنك لا تقدر ان تطيعني، فما عليك الا ان تبحث عن مرشد غيري: ((فالطاعة العمياء وحدها تشفيك بل تشفيك حقيقية)).

ا) على المعرف حين يأمر ان يتكلم صريحاً وبوضوح ودقة، متجنباً كل التباس. وبأسلوب جازم، لا بصيغة شرطية كأن يقول كأن يقول: ان ازعجك هذا الامر فلا تفعله. بل بأسلوب قاطع: اعمل هذا، تجنب ذلك، ازدر تلك التجربة.

ب) على المرشد ألا يرهن احكامه للموسوس وليتخاشى الجدل معه في كنه ما يأمره به. ويحافظ على تنفيذ ما يقرره. وليفكر قبل ان يقول، ولا ينقض أمراً فرضه إذا لم يظهر عنصر جديد يقتضي التغيير.

ت) ويطلب من الموسوس ان يعيد ما أمر به، كي يتحقق هل فهم الأمر حسناً. ثم يصرح له بقوله: ستؤدي حساباً عن ذلك. وليفعل ذلك دون تضجر.

ثالثاً. وفي الوقت المناسب يفهم المرشد الموسوس هكذا: انا من جهتي لا أحب إلا ما هو واضح وناف كل شك، كأثنين يساويان اربعة، ولا أبالي بالاحتمالية مهما كانت قوية. وإذا تقدم الموسوس مثبتاً انه ارتكب خطيئة مميتة او عرضية فليقل له المعرف: أستطيع ان تثبت وتقسم اليمين، أنك كنت ترى صريحاً قبل العمل انه خطيئة، وأنتك اذ رأيته بوضوح قد ارتضيت به رضواناً كاملاً؟

رابعاً. في ما يتعلق بالاعترافات العامة، علي المعرف بعد السماح بممارسة اعتراف عام، ان لا يسمح بالعود اليه إلا عند وضوح هاتين النقطتين:

١) خطيئة مميتة محقق ارتكابها.

٢) تأكد المعترف انه لم يشك نفسه بها في اعتراف صحيح. والا فليأمر المعرف الموسوس بألا يعود الى الماضي البتة قائلاً: أنك ان سهوت عن الاقرار ببعض الخطايا فتكون قد غفرت مع غيرها.

أمّا ما يتعلق بالخطايا الداخلية كالأفكار والشهوات: ففي وقت التجربة حول انتباهك الى التفكير بغير أمور. وبعد التجربة لا تبحث هل خطئت، (فهذا يجدد التجربة) بل تابع السير ويفرغ لواجبك، وتناول القربان المقدس إذا لم تتضح لك الحقيقية أنك رضيت بها رضى كاملاً.

أما الاعترافات فلا يلتزم الموسوس ان يشكو نفسه إلا بالخطايا المميّنة.

أما العرضية فلا يلتزم ان يذكر منها إلا ما يمر بذهنه، بعد مضي خمس دقائق في فحص الضمير. أما الندامة فليس من ضرورة للشعور بها اذ انها فعل ارادة لا يقع تحت الحس. فعلى التائب ان يخصص سبع دقائق لالتماسها من الله وحث نفسه عليها فينالها. متى كان الوسواس شديداً، فليؤمر التائب بان يكتفي بهذه الشكوى الجنسية: أني اشكو نفسي بكل الخطايا التي ارتكبتها منذ اعترافي الاخير، وبكل خطايا حياتي.

خامساً. يقول التائب للمعرف: أنك تعاملني كموسوس ... والحال أني لست كذلك. فنجيبه: ليس لك ان تحكم انت بذلك، بل الحكم لي انا. هل انت على يقين أنك لست موسوساً؟ هل انت كجميع البشر هادئ مطمئن البال بعد اعترافك؟ أما عندك من الشكوك والغموم ما لا إثر له عند أغلب البشر؟ اذن لست في حالة نفسية صحيحة. فيعوزك علاج خصوصي أطع اذن دون جدال فتشفى. وإلا تزد حالتك سوءاً بهذه الوسائل وامثالها نبلغ بنعمة الله الى الشفاء من هذا الداء المحزن.

## في تمييز الارواح

تكلمنا في الصفحات السابقة مرات كثيرة عن الحركات المختلفة، التي تحملنا على الخير او على الشر. فيهمنا صريحاً ان نعرف مصدر هذه الحركات. انها تأتي نظراً عن ستة مصادر مختلفة:

أوب) منا أنفسنا، من الروح الذي يستحثنا على الخير، من الجسد الذي يحضنا على الشر. ت) من العالم الذي يؤثر بواسطة حواسنا على قوانا الداخلية كي يدفعها الى الشر (راجع صفحة ٨٢ من الجزء الاول، مصارعة العالم).

ث) من الملائكة الاخبار الذين يلهموننا افكاراً صالحة.

ج) من الشياطين الذين يعملون، بعكس ذلك، في حواسنا الخارجية والداخلية ليدفعوا الى الشر.

ح) من الله الذي يستطيع وحده ان يلج حتى أعمق صميم النفس، ولا يحملنا البتة الا على الخير.

فالقواعد التي تسهل ان نميز الارواح، قد وضع القديس بولس اساساتها بتمييزه في الانسان الجسد و الروح ، و خارجاً عن الانسان روح الله الذي يحملنا على الخير ، و الملائكة الاشرار الذين يحركوننا على الشر.

ومنذئذ قد سن المؤلفون الروحيون قواعد لتمييز الحركات المضادة للطبيعة وللنعمة. نظير كاسيانوس والقديس برنردوس وتوما ومؤلف الاقتداء بالمسيح (ك ٣ ف ٤٥ و ٥٥) والقديس اغناطيوس.

### قواعد القديس اغناطيوس التي توافق المبتدئين خصوصاً

القاعدة الاولى. بعرض الشيطان للخطاة الذين لا يضبطون اهواءهم ملذات وتنعمات مبهرجة، لكي يمسكهم ويورطهم في الرذيلة. أما الروح الصالح فيثير بعكس ذلك في ضميرهم اضطراباً ونخساً كي يخرجهم من حالتهم السيئة.

القاعدة الثانية. أما الراجعون الى الله رجعة صادقة، فيثير الشيطان فيهم الاحزان وعذاب الضمير، وكل انواع الصعوبات لكي يطرحهم في اليأس ويوقف نموهم. أما الروح الصالح فيولهم على العكس الشجاعة والقوة والالهامات الصالحة، لكي يقدمهم في الفضيلة. نحكم اذن على الشجرة من ثمارها: كل ما يوقف النمو يتأتى من الشيطان، وكل ما يسهله يأتي من الله.

القاعدة الثالثة. تختص بالتعزيات الروحية وتأتي من الروح الصالح:

١) حين تنشئ فينا حركات الحرارة الداخلية: شرارة اولاً تم لهيباً واخيراً جمرًا بالحب الالهي.

٢) حين تهطل الدموع دلالة صادقة على الندامة الداخلية، او على محبة ربنا يسوع.

٣) عندما تضاعف الايمان والرجاء والمحبة، او تعيد السلام والسكينة للنفس.

القواعد التالية (من ٤ الى ٩) تتعلق بالأحزان الروحية:

١) الاحزان ظلمات في النفس، او اميال الارادة الى الامور الدنيئة والارضية، التي تجعل النفس حزينة فاترة كسلة.

٢) علينا اذن ألا نبذل المقاصد الصالحة التي اتخذناها سابقاً، كما يوسوس الروح الخبيث، بل نبقي ثابتين في مقاصدنا السابقة.

٣) علينا ايضاً ان نستفيد منها لكي نزداد حرارة، ونفسح للصلاة وفحص الضمير وقتاً أطول.

٤) علينا ان نثق بالعون الالهي الذي، ولو لم نشعر به، يهبنا الله حقيقة ليساعد قوانا الطبيعية على عمل الخير.

٥) علينا ان نكون صبورين ونرجو ان تعود التعزية. ونفكر ان الحزن قد يكون إما قصاصاً لفتورنا، وإما تجربة يريد الله بها ان يجعلنا نلتمس بأصبعنا ما نقدر ان نفعله حين يمنع عنا التعزيات، او درساً يريد الله ان يرينا به اننا به اننا عاجزون عن الحصول على التعزيات. وهكذا يشفينا من كبريائنا. القاعدة الحادية عشر تعود الى التعزيات لتنبهنا الى انه يجب ان نتهياً، ونتشجع كي نتصرف حسناً وقت الحزن. وان نتضع اذ نرى القليل الذي نقوى عليه عندما نعدم التعزيات الحسية، وبالعكس اننا نستطيع كثيراً وقت الحزن إذا اعتصمنا بالله. ان القواعد الثلاث الاخيرة (١٢ الى ١٤) تكشف ما يأتي به الشيطان من الحيل ليخدعنا:

١) فالشيطان كامراًة شريدة، ضعيفة حين يقاومها أحد، لكنها شديدة المراس قاسية القلب حين يدعن لها. علينا اذن ان نقاوم الشيطان بشدة.

٢) انه يتصرف كطاغوت مغوٍ؛ يلتمس حفظ السر ممن يحثه على الشر. فأفضل وسيلة للانتصار اذن هي إطلاع المرشد على كل أمر.

٣) يقتدي اخيراً بالقائد الذي يرغب الاستيلاء على معقل، فانه يهاجمه في أضعف جناح. فيقتضي اذن السهر على هذه النقطة الضعيفة في فحص الضمير.

## خلاصة

ان الهدف الذي يتوخاه المبتدئون هو تطهير نفوسهم، حتى إذا تخلصوا من بقايا خطاياهم يستطيعون ان يتحدوا بالله.

فلتحقيق هذا الهدف يلجئون الى الصلاة. وبتأديتهم العبادة لله يستجرحونه الى مغفرة خطاياهم السالفة كلها. وبابتهالهم اليه بثقة مع اتحادهم بالكلمة المتجسد، ينالون نعم الندامة والندامة والمقاصد الصالحة، التي تطهر نفوسهم أكثر فأكثر وتقيهم السقطات في المستقبل. وبشكل أثبت ايضاً تحصل هذه النتيجة بالتأمل: فالاعتقاد المكين الذي نكتسبه بالتفكير الجدي الطويل، وفحص الضمير الذي يرينا بجلاء شقاءنا وفقرنا، والصلاة الحارة المتفجرة عندئذ من صميم هذا القلب المسكين، والمقاصد الصالحة التي نتخذها ونجتهد في تنفيذها، كل ذلك يظهر نفسنا ويوحى اليها الخوف من الخطيئة واسبابها، ويقويها على تجاربها ويجعلها أسخى في ممارسة التوبة.

لأنه متى أدركت النفس جسامة اهانتها لله بالخطيئة، وواجب التفكير الدقيق عنها، تندفع بشجاعة في سبيل التوبة. وباتحادها بيسوع الذي شاء ان يكون تائباً عنا، تغذي في قلبها عواطف الخجل والندامة والاتضاع، وتؤنب ذاتها دائماً على خطيئتها. وبهذه العواطف تستسلم الى التمرس بقساوة التوبة، وتقبل راضية الصلبان التي يرسلها الله اليها، وتفرض على ذاتها بعض الحرمانات، وتتصدق، وهكذا تكفر عن ماضيها. ولكن تجانب الخطيئة في المستقبل، تتمرس بالإماتة بتهذيبها حواسها الخارجية والداخلية وعقلها واراقتها، وكل قواها لكي تخضعها لله، ولا تعمل شيئاً إلا وفق ارادته المقدسة.

لا شك ان فيها اميلاً رديئة متأصلة تدعى الخطايا الرئيسية السبع. لكنها اذ تعتضد بالنعمة الالهية تقدم على استئصالها او اقله على اضعافها.

تصارع بشجاعة كل واحدة منها فيأتي الوقت الذي تتغلب فيه عليها تغلباً كافياً.

وقد تثور أحياناً مع ذلك تجارب هائلة في أقصى أعماق النفس يستحثها عليها الشيطان والعالم. لكن  
اذ تستند هذه النفس الى من غلب العالم والجسد، فأنها تصارع هجمات العدو بدون يأس، ومنذ  
اول وثبة ووقتاً طويلاً ايضاً.

وكثيراً ما تكون هذه الحملات سبب انتصار لها. لكن إذا فوجئت هذه النفس بسقطة مشؤومة فلترنم  
حالاً بين ذراعي الرحمة الالهية، ذليلة، واثقة به تعالى لكي تلتمس منه المغفرة. ومثل هذه السقطة  
إذا كفر عنها لا تعيقها عن تقدمها الروحي.

علينا مع ذلك ان نضيف: ان التطهير الفاعلي الذي ذكرناه في هذا الكتاب وفي الاول، لا يكفي لتزكية  
النفس تزكية تامة. ان عمل التطهير هذا سيستمر ايضاً في طريق الاستنارة بالممارسة الفعلية للفضائل  
الادبية والالهية. ولا يتم هذا العمل إلا حين تقبل، في طريق الاستنارة، تلك التطهيرات الانفعالية  
التي، اجاد وصفها القديس يوحنا الصليبي، والتي تمنح النفس طهارة القلب التامة الضرورية جوهرياً  
للمشاهدة.

## طريق الاستنارة

أو

### حالة النفوس المتدرّجة في الكمال

#### مقدمة

متى طهر الانسان نفسه من خطاياہ بتوبة شاقة، تتناسب وعدد خطاياہ وجسامتها، وثبت في طريق الفضيلة بممارسة التأمل والاماتة، ومقاومة الاميال الرديئة والتجارب، يدخل في طريق الاستنارة. تدعى هكذا لأنها تقوم بالافتداء بسيدنا يسوع بالممارسة الفعلية للفضائل المسيحية. والحال ان يسوع هو نور العالم ((ومن تبعه لا يمشي في الظلام، بل يكون له نور الحياة)) (يو ٨: ١٢).

قبل ان نبين الفضائل، التي يجب على النفوس الآخذة في النمو ان تمارسها، علينا ان نوضح ثلاثة امور تمهيدية. اولاً: من توافق طريق الاستنارة. ثانياً: ما المنهاج الواجب اتباعه في هذا الطريق. ثالثاً: ما الفرق بين النفوس المتعبدة التقية والنفوس الحارة التي تسير في هذه الطريق.

#### من توافق طريق الاستنارة

هكذا تصف القديسة تريزا سكان المنازل الثالثة، أعنى النفوس الآخذة في النمو: ((في هذه النفوس رغبة قوية ان لا تهين العظمة الالهية: فتجانب حتى الخطايا العرضية، وتحب التوبة، وتخصص ساعات للاختلاء، وتستعمل وقتها للأمر المفيدة. وتتمرن على اعمال الرحمة للقريب. كل ما فيها محكم التنظيم: كلامها واثوابها وادارة بيتها إذا كانت ربة بيت)). من هذا الوقت الوصف يمكن استخراج النتائج التالية.

اولاً. بما ان طريق الاستنارة يقوم بسيدنا يسوع المسيح، فللدخول فيه يجب تحقيق الشروط الثلاثة التي تسوغ لنا اتباع معلمنا بالممارسة الفعلية التي اعطانا قدوةً.

أ) علينا ان نكتسب شيئاً من طهارة القلب لنتمكن، بدون جسارة كبيرة، من التوق الى هذا الاتحاد المألوف بسيدنا يسوع، الذي يفرض الاقتداء بفضائله: ما دامت النفس معرضة احياناً للسقوط في الخطيئة المميتة، عليها قبل كل شيء ان تصارع ببسالة اسبابها، واميال الطبيعة الرديئة والتجارب.

وبعد التغلب على هذه الصعوبات تهتم أكثر بالجهة الايجابية للفضائل وتتروع ايضاً من الخطيئة العرضية الاختيارية وتجتهد في مجانبتها.

ب) عليها ما عدا ذلك ان تمت اهواءها. ولكي تتبع يسوع عليها الا تتجنب الخطيئة المميتة فحسب، بل الخطيئة العرضية ايضاً. ولا سيما التي ترتكب بتواتر ويتعلق القلب فيها. والحال اذ نقاوم ببسالة الاهواء والخطايا الرئيسية نملك نفسنا، ويسهل علينا ان نمارس الفضائل ونزداد قريباً من المثال الالهي. عندئذ تكون حياتنا حسنة التنظيم واوقات اختلاء، ونستعمل وقتنا في تكميم واجبات حالتنا.

ج) من الضروري اخيراً ان نحصل بالتأمل اعتقادات عميقة بكل الحقائق الكبرى، حتى نتمكن من تخصيص وقت أكثر للعواطف التقوية والصلاة الحقيقية، في الصلاة العقلية. وفي الواقع اننا بهذه العواطف وبالابتهاال نجذب اليها فضائل سيدنا يسوع، ونقدر ان نمارسها دون صعوبات كثيرة. يُعرف النامون بهاتين العلامتين الاساسيتين:

١) يقاسون صعوبة كبرى من الصلاة العقلية بطريقة البرهان الصرف: ان جاذب الروح القدس يحملهم على اضافة كير من العواطف الى البراهين.

٢) يرغبون رغبة حارة مألوفة في يتحدوا بربنا يسوع ويعرفوه ويحبوه ويقتدوا به.

ثالثاً. ينتج مما قلناه الفروقات الرئيسية بين طريقي التطهير والاستنارة.

أ) ان الهدف في كلتا الوجهتين هو الجهد والمصارعة. غير ان المبتدئين يحاربون الخطيئة واسبابها، بينما النفوس السائرة في طريق النمو.

تحارب كي تتزين باكتساب فضائل ربنا يسوع. مع ذلك، لا تناقض بين هذين الاتجاهين. فالواحد يهيئ الآخر: لأنه الابتعاد عن الخطيئة واسبابه تمارس الفضائل في درجتها الاولى التي هي بالأخص ممارسة سلبية. وفوق ذلك، فالفضائل الفعلية التي تمارس في طريق الاستنارة تكمل التجرد عن الذات وعن المخلوقات. ففي الحالة الاولى تقصد الجهة السلبية، وفي الثانية تقصد الجهة الايجابية. وكلاهما تكتملان بالتبادل. اذن لا يزال الانسان عاملاً اعمال التوبة ومميتاً ذاته، لكن بقصد الاتحاد بربنا يسوع التشبه به أكثر.

ب) و ان بقيت الوسائل ذاتها جوهرياً فتختلف بطريقة ممارستها : فالتأمل الذي كان بقوة البرهان يصبح عاطفياً . و الفكر الذي كان يحمل اعتيادياً الى الله ، ينحصر بزيادة في ربنا يسوع الذي نريد ان نعرفه و نحبه و نقتدي به : فيصبح حقاً مركز حياتنا .

## المنهاج الواجب اتباعه في طريق الاستنارة

اولاً. الهدف المباشر، هو ان نوافق سيدنا يسوع بمنوع يجعله محور حياتنا.

أ) نجعل يسوع محور افكارنا. نحب ان ندرس حياته واسراره. للإنجيل عندنا روعة جديدة: نقرأه بتأن ومحبة ونشغف بأدق تفاصيل حياة المخلص خصوصاً بفضائله. فيه نجد للتأمل مواضيع لا تنضب، ونرغب في التأمل في اقواله، وفي تفصيلها بإسهاب، وفي مطابقتها على نفوسنا. حين نريد ان نمارس فضيلة ففي يسوع يجب ان ندرسها اولاً، متذكرين تعاليمه وامثلته؛ هناك نجد اقوى باعث كي ننشئ فينا استعداداته وفضائله. ان يسوع في الذبيحة المقدسة وفي التناول هو ايضاً محور افكارنا: فصلوات الليتورجيا هي لنا واسطة لكي ندرسه. اخيراً نجتهد في مطالعات تقوية لكي نحسن معرفتنا تعاليم سيدنا يسوع، ولا سيما تعليمه الروحي. ان يسوع هو الذي نلتمس في الكتب.

ب) ان هذه المعرفة تقودنا الى الحب، وهكذا يصبح يسوع محور محبتنا: كيف نستطيع ان ندرس كل يوم من هو الجمال والجودة بالذات، دون ان نشعر باننا مشغوفون حباً له؟ كان لا كوردير يقول: ((اني منذ ما عرفت يسوع لم يعد لي في الوجود شيء جميل بكفاية فأتفرس فيه بشهوة)) فاذا دهش الرسل في تابور عندما رأوا ناسوت يسوع متجلياً وأخذ الدهش و الحب بمجامع افئدتهم حتى صرخوا: ((حسن لنا ان نكون ههنا)) ( متى ١٧: ٤) فكم يجب ان ندهش نحن بالأكثر ، ازاء الجمال الالهي الذي يسطع في يسوع الناهض من الاموات ؟ كيف لا تحبه اذ غالباً في الحب الذي أعلنه ولا يبرح يظهره بالتجسد والفداء وال أفخارستيا قد اختصر القديس توما احسانات المخلص العظيمة نحونا في دور شعري بإيجاز بديع:

بميلاده اعطانا ذاته شريكاً لنا وبتناولنا اياه غذاء

وبموته فدية وبجلوسه على العرش السماوي مكافأة

صار يوم ميلاده رفيقنا في طريق الحياة وصديقنا واخانا، ولا يدعنا وحدنا ابداً وبرسم الإفخارستيا يصبح غذاءنا، ويشبع، بجسده ودمه ونفسه ولاهوته، نفوسنا الجائعة والظامئة اليه. وبموته على الصليب يؤدي ثمن افتدائنا ويخلصنا من التعبد للخطيئة من التعبد للخطيئة، ويعطينا أعظم علامات حب يمكن ان تعطى للأصدقاء. اخيراً يعطينا في السماء ذاته مكافأة. مدى الابدية، وتمتج سعادتنا بمجده.

ج) ان الحب يقود الى الاقتداء بفضائل الصديق، والاتحاد بعواطفه حتى لا نكون معه سوى قلب واحد، فيصبح محور افعالنا وحياتنا باسرها. فمهما عملنا نتحد بعامل الناصرة لنعمل مثله على مجد الله وخلص النفوس.

ثالثاً. ينبغي للتوصل الى هذا الهدف، وسائل، هي، ما عدا الصلاة والتأمل العاطفي، الجهد المستمر في ممارسة الفضائل المسيحية التي يجعلنا نحسن معرفة سيدنا يسوع ونحبه، ونقتدي بفضائله اللاهوتية والادبية. فنقصد الفضيلة الوطيدة، المرتكزة على الاعتقادات العميقة لا على العواطف.

أ) ان هذه الفضائل تمارس معاً، بمعنى انه لا يمكن ان تمارس الفضائل الادبية بدون ممارسة الفضائل الالهية وبالعكس. فلا نقدر ان نتمرن على الفطنة المسيحية بدون ان تقودنا انوار الايمان ويعضدنا الرجاء، وتحثنا محبة الله. كذلك الايمان والرجاء يقضيان الفطنة والقوة والشجاعة. وهكذا سائر الفضائل.

مع ذلك فضائل توافق هذا الدور او ذاك من طريق الاستنارة. فيتمسك من ينتظمون في هذه الطريق ببعض فضائل ادبية، ويشعرون بشديد الحاجة اليها كي يتغلبوا على الشهوات البدنية، او على الكبرياء. فمتى قهروا هذه الرذائل يعكفون على الفضائل الالهية التي تضمننا الى الله رأساً.

ب) لفهم هذه العقيدة فهماً أعمق، علينا ان نشير منذ الآن باختصار الى الفرق الكائن بين هذه الفضائل.

١) ان موضوع الفضائل الالهية المباشر هو الله نفسه، وعلتها هي احدى الصفات الالهية.

وبالمحبة احبه لأنه الجودة الغير المتناهية. والايمان يشركنا بفكرة. بهذا نفسه توحدنا هذه الفضائل بالله مباشرة.

٢) اما موضوع الفضائل الادبية فهو خير مخلوق، وعلتها خير لائق. فموضوع العدل هو ان يؤدي لكل ما يجب له، والحامل عليه هي اللياقة. ان هذه الفضائل تهيء اتحادنا بالله اذ تبعد الصعوبات كالظلم مثلاً، و تبتدى ايضاً بهذا الاتحاد، لأنه حين اكون باراً اتحد بالله الذي هو البرارة بالذات. لكن هذه الفضائل الالهية الموحدة الاكثر مباشرة تكمل هذا الاتحاد.

٣) ينتجمن ذلك ما يلي إذا درسنا الفضائل بحسب نظام الاستحقاق، علينا ان نبدأ بالفضائل الالهية. اما إذا تبعنا النظام النفسي الذي يدرج من الاقل كمالاً الى الاكمل، كما نعمل هنا، فعلينا ان نبدأ بالفضائل الادبية، غير ناسين مع ذلك ملاحظتنا السابقة على نمو الفضائل المتآزي.

### صنفان من النفوس السائرة في طريق النمو

يمكننا ان نميز في طريق الاستنارة اصنافاً من النفوس ولا سيما الصفتين المهمين النفوس التقية، والنفوس الحارة. فلأولى ارادة صالحة وغيره على الخير، وتجهد جهداً حقيقياً في تجنب الخطايا الاختيارية. غير انها لا تزال معجبة بنفسها ومدعية، قليلة الاعتياد على الكفر بالذات، تنقصها الحمية والثبات، ولا سيما عند ورود المحن. فينشأ عن ذلك تقلبات كثيرة جداً في تصرفها: تكون مستعدة لتحمل كل شيء ما دامت التجارب بعيدة، وحين تكون إزاء الالم او اليبوسة تسأم وتتظلم. وهي عجولة في اتخاذ مقاصد صالحة، فلا تقوم بها الا بشكل ناقص، ولا سيما ان فاجأتها صعوبات. كذلك نموها بطيء وتفتقر الى ممارسة فضائل القوة والثبات والاتضاع.

اما النفوس الحارة فهني أكثر اتضاعاً وسخاء. لا تثق بذاتها بل بالله. وقد الفت الكفر المسيحي بالذات وهي أشجع واثبت، غير ان تجردها ليس مطلقاً ولا عاماً؛ اما رغبتها في الكمال فعظيمة، المحن لم توطد فضيلتها بكفاية. متي عرضت لها التعزية والمسرة تقبلهما بطيبة قلب، وتستريح فيهما بغبطة. ليس عندها محبة الصليب، ولا تتفئذ جزء من مقاصد الشهامة التي تقصدها صباحاً، لان هذه النفوس غير ثابتة بكفاية في جهودها. وقد نمت نموّاً كافياً في الحب الالهي كي تقلع عن الامور

الخطرة، لكنها تحب بإفراط من يسوع الله لها ان تحبهم، كأهلها واصدقائها و ما تجده من التعزيات في رياضاتها الروحية. فعليها اذن ان تتجرد ايضاً اتم تجرد عن كل ما يعيق اتحادها بالله.

لا نبحت بحثاً منفراً عن كل من هذين الصفتين من النفوس، بل فليختر المرشد من الفضائل التي سنصفها ما يوافق كل نفس أفضل موافقة.

## تقسيم الكتاب

لما كان هدف النفوس السائرة في النمو جعل يسوع محور حياتها:

اولاً. تجتهد باعتناء في التأمل العاطفي لتستقي منه معرفة مثالها الالهي ومحبته والاقتراء به.

ثانياً. تمارس ايضاً بمناوع خاص، لكن غير ناف سواه، هذه الفضائل الادبية التي اذ تدفع عنها صعوبات تعارض اتحادها بالله، تبدأ توحدتها بمن هو مثال كل كمال.

ثالثاً. عندئذ تنمو فيها الفضائل الالهية التي مارستها في طريق التطهير مع الفضائل الادبية وتصبح المحرك الاول لحياتها.

رابعاً. لكن بما ان نهاية الجهاد بعيدة وللعود عودات هجومية، فينبغي ان نتحذر منها ونحاربها بانتصار. فينتج من ذلك اربعة فصول:

الصلاة العاطفية الخاصة بهذه الطريق. الفضائل الادبية. الفضائل الالهية. محاربة عودات العدو الهجومية.

## الصلاة العاطفية

تتابع النفوس السائرة في النمو رياضات المبتدئين الروحية (كما مر في اول هذا الكتاب صفحة ٢١) بزيادتها عددها ووقتها، وباقتربها هكذا من الصلاة المألوفة التي (شرحناها صفحة ٢٠٨ وما يليه من الكتاب الاول) والتي لا تتحقق تماماً الا في طريق الاتحاد. وتعكف خصوصاً على الصلاة العقلية

العاطفية التي تحل تدريجياً مكان التأمل بقوة البرهان. سنوضح اذن: طبيعتها وفوائدها وصعوباتها والطريق التي يمكن اتباعها.

## طبيعة الصلاة العقلية العاطفية

اولاً: تحديد. هي التي تسيطر فيها العواطف التقوية، أعني افعال الارادة التي نعبر بها لله عن محبتنا له، وعن رغبتنا في تمجيده. فللقب في هذه الصلاة قسم أكبر من قسم العقل.

قلنا في اول هذا الكتاب (صفحة ٢٥) ان المبتدئين يحتاجون الى كسب اعتقادات. يلحون اذن في التماس البراهين ولا يفسحون للعواطف سوى مجال ضيق. لكن كلما تملك هذه الاعتقادات متعمقة في النفس يكفي قليل من الوقت لتجديدها، وعندئذ نخصص القسم الاوفر للعواطف. ومتى شغفت النفس بمحبة الله وبجمال الفضيلة، ترتقي بسهولة أكثر بوثبات تقوية الى مبدع كل خير، كي تعبده وتباركه وتشكره وتحبه، الى ربها يسوع المسيح مخلصها ومثالها ورئيسها وصديقها وأخيها، كي تقدم له عواطفها الاكثر حباً. تحلق الى العذراء الفائقة القداسة ام يسوع وامنا موزعة النعم الالهية، كي تظهر لها أخلص محبتها وثقتها البنوية واسخاها (كما مر في آخر صفحة ٦٠ من الكتاب الاول). تتفجر طوعاً من قلبها عواطف الحياء والخجل والاتضاع، حين ترى شقاءها. وعواطف التوق لتحسين اعمالها، وعواطف الغيرة على مجد الله تجعلها تصلي لأجل مصالح الكنيسة والنفوس، وصلوات واثقة كي تنال بها النعمة.

ثانياً. تحويل التأمل الى صلاة عاطفية. لا نبلغ هذه الصلاة دفعة واحدة. هنا دور انتقال نخلط فيه الاعتبارات بالعواطف خلطاً متفاوت الدرجات. وهناك ايضاً دور اخر تعمل فيه هذه الاعتبارات ايضاً، لكن بصيغة مناجاة: ((ساعدني يا إلهي على افهم حسناً ضرورة هذه الفضيلة)). وتفكر بضع دقائق. ثم تكمل: ((اشكر لك يا إلهي على انوارك الالهية. ساعدني لأرى كم انا بعيد عن هذه الفضيلة ... وارى ما يجب على ان افعله لأمارسها حسناً ... في هذا اليوم نفسه)). اخيراً يبلغ الزمن الذي توشك ان تزول البراهين فيه تماماً، او يلجأ اليها بإيجاز كلي، بنوع ان ينقضي القسم الاكبر من التأمل في مناجاة تقوية. ولإشغال عقلنا بكفاية نشعر بالحاجة الى الرجوع الوقي الى الاعتبارات. علينا في كل ذلك ان نتبع حركات النعمة تحت اشراف المرشد.

ثالثاً. العلامات التي تؤيد هذا التحول.

أ) من الغباوة الاسراع في العدول عن التأمل الى الصلاة العاطفية. فاذ تكون النفس عندئذ غير متقدمة بالكفاية كي تحفظ هذه العواطف تقع في تشتيت الافكار او اليبوسة. ومن جهة اخرى فالتأجيل سيء. فحسب راي المؤلفين الروحيين كلهم، ان الصلاة العاطفية أجزل ثمرأ من التأمل الصرف، لأننا نمجد الله بأفعال الارادة خاصة، ونجتذب الفضائل الينا. فيهمنا ان نعرف العلامات التي نستدل بها على هذا التحول.

ب) هذه العلامات هي:

١) متى شق البرهان علينا او تعذرت الاستفادة منه بالرغم من ارادتنا الطيبة، ومتى كنا من جهة اخرى مائلين الى العواطف.

٢) متى كانت الاعتقادات وطيدة، الى حد ان تشعر النفس بانها مقتنعة منذ بدء الصلاة العقلية.

٣) عندما يتجه القلب المقلع عن الخطيئة، بسهولة الى ربنا يسوع. لكن بما اننا لا نصلح قضاة في دعوانا الخصوصي فلنخضع هذه العلامات الى حكم المرشد.

رابعاً. وسائل لأنماء العواطف.

١) اننا نضاعف العواطف التقوية، ونستمر فيها طويلاً بممارسة فضيلة المحبة، التي تتبع من قلب تملكه حب الله. فنعجب من كمالاته ويضع الايمان صفات الله نصب اعيننا. وهذا يتم بمحبة ربنا يسوع كما أشرنا الى ذلك قبل.

٢) لتعزيز هذا الحب الالهي نشير على الناميين ان يتأملوا غالباً في الحقائق الكبرى التي تذكرنا ما صنعه الله ولايزال يصنعه لأجلنا:

أ) سكنى الاقانيم الالهية الثلاثة في نفسنا وعملها الابوي فينا (انظر الجزء الاول صفحة ٢٧ الى صفحة ٤٥).

ب) اتحادنا بالمسيح ودورة في حياتنا المسيحية (انظر الجزء الاول صفحة ٤١ الى ٥٢). حياته واسراره ولا سيما آلامه الموجهة، وحبه في الأفخارستيا.

ت) دور العذراء القديسة والملائكة والقديسين في الحياة المسيحية (انظر الجزء الاول صفحة ٥٣ الى ٥٣ الى ٧٠): اننا نجد فيها واسطة سامية لتنويع عواطفنا، اذ نخاطب تارة امنا السماوية وتارة الملائكة القديسين، ولا سيما ملاكنا الحارس والقديسين ولا سيما الذين يلهموننا أعظم عبادة.

ث) الصلوات اللفظة مثل ابانا والسلام وغيرهما، الفائضة بعواطف المحبة ومعرفة الجميل ومطابقة الارادة الالهية.

ج) اهم الفضائل، كعبادة الله والطاعة والاتضاع والقوة والقناعة ولا سيما الفضائل الالهية الثلاث. فالسيد المسيح مارسها. فلذلك علينا ان نعتبرها ونمارسها.

ح) لا نبرح نتأمل في التوبة والاماتة والعواطف الاخيرة. لكن بغير طريقة المبتدئين. بل ننظر الى يسوع كمثال التوبة الكامل وحامل خطايا ومكفر عنها بجهد متواصل. نتأمل في ذلك كي نتجرد عن المخلوقات ونتحد بيسوع فنؤمن بهذا على نعمة الميتة الصالحة.

## فوائد الصلاة العقلية العاطفية

اولا. ان أخص هذه الفوائد هو اتحاد أوثق وآلف بالله، ينشئ فينا زيادة محبة لله: بحيث ان الفضائل تنمو بتكرار الافعال ذاتها. وقد لاحظ القديس بوناونتورا: ((ان أفضل طريقة لمعرفة الله هي ان نختبر عدوبة محبته. وهذا الشكل من معرفة الله، اجل وألد من البحث بطريق البرهان)). فكما نحكم أفضل حكم على جودة الشجرة اذ نذوق طعم ثمرتها، هكذا نقدر سمو الصفات الالهية أفضل تقدير، عندما نختبر عدوبة محبته.

ثانياً. وحين تزداد المحبة نكمل الصلاة العاطفية، وكل ما ينشأ عنها من الفضائل: مطابقة الارادة الالهية، والرغبة في مجد الله وخلص النفوس، ومحبة الصمت والاختلاء، وروح التضحية، فنقبل كل ما تبعثه لنا العناية الالهية.

ثالثاً. نجد فيها التعزيزات الروحية غالباً، وهي أخف مشقة من الصلاة العقلية بالبرهان.

رابعاً. أخيراً عندما تتبسّط الصلاة العاطفية، أعني بتقليل عدد العواطف وانواعها، تقودنا الى صلاة البساطة التي هس المشاهدة المكتسبة، وتهيئ ايضاً للمشاهدة المفاضة النفوس المدعوة اليها. سنتكلم عنها في طريق الاتحاد.

## موانع الصلاة العاطفية واطارها

كما لأفضل الامور موانع واطار، كذلك للصلاة العقلية موانعها واطارها. فان لم تتم بحسب قواعد الفطنة تقود الى سوء الاستعمال. سنصف اهمها مع علاجاتها.

اولاً. اولها الجهد الدائم الذي يجلب التعب والانحطاط. من البشر من يريدون ان يقووا عواطفهم فيجدون عقلهم وقلوبهم عبثاً، كي يصدروا بعض افعال وحمية، حيث للطبيعة النصيب الاكبر من نصيب النعمة. فبمثل هذه الجهود يتعب الجهاز العصبي، ويستجم الدم في الدماغ، وينهك القوى نوع من الحمى الدقيقة، ويشعر المرء بهزال سريع. وقد تكون عاقبة ذلك اختلال في الجسم، وتمتزج تلك العواطف التقوية بشواعر قريبة من الشهوية.

تلك نقيصة كبيرة تجب معالجتها منذ ابتدائها، باتباع مشورات مرشد حكيم، لا يغفل عن ان له هذه الحالة. فالعلاج هو الاعتقاد الحس ان محبة الله الحقيقية تقوم بالإرادة أكثر بكثير من الحس، وان سخاء هذه المحبة لا يكون الاندفاع الشديد، بل القصد الهادئ البات في ان لا نرفض على الله شيئاً. ولا ننس ان المحبة هي فعل ارادة. لا شك انه في الغالب يعاود الحس، ويصدر فيه حركات تكاد ان تكون قوية، غير انها ليست بالعبادة الحقيقية، وليست سوى مظاهر عرضية، ويجب ان تظل خاضعة للإرادة وان تتلطف بها. والا فتتفوق عليها، وهذا اختلال \_ فعوضاً عن تعزز التقوى الراهنة، تحولها الى محبة حسية، واحياناً الى شهوية: لان كل الحركات الشديدة هي في الحقيقية من جنس واحد. وبسهولة يُنْتَقَل من حركة الى غيرها. فعلياً اذن ان نصبو الى تحويل عواطفنا روحية، ونسكنها ونوقفها على خدمة الارادة. عندئذ ندوق سلاماً يفوق كل عاطفة: ((يحفظ سلام الله الذي يفوق كل فهم قلوبكم وبصائرکم)) (فيلبي ٤:٧).

ثانياً. النقيصة الثانية هي الكبرياء والادعاء بما اننا حائزون على عواطف نبيلة، ورغبات ومقاصد حسنة، وفيها حمية ونزدري الملذات والخيرات، وزهو العصر وزخارفه، ونعد نفساً متقدمين أكثر بكثير من حقيقية ما نحن، وأننا دانينا قمم الكمال والمشاهدة، ونحبس نَفْسَنَا في الصلاة العقلية

متوقعين الاتصالات الالهية. فمثل هذا الشعور يدل بصراحة على العكس. فنحن لا نزال بعيدين عن تلك الذرى: لان القديسين والعبادة يتحذرون من أنفسهم، ويعتقدون عن طيبة نفس ان الجميع أفضل منهم. ومتى ازدادت الكبرياء يمنع الله عن النفوس التعزيات ونعم الانتخاب كي يرجعها اليه. فتدرك عندئذ انها لا تزال بعيدة عن الهدف المرغوب.

ثالثاً. يجعل بعض البشر كل عبادتهم في التماس التعزيات الروحية، فيهملون واجبات حالتهم وممارسة الفضائل الاعتيادية، شريطة ان يحسنوا الصلاة العقلية، فيتوهمون انهم يلغوا الكمال. ذلك تغرير جسم: فلا كمال البتة دون مطابقة الارادة الالهية. والحال ان ارادة الله هي ان نتمم بأمانة وصايا الله، وواجبات الحالة، ونمارس صغريات الفضائل: الحشمة والعذوبة والتسامح واللطف، والفضائل الكبرى ايضاً. فمن يعتقد انه قديس لكونه يجب الصلاة ولا سيما تعزياتها، فهذا نسيان لتصريح السيد المسيح ان الكامل الوحيد من يعمل الوحيد من يعمل ارادة الله: ((ليس كل من يقول لي يا رب يدخل ملكوت لكن يعمل ارادة ابي)) (متى ٧: ١٢).

متى ابعدنا الموانع والاحطار بما أشرنا اليه من الوسائل تعود الصلاة العقلية العاطفية مفيدة لنجاحنا الروحي وللغيرة الرسولية. فلننظر ما هي الطريق التي تسهل لنا ممارستها.

## طرائق الصلاة العقلية العاطفية

تعود هذه الطرائق الى نظريتين: طريقة القديس اغناطيوس. وطريقة سان سوليبس.

## طرائق القديس اغناطيوس

ثلاث من الطرائق الأغناطيوسية توافق الصلاة العقلية العاطفية: المشاهدة. واستعمال الحواس. الطريقة الثانية للصلاة.

## المشاهدة الأغناطيوسية

ليس مدار كلامنا هنا على المشاهدة المفاضة، ولا على المشاهدة المكتسبة بل على احدى طرائق الصلاة العقلية العاطفية. فمشاهدة موضوع ما ليس النظر اليه بسرعة، بل بتان وتذوق حتى يروي

الانسان غليله ارواء تاماً. هي التفرس فيه بأعجاب ومحبة كما تتفرس الام في ولدها. ويمكن حمل هذه المشاهدة على اسرار ربنا يسوع او على صفاته الالهية. متى تأملنا في أحد الاسرار:

١) نتمثل الاشخاص الذين يشتركون فيه. مثلاً الثالث الاقدس وربنا يسوع والعذراء القديسة والبشر، فنرى ظاهريهم وداخليهم.

٢) نصغي الى اقولهم ونسأل نفساً الى من توجه هذه الأقوال، وماذا توضح.

٣) نتبصر في الافعال وطبيعتها وظروفها: قاصدين من وراء هذا كله ان نقدم واجباتنا لله وليسوع ولسيدنا الطاهرة، وان نحسن معرفتنا ومحبتنا لربنا يسوع.

لكي تثمر هذه المشاهدة أكثر، فلا نعد هذا السر كحادث ماض، بل كأنه يجري حالياً امام عيوننا، ويستمر بالنعمة المتعلقة به. فلا نحضره كمتفرجين، بل نشترك به فعلياً، مثلاً باتحادنا بعواطف العذراء حين ولادة الطفل الالهي؛ ونلتمس نتيجة عملية، مثلاً ان نعرف يسوع بتعمق ومحبة وسخاء.

سهل، كما نرى، ان نجمع كل عواطف الدهش والعبادة والشكر والمحبة لله ضمن هذه الدائرة، وعواطف الندامة والخجل والانسحاق عند نظرنا خطايانا، وكل ما نرفعه من الصلوات لله عنا وعن القريب. و لكي لا يضر تعدد العواطف بسلام النفس وطمانيتها، فلنتذكر ملاحظة القديس اغناطيوس: ((اذا شعرت في احد المواضيع بالعواطف التي ارغب ان اثيرها في، اتوقف فيها واستريح بدون ان انزعج فاجتاز الى غيرها حتى ترضى نفسي تماماً. لان غزارة العلم لا تشبع النفس وترضيها، بل العاطفة والرغبة الداخليتين في الحقائق التي نتأمل فيها.))

## استعمال الحواس الخمس

يَعين الروحانيون بهذا الاسم طريقة تأمل بسيطة وعاطفة للغاية، تقوم بممارسة الحواس التخيلية او الروحية، بعض اسرار سيدنا يسوع حتى نغرس في نفوسنا كل الظروف التي رافقت ذلك السر، وتحرك في قلوبنا عواطف ومقاصد صالحة. فلنأخذ مثلاً عن سر الميلاد.

١) استعمال النظر: ارى الطفل في المذود، والتبن الذي نام عليه، والقمط ويديه ترتجفان من البرد. ارى العذراء القديسة: يا لها من حشمة وجمال سماوي!... اراها تلف الطفل بالقمط وتضمه الى قلبها وتضعه على التبن: هذا هو ابنها، هو إلهها والهي! أني اعبده بإيمان حي وادهش واصلي ... أفكر في تناول المقدس ... هل أومن الايمان نفسه وأحبه...

٢) اسمع بكاء الطفل وزفرات الالم التي يصعدها من البرد، ومن نكران البشر للجميل ...

٣) استخدام الشم لا نشق عطر فضائل المذود وعرف يسوع ...

٤) واستخدام الذوق: كي اذوق سعادة الاقامة مع يسوع ومريم ويوسف، ولكي انعم بزيادة ألبث صامتاً قرب مخلصي.

٥) استخدام اللمس: أمس بيدي باحترام وتقوى المذود والتبن حيث اضجع مخلصي واقبلها.

اختتم بمناجاة يسوع وأمه طالباً النعمة لاحب هذا المخلص الالهي أسخى حب.

اما الصلاة العقلية بالصفات الالهية، فتتم باعتبارها كل صفة منها بعواطف العبادة والحمد والمحبة، كي نختمها بتقدمة ذاتنا لله مقدمة كاملة.

## الطريقة الثانية للصلاة

تقوم هذه الطريقة بان نصلي بتأن صلاة لفظية كل أبانا والسلام والملائكي، والسلام عليك يا ملكة الرحمة الخ. كي نتبصر معنى كل كلمة ونتذوقها.

هكذا نتبصر اول كلمة في الابانا: الالهي الازلي خالق جميع الاشياء قد تبنيته وبالمعمودية اشركتني بحياتك الالهية، وكل يوم تزيدها في نفسي ... انت ابي، لأنك تحبني محبة ابدأ اب او ام ابنتها مثلها ... وتعتني بي عناية كلها ابوية.

نلبث مستقرين في هذه الكلمة الاولى، ما دمنا نجد فيها معاني وعواطف تنيرنا تقوينا وتعزينا. حتى إذا كانت كلمة او كلمتان تهين ما يكفي وقت الصلاة العقلية، فلا نتحمل مشقة الانتقال الى غيرها. فلننعم بهذه الكلمات ونستخرج منها نتائج عملية ونصلي نتمكن من تميمها.

## طريقة سان سولبيس

لاحظنا سابقاً ان هذه الطريقة عاطفية للغاية. ما على النفوس المتقدمة اذن سوى الاستفادة منها، اذ تعتبر الملاحظات التالية.

اولاً. النقطة الاولى هي العبادة التي كانت قصيرة المدة عند المبتدئين وتطول الآن أكثر فأكثر، واحياناً تستغرق أكثر من نصف وقت الصلاة العقلية. فالنفس المشغولة حباً لله، تدهش وتعبد وتحمد وتبارك وتشكر تارة الاقانيم الثلاثة الالهية، وتارة كل اقنوم وحده بشكل خاص، وتارة ربنا يسوع المثل لكل فضيلة ترغب ان تكتسبها. وحسب الظروف ترفع ايضاً واجبات الاحترام وعرافان الجميل والمحبة للعدراء وللقدسين. فتشعر حينئذ انها مدعوة للاقتداء بفضائلهم.

ثانياً. النقطة الثانية او الاتصال يوشك ان يصير عاطفياً تماماً.

فما نعمله من الاعتبارات مقصور جداً، وبشكل مخاطب لله ولربنا يسوع: (ساعدني يا ألهي وزدني ايماناً) ... فيصبح هذه المحادثات ويتبعها ايضاً فيض على الانوار المستمدة، وعلى الرغبات فيما نتأمل فيه. حين نفحص ضميرنا في هذه الفضيلة نتطلع الى يسوع ونتشبه بهذا المثل الالهي، فنرى جلياً نقائصنا واشقاءنا بسبب وبينه من التباين. فنعرف عندئذ بما نشعر به من عواطف الاتضاع والخجل، وتعظم ثقتنا بالله، لأننا نقابل شافي النفوس الالهي، فيصعد من القلب طبيعياً هذا الصراخ: ((يا رب ها ان الذي تحبه مريض)) (يو ١١: ٣). فنصلي لننال النعمة ولكي نمارس الفضائل، ونصلي لا لأجل انفسنا فحسب بل لأجل القريب ولأجل الكنيسة بأجمعها صلوات واثقة، لأننا اذ نتحد بيسوع نتأكد انه يدعمها.

ثالثاً. في النقطة الثالثة تصبح المساعدة اشد عاطفة: اننا نخضع مقاصدنا ليسوع لكي يثبتها. ونريد ان نمارسها ونتحد به اتم اتحاد. ونعتمد في ذلك على مساعدته متحذرين من ذواتنا. ونضم هذا القصد الى باقة روحية، الى استغاثة بتقوى نكررها غالباً سحابة النهار فتعيننا لا على ممارستها فحسب بل على التذكر بمحبة بمن الهمناها.

هنا حالات اذ تكون النفس في اليبوسة، لا تستطيع ان تنشئ، الا بمشقة كبرى، مثل هذه العواطف. واذ تستسلم عندئذ بدعة لإرادة الله، وتصرح انها تشاء ان تحبه وتظل امينة، وتثبت في حماه وفي خدمته مهما اقتضى الامر. وباتضاع تقرر بعدم استحقاقها وبعجزها، وتتحد بإرادتها بسيدنا يسوع المسيح، فلا فعال الارادة استحقاق أعظم من العواطف التقوية.

هذه هي أخص طرائق الصلاة العقلية العاطفية: لكل ان يتخير الطريقة التي توافق، وان يتخذ من كل طريقة ما يناسب حالياً احتياجات نفسه واميالها الفائقة الطبيعة تابعاً حركات النعمة. هكذا ينجح الانسان في ممارسة الفضائل.

## الفضائل الأدبية

قبل ان نصف كلاً من هذه الفضائل، علينا ان نذكر بإيجاز المفهومات اللاهوتية للفضائل المفاضة.

### مفهومات تمهيدية للفضائل المفاضة

#### الفضائل المفاضة عموماً

من الفضائل ما هي طبيعية، أعني عوائق صالحة مكتسبة بأفعال متكررة بتواتر تسهل ممارسة الخير اللائق. غير المؤمنين والوثنيون بمعونة الله الطبيعية ان يكتسبوا الفضائل الادبية: الفطنة والعدل والقوة والقناعة ويتكلموا بها. فنحن لا نتكلم هنا عن هذه الفضائل بل نتوخي ان نبحت عن الفضائل الفائقة الطبيعة او المفاضة كما هي عند المسيحيين.

حين نرقى الى الحالة الفائقة الطبيعة، ولم يبق امامنا غاية سوى المشاهدة الطوباوية، فعلينا ان نتجه اليها بأفعال نعملها بتأثر المبادئ والبواعث الفائقة الطبيعة: لأنه من الضروري ان تكون نسبة بين الغاية والافعال اتى تقود اليها. فيجب ان نمارس بشكل فائق الطبيعة تلك الفضائل التي تدعى في العالم طبيعية. كما لاحظ بكل صواب الاب غار يغولا غرانج، حسب تعليم القديس توما: ((ان الفضائل الادبية المسيحية، هي مفاضة ومتميزة جوهرياً بموضوعها الصوري عن أسمى الفضائل

الادبية المكتسبة التي وصفها أعظم الفلاسفة ... فالفرق غير متناهٍ بين القناعة الارسطوطاليسية التي هي من تنظيم العقل المستقيم فقط، والقناعة المسيحية التي نظمها الايمان الالهي والفتنة الطبيعية)).

واذ بينا (في صفحتي ٣٩ و ٤٠ من الكتاب الاول) كيف اشركنا الروح القدس الحي فينا بهذه الفضائل، لم يبق علينا الا ان نوضح طبيعتها، نموها، ضعفها، العلاقة فيما بين بعضها الآخر، النظام الذي سنتبعه في شرحها.

## طبيعة الفضائل المفاضة

أ) ان الفضائل المفاضة هي مبادئ العمل، يغلها الله فينا كي تمثل دور القوى الفائقة الطبيعة في نفسنا، وهكذا تسوع لنا ان نأتي افعالاً استحقاقية.

هنا فرق جوهرى بين الفضائل المفاضة والمكتسبة، نظراً للوجهة المثلثة: أصلها، وطريقة ممارستها، وغايتها.

١) بالنظر الى أصلها، تكتسب الفضائل الطبيعية بتكرار الاعمال ذاتها. اما الفضائل الفائقة الطبيعة فتأتي من الله الذي يضعها في نفسنا، في ذات الوقت الذي يمنحنا النعمة الحالية.

٢) نظراً للممارسة، متى اكتسبنا الفضائل الطبيعية بتكرار الافعال نفسها، تخولنا سهولة لان ننشئ بسرعة وفرح افعالاً تشبهها. اما الفضائل الفائقة الطبيعة التي وضعها الله تولينا سوى المقدره على صنع افعال استحقاقية، مع شيء من الميل لأنشائها. ولا تأتي السهولة الا متأخرة بقوة انشاء الافعال.

٣) ونظراً الى الغاية فالفضائل الطبيعية تتبّع الخير اللائق وتوجهنا الى الله الخالق. بينما ان الفضائل المفاضة تتبّع الخير الفائق الطبيعة وتبلغنا الى إله التثليث كما يعرفناه الايمان. هكذا يجب ان تكون البواعث التي تلهم هذه الفضائل فائقة الطبيعة، وتؤدي الى صداقة الله: أنى امارس الفتنة والعدل والقناعة والقوة لا كون على تآلف مع الله. ينتج من ذلك ان افعال هذه الفضائل الفائقة الطبيعة أكمل بكثير من افعال الفضائل المكتسبة (القديس توما الخلاصة اللاهوتية). فقناعتنا مثلاً، لا تحملنا على الامسك الضرورى لصيانة الكرامة البشرية فحسب، بل تحملنا على الاماتات الوضعية التي نوافق بها مخلصنا يسوع. كذلك اتضاعنا لا يجعلنا نتجنب الافراط في الكبرياء والغضب فحسب،

الرديلتين المضادتين للحشمة، بل نتحمل مذلات تصيرنا أكثر شبهاً بمثالنا الالهي. فالبون اذن جوهرى بين الفضائل المكتسبة والمفاضة: لان مبدأهما والحامل الصوري اليهما ليسا واحداً:

ب) قلنا نكتسب في ممارسة السهولة في ممارسة الفضائل المفاضة بتكرار الافعال ذاتها، التي تسوِّغ العمل بسرعة وسهولة ولذة أكثر، ثلاثة اسباب تشترك في هذه النتيجة السعيدة.

(١) العادة تخفف عوائق الطبيعة الفاسدة ومقاوماتها.

(٢) وتجعل قوانا مرنة وانشط، وتكملها في ممارستها.

(٣) تسهل النعمة الحالية عملنا بطريقة غريبة وتحببه لنا. ومتى اكتسبت هذه السهولة فلا تفقد حالاً حين نخسر لتعاستنا الفضيلة المفاضة، بارتكابنا خطيئة واحدة مميتة، بل تستمر زمناً بقوة الشرائع النفسية على العوائق المكتسبة.

## نمو الفضائل المفاضة

تنمو هذه الفضائل في نفسنا. وهذا النمو يأتي تَوْأماً من الله لأنه وحده يقدر ان يزيد فينا حياته الالهية، والعناصر المتنوعة التي تكونها، وذلك حين نتقبل الاسرار، وحين نعمل اعمالاً صالحة، وحين نصلي. (أ) ان الاسرار تصدر فينا بقوة رسمها نمو النعمة لحالية، والفضائل الملتحقة بها، بنسبة استعداداتنا (الكتاب الاول ص ١٠١).

ب) تستحق اعمالنا الصالحة المجد، وزيادة النعمة الحالية، وزيادة الفضائل المفاضة، ولهذا النمو علاقة كبيرة بحرارة استعداداتنا (الكتاب الاول ص ٩٣).

ت) للصلاة ما عدا قوتها الاستحقاقية، قوة استغفاريه أيضاً. تسترحم فتنال زيادة النعمة و الفضائل، وهذا ما بنسبة حراتنا في الصلاة فيقتضي الامر اذن ان نتحد في صلواتنا بالكنيسة و نطلب معها نمو الايمان و الرجاء و المحبة: ((امنحنا يا رب نمو الايمان و الرجاء و المحبة)).

ث) ليس ها النمو حسب قول القديس توما، في زيادة درجة او كمية. بل بامتلاك الفضيلة امتلاكاً وافعل: وبحسب هذا المعنى، تلقي الفضيلة في نفسنا أعمق الجذور فتصير بها اثبت وأفضل.

## انحطاط الفضائل

ان النشاط الذي لا يدمنه الانسان، او لا يدمنه الا بتراخ، لا يعتمد ان يضعف او يُفقد تماماً.

أ) ان الخطايا العرضية الاختيارية تخمد حميتنا وتشل قسماً من نشاطنا فخطيئة الشراهة العرضية تفقد قليلاً ما اكتسبناه من السهولة في اماتة الذات الجسدية. وسوء استعمال النعمة يخفض معونات الله، فنمارس الفضائل بأقل حرارة. فالخطايا العرضية تمهد السبيل لخطايا ثقيلة ولفقدان الفضائل (راجع صفحة ٥٧ من هذا الكتاب).

ب) ان كل عمل ينقض موضوع الفضائل الصوري يفقدها. فبهذا تقوض الفضيلة من اساسها.

١) كل خطيئة مميتة مهما كانت تفقد فضيلة المحبة، لأنها تنقض فينا الموضوع الصوري، وتقاوم رأساً جودة الله.

٢) تفقد الفضائل الادبية بالخطيئة المميتة، لأنها مرتبطة شديداً بالمحبة فتزول بزوالها.

٣) اما الايمان والرجاء فيثبتان في النفس حتى حين خسارتنا النعمة بخطيئة مميتة، على ان لا تكون هذه الخطيئة من التي تضاد مباشرة هاتين الفضيلتين. وفي الواقع سائر الخطايا لا تلاشي فينا اساس الايمان والرجاء. لان الله يشاء برحمته ان تستمر هاتان الفضيلتان فينا كآخر دفعة للخلاص: اننا ما دمنا نؤمن ونرجو لا تزال الرجعة سهلة نسبية.

## العلاقة بين الفضائل

يقال غالباً ان جميع الفضائل متقارنة: فهذا القول يقتضي بعض ايضاحات.

أ) ان المحبة المفهومة جيداً او الممارسة حسناً تشمل كل الفضائل، لا الايمان والرجاء فقط (وهذا واضح). بل الفضائل الادبية (راجع الكتاب الاول ص ١٢٣ و ١٢٤ و ١٢٥) وهذا صادق ان من يحب الله والقريب لأجل الله مستعد ان يمارس كل فضيلة، حالما يعرفه الضمير بالواجب. وان كانت المحبة الالهية تميل الارادة الى افعال الفضائل الادبية، وتهون ممارستها، فلا تولي مباشرة وضرورة كمال هذه الفضائل كلها، مثلاً كمال الفطنة والاتضاع والطاعة والطهارة. فلنفرض ان خاطئاً يتوب بخلوص نية، بعد ان اعتاد عادات رديئة. انه ولو زاول فضيلة المحبة بصدق طوية عظيم، فلا يكون لأول وهلة لا

فطناً ولا طاهراً ولا قنوعاً تماماً. بل يقتضي له وقت وجهود ليتخلص من العوائد القديمة ويعتاد الجديدة.

(ب) بما ان المحبة هي الصورة والمكمل الاخير لجميع الفضائل، فلا تكون هذه الفضائل تامة ابدأ بدونها، فالإيمان والرجاء المستقران في نفس الخاطيء وان كانا فضيلتين حقيقتين، فلا شكل لهما، أعني انهما فاقدان ذلك الكمال الذي يوجهها الى الله كغاية اخيرة. وكذلك الافعال المصنوعة في حالة الايمان والرجاء لا تستحق السماء؛ ولو كانت فائقة الطبيعة واستعداداً للرجوع الى الله بالتوبة.

(ج) اما الفضائل الادبية فان ملكناها بملء كمالها، أعني متسمةً بالمحبة والى درجة في شيء من أسمو، فهي في الحقيقة متقارنة، بمعنى اننا لا نقدر ان نتملك فضيلة بغير ان نتملك سائر الفضائل. لذلك يجب افتراض الفطنة كي تكون الفضائل كلها تامة. ولا يمكن ان تمارس الفطنة ذاتها تماماً بدون مشاركة القوة والعدل والقناعة: مثلاً، الخلق الضعيف المائل الى الظلم والشرهة تنقصه في مناسبات كثيرة. ولا تمكن ممارسة العدل تماماً بدون شجاعة وقناعة. اما القوة فيجب تلطفيها بالفطنة والعدل، ولا تدوم طويلاً بدون القناعة، وهكذا على التوالي.

اما إذا لم توجد الفضائل الادبية الا بدرجة منحطة، فوجود احداها لا يلاشي ضرورة ممارسة غيرها. لذلك من البشر من هم أطهار بغير ان يكونوا متضعين او متضعون بغير ان يكون رحماء، او رحماء دون ممارسة العدل.

## الفضائل الادبية

فلنوضح بالإيجاز طبيعتها وعددها وعلاماتها العمومية.

طبيعتها. تدعى هذه الفضائل ادبية لسبب مزدوج:

(ا) لتمييزها عن الفضائل العقلية صرفاً، التي تكمل عقلنا دون اية علاقة بالحياة الادبية كالعالم والصناعة الخ.

(ب) لتمييزها ايضاً عن الفضائل الالهية التي تحسن تنظيم اخلاقنا ايضاً، لكنها كما قلنا ان الله هو موضوعها مباشرة، بينما، بينما ان الفضائل تتبع توأ خيراً فائق الطبيعة مخلوقاً، مثلاً السيطرة على اهوائنا. علينا مع ذلك الا ننسى ان الفضائل الادبية الفائقة الطبيعة، هي في الحقيقة ايضاً اشترك في

حياة الله، وتعدنا للمشاهدة الطوباوية. فكلما تكملت هذه الفضائل، ولا سيما حين تكملها مواهب الروح القدس، تقترب كثيراً من الفضائل الالهية، فتصير كمشرية بها، وما هي سوى مظاهر متنوعة للمحبة التي تسمى بصورتها.

عددها. حين نعتبر الفضائل الادبية في فروعها المتنوعة فهي كثيرة جداً. لكن تعود كلها الى أربع اساسية، تسمى محوراً لأنها كما يقال، اربعة محاور اساسية ترتكز عليها سائر الفضائل. وفي الواقع ان هذه الفضائل الاربعة تلبى كل حاجات النفس وتكمل كل قواها الادبية.

أ) تلبى كل حاجات النفس: نحن قبل كل شيء بحاجة لاختيار الوسائل الضرورية، او المفيدة لتحصيل غايتنا الفائقة الطبيعة: هذا هو دور الفطنة. \_ علينا ايضاً ان نحترم حقوق القريب. هذا ما ينشئ العدل. \_ لكن ندافع عن ذواتنا وارزاقنا، وندفع ما يهددنا من الاخطار دون خوف واقتسار، نحتاج الى القوة. \_ لكي نستعمل خيرات هذه الارض، ونتمتع بملاذها دون افراط، تلزمنا القناعة. اذن، هكذا العدل ينظم علاقاتنا مع القريب، والقوة والقناعة مع ذواتنا، والفطنة تدبر الفضائل الثلاث الأخرى.

ب) تكمل كل قوانا الادبية: فالفطنة تنظم العقل، والعدل ينظم الارادة، والقوة تنظم شدة الغضب. والقناعة تنظم الشهوة الحسية. فكما ان شدة الغضب وقوة الشهوة الحسية لا يتكيفون بالأدبية الا بالإدارة، فالقوة والقناعة تستقران في هذه القوة العليا (الارادة) كما تستقران في القوة الدنيا التي تديرها الارادة.

ج) يمكن اعتبار كل من هذه الفضائل كجنس يحوي اقساماً مكملة وتابعة وملحقة فالصبر والثبات هما جزءان مكملان للقوة.

والامسك والطهارة هما قسمان متعلقان بالقناعة. وفضيلة الديانة تلتحق بفضيلة العدل، لأنها تتوخى تأدية العبادة لله. والطاعة تؤدي للرؤساء الخضوع الواجب لهم. فلتسهيل عملنا وعمل القراء، لا ندخل في تعداد كل هذه التقسمات. بل نختار الفضائل الرئيسية التي يجب ان نزاولها. ولا نتوسع الا في الاكثر ضرورة منها.

علامتها العمومية.

ا) كل الفضائل تراعي الحفاظ على الحد الاوسط: ((الفضيلة تستقر في الوسط)). فعلى الفضائل ان تتبع القواعد التي سنها العقل المستقيم المستنير بالإيمان. والحال من الممكن ان نخل في هذه القاعدة بتجاوز الحد او بالتقصير في بلوغه. فالفضيلة اذن تقوم بتجنب هذين الافراطين.

ب) اما الفضائل الالهية بحد ذاتها، فلا تقوم في الحد الاوسط، لأنه كما قال القديس برنردوس، قياس محبة الله هو ان نحبه دون قياس. لكن إذا اعتبرنا هذه المحبة بالنظر اليها، فيجب ان نتخذ الحد الاوسط. وعبادة اخرى يجب ان تديرها الفطنة، التي تدلنا في اية مناسبات نستطيع ان نمارس الفضائل الالهية. فالفطنة هي التي ترينا ما يجب الايمان به وما لا يجب، وكيف ينبغي ان نجانب الادعاء واليأس.

## فضيلة الفطنة

### طبيعتها

لكي نحسن فهم طبيعة الفطنة، علينا ان نحددها ونبين عناصرها.

اولاً. تحديد. الفطنة ادبية فائقة الطبيعة، تميل عقلنا في كل مناسبة الى اختيار أفضل الوسائل لبلوغ غايتنا باخضاعها لغايتنا الاخيرة. ليست هي اذن فطنة الجسد، ولا الفطنة البشرية البحتة. بل هي الفطنة المسيحية.

ا) ليست فطنة الجسد: لان هذه تجعلنا بارعين في ان نجد الوسائل لبلوغ غاية رديئة، ونرضي اهواءنا ونستغني ونحوز الامجاد. وقد حكم الرسول عليها، لأنها عدو الله بتمردها على شريعته. وعدو الانسان الذي تجره الى الموت الأبدي: ((لان فطنة الجسد موت وفطنة الروح حياة وسلام. لان فطنة الجسد عداوة لله اذ لا تخضع لناموس الله بل هي لا تستطيع الخضوع. فالذين هم في الجسد لا يستطيعون ان يرضوا الله)). (رو: ٨: ٦ و ٧ و ٨).

ليست هي الفطنة البشرية البحتة، التي تلتمس الوسائل لبلوغ غاية طبيعية، دون ان تخضع تلك الوسائل الى الغاية الاخيرة، كفطنة الحاذق والتاجر والفنان والعامل، الذين يلتمسون كسب المال او المجد، دون اهتمام بالله وبالسعادة الابدية. فينبغي تذكر هؤلاء ان اكتسابهم العالم باسره لا يفيدهم

شيئاً، إذا خسروا نفوسهم: ((ماذا ينتفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ام ماذا يعطي الانسان فداء عن نفسه)) (متى ١٦: ٢٦).

ب) انما هي الفطنة المسيحية، التي اذ تركز على مبادئ الايمان تحول كل شيء الى الغاية الفائقة الطبيعية، أعني الى الله المعروف والمحبوب على الارض، والممتلك في السماء. لا شك ان هذه الفطنة لا تتفرغ لهذه الغاية التي يعرضها الايمان عليها. بل تحوزها دوماً نصب عينيها، كي تتطلب على نورها أفضل الوسائل، كي توجه كل اعمالنا الى هذه الغاية. اذن انها تهتم بكل تفاصيل حياتنا: تنظم افكارنا كي تصدها عن الابتعاد عن الله. تنظم نياتنا كي تنحّي عنها كل ما يمكن ان يفسد الطهارة. تنظم عواطفنا وشعورنا وارادتنا كي توثقها بالله. تنظم حتى افعالنا الخارجية، وانجاز مقاصدنا، كي تردها الى غايتنا الاخيرة.

ج) تستقر هذه الفضيلة في العقل لأنها تحكم في كل مناسبة خصوصية وتميز ما هو أجدر للحصول على غايتنا. هي علم اجتهاد يضم المبادئ الى معرفة الحقائق الوضعية، التي يجب ان ننظم حياتنا عليها. مع ذلك تتوسط الارادة آمرة العقل بالاجتهاد في اعتبار البواعث والاسباب، التي تسوغ له يختاراً نيراً، وآمرة بعدئذ بانجاز الوسائل المختارة على هذا الاسلوب.

د) ليست الفطنة المسيحية في العقل وحده، بل في العقل المستنير بالإيمان. اننا نجد التعبير الأسمى في عظة الجبل، حيث انجز ربنا يسوع الشريعة القديمة وكملمها، اذ خلصها من تفاسير علماء اليهود المزورة. ان الفطنة الفائقة الطبيعة تستمد اذن نورها والهوماتها من حكم الانجيل، التي تناقض حكم العالم. ولكن توفق هذه الفطنة تلك الحكم على اعمالنا اليومية، تتلقن امثلة القديسين الذين عاشوا بحسب الانجيل، وتعاليم الكنيسة المعصومة من الغلط التي تبادر الى ارشادنا في حالات الشك. هكذا تكون على يقين ادبي اننا لا نضل.

كل ما تستعمله الفطنة هو لائق وفائق الطبيعة، واذ تضاعف الصلاة والاسرار قوانا لعمل الخير، تفضي بنا الى كثير من فضليات النتائج.

ثانياً. عناصر جوهرية: ثلاثة شروط ضرورية خصوصاً للعمل بفطنة: التفكير الناضج والقاصد بتحفظ والتنفيذ الحسن.

(١) يقتضي الامر تفكيراً ناضجاً في تطلب أخص الوسائل لبلوغ الغاية المقصودة، تفكيراً يجب ان يكون بنسبة القصد الواجب اتخاذه وللتفكير بنضوج أكثر، فليتبصر المرء في مقصده ويستشير الحكماء.

(١) فليتبصر في الماضي والحاضر والمستقبل:

في ذكر الماضي فائدة عظيمة جداً: ان جوهر الطبيعة البشرية يستمر على حالته مدى الاحقاب. فيهمنا ان نستشير التاريخ، كي نرى فيه كيف حل اباؤنا ما يقع امامنا من المشاكل: فما بلوه من الاختبارات في حلها ينير غباوتنا، ويقينا كثيراً من العثرات: لإننا اذ نرى من نجاح ومن أخفق، نعرف المهالك الواجب تجنبها، والوسائل الواجب اتخاذاها. لكن علينا ان نستشير خبرتنا الخصوصية. فلربما نكون قد اصطدمنا يوماً منذ صبانا بمثلها من الصعوبات. علينا ان نسأل أنفسنا عما انجحنا، وعما كان سبب اخفاقنا، ونقول لنفسنا بشجاعة: لا اريد ان اعرض نفسي للأخطار ذاتها، ولا للوقوع في التجارب نفسها.

علينا ان نحاسب الحاضر والظروف المختلفة التي نعيش فيها: لكل عصر عوائق ولكل امرئ طابع خصوصية، ونحن أنفسنا لم يعد عندنا، في سن البلوغ، ذات الاميال التي كانت عندنا في زمن صبوتنا. هنا بتوسط العقل اذن كي يساعدنا على تعبير الاختبارات الماضية، اذ يوافقها على الظروف الحاضرة. ليس من الفطنة ترك المستقبل دون استفتاء: قبل ان نعزم على شيء يفيدنا ان نسبق فنتبصر قدر المستطاع نتائج اعمالنا، بالنسبة اليها والى الآخرين. فبذكر الماضي والتبصر في المستقبل يمكننا ان نحسن تنظيم الحاضر.

لكي نطابق ذلك على فضيلة معينة، كالطهارة مثلاً، فالتاريخ يذكرنا ما عمله القديسون لحفظ طهارتهم وسط اخطار العالم وان خبرتي تقول لي ماذا كانت تجارتي، وما استعملت من الوسائل، وماذا كانت نجاحاتي وسقطاتي. فمن ذلك أقدر ان استنتج باحتمال كبير، اية نتيجة لهذا السلوك او لسواه، لهذه المطالعة او لتلك، لهذه المعاشرة او لتلك.

(٢) ليس التفكير بكاف بل تجب معرفة استشارة رجال حكماء وخيرين: فكلمة صديق، وملاحظة قريب، واحياناً تلميذ خادم ايضاً، تفتح اعيننا، وترينا جهة من امور اغفلناها او اهملناها: وفوق ذلك

ان في رأسين من الحكمة أكثر من رأس واحد، و من المباحثات ينبثق النور. ما اصدق هذا في كلام مرشد يعرفنا، وبما انه نصيح في القضية يرى اوضح منا ما هو مفيد لفسنا. فلنستشر اذن باهتمام وامثال رجلاً حكيماً وخبيراً وهذا لا يمنعنا فيما بعد ان نستعمل ذكاءنا الشخصي، الذي يرينا بسرعة ودقة ما في ما يشار به علينا من الصواب بقدر ملاحظتنا.

لكن لا نذهلن عن الالتجاء الى أفضل المشيرين، ابي الانوار، ان صلاة هلم ايها الروح القدس تكون في الغالب افيد من مشورات كثيرة.

ب) متى فكرنا يجب ان نبت اية هي في الحقيقة افعال الوسائل المهمة. فلكي ننجح فيها: (١) فلننقص باعتناء كل الاوهام والاهواء والعواطف، التي من شأنها ان تلقي في الحكم اضطراباً، ولنقف بحزم وجرأة تجاه الابدية لكي نؤمن كل شيء على نور الايمان.

٢) لا نتوقف في سطحية البراهين التي تميلنا الى هذه الجهة او الى تلك، ولنفحصهن كنهها ببصيرة، ونروز مالنا وما علينا.

ت) اخيراً نحكم حكماً باتاً دون استسلام الى التردد المفرط: متى فكرنا في نسبة اهمية العمل ، واخترنا ما ظهرت لنا أفضليته، فلا يوبخنا الله على سلوكنا ، لأننا عملنا كل ما يمكن كي نعرف ارادته القدوسة . فيمكننا ان نعتمد على نعمته كي نتمم مقاصدنا.

ج) علينا في الواقع ان نترث في تحقيق الخطة التي عولنا عليها. وهذا يقتضي ثلاثة امور: التبصر والتيقظ، والحذر.

١) التبصير في الامر: هو حسابان الجهود الضرورية، قبل الوقت لتتميم مقاصدنا، وتذليل ما نصادف من الصعوبات، والوسائل للتغلب عليها، حتى نجعل الجهد بنسبة النتيجة التي نشأ تحصيلها.

٢) التيقظ: علينا ان نفتح عيوننا، ونعتبر الاشياء والاشخاص يميناً وشمالاً كي نستخلص منها أفضل قسم ممكن، ونلاحظ كل الظروف كي نطابق حياتنا عليها، ونراقب الحوادث كي نستفيد منها، إذا كانت موافقة، ونحترس من نتائجها السيئة إذا كانت مضادة.

٣) الحذر: ((اعتنوا ان تسلكوا بحذر لا كالجاهلاء)) (افسس ٥: ١٥). يجب ان نتحفظ في حياتنا الادبية، كما في اشغالنا ونحتاط بالحذر: فالأمور لا تحدث كما تبصرناها، لان حكمتنا محدودة وقابلة الغلط،

وللعدو الروحي عودات يهاجمنا بها كما شرحنا (صفحة ١٣٥ من هذا الكتاب). عندئذ نستعين بما اذخرنا من القوى: الصلاة والاسرار ومشورات المرشد. وهكذا لا نكون ضحية الظروف المفاجئة. ولا نستسلم الى الاضرابات. وبالفلاح ننهي بنعمة الله ما قصدناه بحكمة.

## ضرورة الفطنة

ليست الفطنة اقل ضرورة لسلوكنا الشخصي، من ضرورتها لسلوك الآخرين.

اولاً. لسلوكنا او لتقديسنا. ان الفطنة تمكننا من مجانبة الخطيئة وممارسة الفطنة.

(ا) كي نتجنب الخطيئة، علينا ان نعرف الاسباب والظروف ونلتمس العلاجات ونحسن تهيئتها. وهذا ما تعمله الفطنة، ونستنتج ذلك من درس عناصرها التركيبية: انها بتلقنها الخبرة من الماضي ومن حالة النفس الحالية، ترى ما هو لنا، او ما سيكون لنا في المستقبل سبباً للخطيئة، او نهزة اليها. فتوحي بذلك أفضل الوسائل الواجب اتخاذها لملاشاة تلك الاسباب او لتخفيفها، وتوحي ايضاً الفن الذي ينجح أكثر للتغلب على التجارب، والاستفادة منها ايضاً. فكم من الخطايا ترتكب لولا هذه الفطنة. وكم قد ارتكبت بفقدتها!

(ب) ما الفطنة بأقل ضرورة لممارسة الفضائل وسهولة الاتحاد بالله ايضاً. وبالصواب يشبهون الفضائل بمركبة تقودنا الى الله. والفطنة بسائق المركبة.

وهي ان صح القول باصرة نفسنا، التي ترى الطريق الواجب اتباعها، والعوائق الواجب تجنبها.

(١) ضرورة لممارسة كل الفضائل: لممارسة الفضائل الادبية التي يجب ان تستقر في الحد الاوسط، وتجنب الافراط المضاد. وضرورة ايضاً لممارسة الفضائل الالهية، التي تجب ممارستها في وقت موافق وبوسائل خصوصية: اذن من خصائص الفطنة ان تبحث عن اية هي الاخطار التي تهدد الايمان وعن الوسائل التي تقصئها. وكيف يمكن ان ننمي هذا الايمان فيصبح أكثر ممارسة. وكيف يمكن التوفيق بين الثقة بالله والخوف من احكامه، وكيف يمكن تجنب الادعاء واليأس معاً، وكيف يمكن المحبة ان تسم اعمالنا بصورتها دون ان تعوق ممارسة واجبات حالتنا. ما أكثر ما يجب من الفطنة لممارسة المحبة الاخوية!

٢) هي أكثر ضرورة ايضاً لممارسة بعض الفضائل تظهر انها متناقضة، كالعدل والاستقامة واللطف والقوة، والتقشفات المقدسة والعناية الصوابية بالصحة، والتفاني في سبيل القريب والطهارة والحياة الداخلية والعلائق.

ثانياً. ليست الفطنة بأقل ضرورة ايضاً لممارسة الرسالة:

ا) توجي الى الكاهن على المنبر، بما يجب ان يقول ويسكت عنه، وكي يقوله كي لا يغيظ السامعين، ولكي يطابق درجة فهمهم ويؤثر ويهدي. ولعلها أكثر ضرورة لتعليم الاحداث التعليم المسيحي، كي يطبع في نفوسهم رسماً يدوم كل حياتهم.

ب) وهي ضرورية للمعرف في منبر الاعتراف، كي يكون قاضياً فطناً زكياً يميز وزر التائبين ويسألهم بدقة كلاً بحسب سنه وحالته، ويثقف دون عثار، كأن يترك بعض النفوس في سلامة نيتها وخلوصها؛ او ينورها؛ وكطبيب يستطيع ان يستقصي بذوق سليم عن اسباب المرض، ويصف العلاج بحكمة؛ وكأب غيور يلقي الثقة بتحفظ كي لا يوجي عطفاً بشرياً شديداً.

ت) ما أكثر ما يلزم الكاهن من الذوق السليم في العمادات والمناولات الاولى، والزيجات والمسحة الاخيرة والجنائز كي يوفق بين رغبات العائلات والنظامات الالهية والطقسية! وكم يقتضي من الرصانة في زيادة المرضي والرسالات!

ث) كذلك في ادارة الرعايا الزمنية، وفي ما يتقاضاه الكاهن في الحفلات المتنوعة. وفي تحصيل لوازم الكنيسة، دون اغاظة ابناء الرعية وتشكيكهم، ودون ثلم صيت النزاهة الكاملة الواجب على الكاهن ان يجوزها.

### الوسائل للتكامل في هذه الفضيلة

الصلاة هي الوسطة العامة الملائمة كل الفضائل الادبية والالهية، بها نجتذب يسوع وفضائله. نذكر ذلك مرة واحدة، كي لا نلتزم العود اليه. ولا نتكلم الا عن الوسائل الخصوصية بكل فضيلة.

اولاً. المبدأ العام يتصدر كل المبادئ ويوافق كل النفوس، هو رد كل احكامنا ومقاصدنا الى الغاية الاخيرة الفائقة الطبيعة. هذا ما اشار به القديس اغناطيوس في اول الرياضات الروحية، في تأمله الاساسي.

كل النفوس لا تفهم هذا المبدأ بشكل واحد: فاذ يعتبر المبتدئون غاية الانسان، يشددون على خلاص النفس، اما الكاملون فيشددون على مجد الله. وهذا الشكل الثاني أفضل، لكن لا يستطيع كل النفوس ان تفهمه وتتذوقه. فلكي نجعل هذا المبدأ محسوساً وواضحاً لنظرنا كل الوضوح، نعلقه ببعض حكم مثلاً: ماذا يكون هذا بالنسبة للأبدية؟ ما ليس بأبدي ليس بشيء. ماذا يتفع الانسان لو ربح العالم...؟ ان التعمق عملياً ببعض هذه الحكم، والعود اليها حتى نألفها، واعتياد الحياة بموجبها هي الوسيلة لتوطيد اسس الفطنة المسيحية فينا.

ثانياً. متى تسلح المبتدئون لهذا المبدأ، يجدون في التخلص من نقائص تضاد الفطنة المسيحية.

(ا) هكذا يصارعون بحزم فطنة الجسد التي تطلب بجشع طرائق ارضاء الشهوة المثلثة، ويقمعون محبة اللذة ويتذكرون ان افراح هذا العالم الكاذبة التي تعقبها في الغالب حسرات مرة، ليست شيئاً بالنسبة الى الافراح الابدية.

(ب) يعتنون بطرح الدهاء والمكر والخداع، ولو في تتبع غاية شريفة، عالمين ان الاستقامة هي أفضل سياسة، وان الغاية لا تبرر الوسيلة، وان وداعة الحمام يجب ان تمتزج، بحسب الانجيل بفطنة الحية. ان هذا ضروري للغاية لان العالم يعيب احياناً زوراً وبهتاناً الكهنة والمتعبدین والرهبان، فلنعتن بممارسة الاستقامة الكاملة وبساطة الانجيل.

(ت) يعملون على كبح الاوهام والاهواء التي هي عناصر الحكم المشوش: اوهام تجعلنا نجزم استناداً الى اسباب متخيلة غير مبحوث فيها، قد تكون باطلة وغير صوابية. الاهواء والكبرياء وحب اللذات الجسدية، والتنعم والعناية المفرطة بخيرات العالم التي تقيم النفس وتقعدها، فتجعلها تختار الذ الاعراض الزمنية وانفعها. فللعتق من هذا النفوذ المشوش، يتذكرون الحكم الانجيلية: ((اطلبوا ملكوت الله وبره)) (متى ٦: ٣٣). ويتحاشون البت بتأثير هوس شديد. ينتظرون حتى تعود السكينة الى نفوسهم. وإذا اضطروا للإسراع في الحكم، يتأملون على الاقل هنيهة كي يجعلوا أنفسهم تحت نظر الله، ويطلبوا نوره ويتبعوه بأمانة.

(ث) لمقاومة الطيش والتسرع في الاحكام، يجتهدون في الا يعملوا شيئاً دون تفكير وسؤال ذواتهم، ما الداعي لهذا العمل، أحسنه تكون نتائج اعمالهم ام سيئة، نظراً للأبدية. اما قياس هذا التفكير فعلى

قدر الحكم الواجب اتخاذه، وفي الامور المهمة يستشيرون حكيماً وخبيراً. فيعتادون شيئاً فشيئاً الا يبتوا في امر ولا يعملوا شيئاً دون توجيه الى الله والى غايتهم الاخيرة.

(ج) اخيراً، لتجنب الحيرة والتردد المفرط في القرار، يعتنون بنزع اسباب هذا الداء الروحي (روح الارتباك والحيرة الخ.) فيفوضون الى مرشد حكيم سنّ منهاج معين، يتبعونه، وفي الصعوبات يستشيرون.

اما النفوس الناجحة، فتتكمّل بالفطنة على ثلاثة اشكال.

(ا) بدرس اعمال ربنا يسوع واقواله في الانجيل، كي تنهج على ما تجده فيه طريقة سلوك، وتجلب اليها بالصلاة والافتداء عواطف هذا المعلم الالهي.

(١) فندهش من فطنته في حياته الخفية: فقد قضى ثلاثين سنة في ممارسة هذه الفضائل التي تشق علينا ممارستها، وهي الاتضاع والطاعة والفقير، اذ نتبصر انه لولا درس هذه الامور لما كنا عرفنا ممارسة هذه الطاعة الضرورية جداً. ولا يكون دهشنا من فطنة يسوع في حياته العمومية أخف من ذلك: قد حارب الشيطان بشكل خيب مقاصده وأفحمه بأجوبة لا مرد عليها. تدرج في تعليمه مراعيّاً الظروف، ولم يعلن ذاته مسيحياً وابن الله الا تدريجياً. استعمل تشابيه عامية كي يفهم فكره باجلى بيان، وامثالاً ليكتمه او ليكشفه حسب ما تقتضيه الظروف. كشف خصوصية بمهارة، وجاوب اسئلتهم الخداعة بأسئلة اوقعتهم في حيرة. هذب تلاميذه تدريجياً محتملاً نقائصهم، وجعل تعاليمه تناسب فهمهم: ((لكنكم لا تطيقون حملة الآن)) (يو١٦:١٢). لكنه عرف ان يقول لهم حقائق قاسية، كإعلان آلامه كي يعدهم لشك الصليب. حتى انه في إبان آلامه المبرحة، بسكينة من حكموا عليه كما جاوب الخدام ايضاً بلطف، وعرف ان يصمت حين يجب ... ومختصر الكلام عرف ان يوفق في امر بين الفطنة السامية والحزم والامانة في الواجب.

(٢) اما تعليمة فيختصر بهذه الكلمات: ((اطلبوا ملكوت الله وبره)) (متى ٦:٣٣). ((كونوا حكماء كالحيات وودعاء كالحمائم)) (متى ١٠:١٦). ((اسهروا وصلوا)) (مز ١٣:٣٣).

فالتأمل في هذا التعاليم والأمثال الابتهاال بحرارة الى السيد المسيح يشركنا بقسم من هذه هي الوسطة الاساسية للتكتمل بهذه الفضيلة.

ب) تمارس هذه النفوس المبادئ الاساسية للفتنة التي تكلمنا عنها، أعني الذوق السليم، واعتياد التفكير، والامثال لاستشارة الغير وروح العزيمة والتبصر والتيقظ.

ت) اخيراً يسمون فطنتهم بسمات وصفها يعقوب الرسول، فبعد ان ميز الحكمة الحقيقية من الزائفة قال: ((هل فيكم ذو حكمة ودراية فليبد اعماله من حسن تصرفه بوداعة الحكمة. فأما ان كنتم ذوي غيرة مرة ومنازعة في قلوبكم فلا تفتخروا ولا تكذبوا على الحق. ليست هذه الحكمة نازلة من فوق بل هي ارضية حيوانية شيطانية. لأنه حيث تكون الغيرة والمنازعة فهناك تشويش وكل امر سوء. اما الحكمة التي هي من فوق فأنها اولاً عفيفة ثم مسالمة حليلة سهلة الانقياد مملوءة رحمة واعمالاً صالحة. لا تدين ولا تراءى. وفاعلو السلامة يزرعون بالسلامة اثمار البر)) (يعقو ٣: ١٣\_١٨).

عفيفة: ساهرة على حفظ طهارة الجسم والقلب التي توحدنا بالله وبالحكمة الازلية ايضاً. مسالمة: حافظة سلام النفس والسكنية والاتزان التي تسوغ اتخاذ الاحكام الرشيدة.

حليلة: تساهل تام مع الاخرين.

مملوءة رحمة وثماراً صالحة: فائضة شفقة على البائسين، راغبة ان تصنع معهم خيراً، لأنه من علامات الحكمة المسيحية جمع الكنوز للسماء. لا تدين ولا تراءى: لا تعرف الحزبية ولا الخداع، ولا الرياء تلك النقائص التي تبلبل النفس والحكم.

اما الكاملون فيمارسون الفتنة سامية متأثرة بموهبة المشورة، كما سنبين ذلك في البحث عن طريق الاتحاد.

## فضيلة العدل

## طبيعة العدل

تحديد. كثيراً ما تدل كلمة العدل في الكتاب المقدس، على مجموع الفضائل المسيحية. هكذا يعلن ربنا يسوع سعداء اولئك الذين يعطشون الى البر، أعني الى القداسة: ((طوبى للجياع والعطاش الى

البر)) (متى ٦:٥). لكن بحصر المعنى الذي نستعمله هنا تدل على تلك الفضيلة الادبية الفائقة الطبيعة، التي تعطف ارادتنا على تقديم ما يجب للقريب دائماً وبتدقيق.

العدل فضيلة مستقرة في الارادة تنظم واجباتنا نحو القريب. فيتميز عن المحبة، الفضيلة الالهية التي تجعلنا نعتبر الغير كأخوة يسوع، وتحملنا على ان نقدم لهم خدمات لا يتطلبها العدل الحصري. سموه. ان العدل يجعل النظام و السلام سائدين في الحياة الفردية و الاجتماعية معاً لأنه يحترم حقوق كل انسان، و يجعل الصدق مسيطراً على الاعمال، و يقمع الغش و يدافع عن حقوق الصغار و الاذلاء، و يكبح اغتصاب الاشداء و ظلمهم، و يضع النظام في الجماعة. بدونه يبيت الامر فوضى، ويندس الخصام بين المصالح المضادة، و يظلم الاقوياء الضعفاء، وينتصر الشر.

فاذا كان هذا سمو العدل الطبيعي، فكم يكون أسمى العدل المسيحي، الذي هو اشتراك بالعدل الالهي نفسه؟ فاذ يشركنا الروح القدس في هذا العدل، يولجه اعماق نفسنا ويثبتته، فلا يلحقه فساد، و يضيف اليه عناية زائدة بحقوق القريب، ينفر من الظلم بحصر المعنى، بل من أخف خشونة.

العدل نوعان: عام وخاص. فالعام يفرض على الافراد ان يؤدوا للجماعة ما لها عليهم. والخاص يفرض ان يؤدي لكل ما يحق له من خيرات الجسد والنفس، الحياة والحرية والشرف والصيت. وبما ان الخير العام يفوق الخير الخاص فعلى المواطنين ان يضحوا في بعض الحالات بقسم من ارزاقهم وحريرتهم، حتى بحياتهم دفاعاً عن وطنهم. وعلى ارباب الجماعات أي السلطات ان توزع المنافع و المناصب على قدر استحقاق كل شخص، لا بحسب هواها، مراعية قواعد الاستقامة. ففضيل البعض واضطهاد الاخرين هو خرق العدل التوزيعي الواجب على السلطات نحو رعاياها.

## قواعد اساسية لممارسة العدل

اولاً. من الواضح ان المتعبدين والرهبان والكهنة ملتزمون بممارسة العدل بكمال ولطف أعظم من اهل العالم: عليهم ان يعطوا مثلاً صالحاً في مواد الشرف وسائر الفضائل. والعمل بعكس ذلك تشكيك للقريب، ويفسح مجالاً لاحتجاج الخصوم باستقباح الديانة. ويقف عقبة في وجه النمو الروحي: لا يمكن إله كل عدالة ان يصادق من يتعدون علناً اوامره الصريحة بالعدل.

ثانياً. اجتهادات.

(١) علينا قبل كل شيء ان نحترم حق تملك الخيرات الزمنية.

(ا) فلنحارب اذن بأعظم اعتناء السرقات الزهيدة، التي تجر في الغالب بمزالقتها الى مظالم عظمى. ولنطبع في اذهاننا هذا المبدأ منذ حدثتنا حتى نكره طبيعياً صغريات المظالم. ولنحارب بالأحرى تلك السرقات التي يرتكبها التجار واصحاب الحرف، الذين يعمدون الى الخداع في نوع البضائع وكميتها، بحجة ان مزاحميتهم هكذا يعملون، او يبيعون بأثمان فاحشة، ويشترون بأثمان تدعو الى السخرية، بخدايعهم من يعاملونهم لسذاجتهم. فلنبتعد عن هذه التخمينات الجسورة، والاعمال الداعية الى الريبة، حيث نخاطر بثروتنا وثروة الاخرين بحجة كسب ارباح كبيرة.

(ب) ولنكره الاستدانة حين لا نكون واثقين من مقدرتنا على الوفاء. وان ارتبطنا ببعض ديون، فواجب الشرف يضطرنا الى ردها في أقرب وقت.

(ت) وان استعرنا متاعاً، فلنستعمله باحتراس أكثر من متاعنا. ولا ننس ان نرده بأسرع ما يمكن. فكم من الاختلاسات لا يشعر بها حين يهمل هذا التيقظ!

(ث) وان سببنا ضرراً عمداً، نلتزم من باب العدل اصلاحه. اما إذا كان الضرر غير مقصود، فلا نلتزم اصلاحه وجوباً. اما من يقصدون الكمال فيصلحونه بقدر استطاعتهم المالية.

(ج) متى قلبنا كوديعة مالية، او بوليصة للأعمال الخيرية، علينا ان نتخذ كل الاحتياطات الشرعية الضرورية كي يُحسن استعمالها حسب نياب من اعطوها، ان فاجأنا الموت. ويصدق هذا خصوصاً في الكهنة الذين يقبلون حسنات قداديس، او صدقات: فعليهم لا ان ينظموا حساباتهم فحسب، بل ان يتخذوا لهم وصياً عاماً او منفذ وصية كاهناً يؤمن وفاء القداديس، او يحسن استعمال الصدقات.

(٢) ليس احترام صيت القريب وشرفة بأقل ضرورة.

(ا) فلنحارب اذن دينونة القريب باطلاً: ان الحكم على اخوتنا لمجرد الظواهر، او لدواع تكاد تافهة، دون معرفتنا نياتهم تماماً، هو اختلاس حقوق الله، الذي هو وحده القاضي السامي للأحياء والاموات؛ هو ظلامة للقريب، لأننا نحكم عليه بغير ان نسمع منه، دون ان نعرف البواعث الخفية لأعماله،

وكثيراً ما تحكم عليه بدافع الوهم والهوس. فالعدل والمحبة تقتضيان العكس، الامتناع عن الدينونة، وإما تأويل اعمال القريب الى الطف ما يمكن.

ب) علينا ان نمتنع عن النميمة التي تظهر للغير خطايا وقائص القريب الخفية. ان كانت هذه النقائص، على فرض، حقيقية فلا يحق لنا ان نكشفها مادامت غير شائعة. فبنميمنتنا هذه: نحزن القريب الذي يرى صيته مسلوباً، فيتألم لذلك بقدر محافظته على شرفه. ونخفض منزلته عند نظرائه. نضعف سلطته وشهرته المفترق اليهما لإدارة اعماله، ولمباشرته نفوذاً شرعياً، له احياناً خسائر تكاد لا تعوض.

لا تقل يا هذا ان من تحدّث عن ذنوبه لا حق له بصيته. انه يحافظ عليه ما دامت ذنوبه غير مشتهرة. مع ذلك يجب الا نبعد عن فكرنا كلام المخلص: ((من كان منكم بلا خطيئة فيبدأ ويرمها بحجر)) (يو: ٨: ٧). قد كان القديسون رحماء للغاية، ويدافعون بكل الوسائل عن صيت اخوتهم. فلا نقدر ان نحسن اعمالنا الا بالاقتداء بهم.

ت) بذلك نتحقق أكثر اننا نجانب الافتراء، الذي به نشكو القريب بتهم كاذبة لم يرتكبها. ان الافتراء هو ظلم شديد الثقل، بقدر ثقل الخباثة او الحسد الناشئ عنهما في الغالب. ما أكثر الشرور التي يجلبها! يا للأسف انه يحتفى به كثيراً! ويا لخباثة البشرية ينتقل سريعاً من فم الى فم، ويمحق سمعة من هم ضحيته، ويلاشي سلطتهم. وحياناً يلحق بهم ضرراً كبيراً حتى في اشغالهم الزمنية.

من الواجب اللزم اذن اصلاح اضرار النميمة والافتراء. لا شك ان هذا صعب. لأنه يكلف النمام والمفتري الرجوع عن كلامهما، ومن جهة اخرى، مهما يكن الرجوع صادقاً، فليس له من تأثير سوى تلطيف الظلامة المرتكبة: فالكذب المستدرك يترك في الغالب اثرًا لا يمحي. وهذا لا يعفي من الظلامة المرتكبة. بل يجب الاهتمام بالإصلاح بحزم وثبات بقدر كبر الشر. ويجب ان تحملنا صعوبة الإصلاح على ان نكف عن ارتكاب هذه النقيصة الجسيمة ونحب القريب.

## فضيلة الديانة

انها ترتبط بفضيلة العدل لأنها تجعلنا نؤدي لله العبادة الواجبة.

## طبيعة فضيلة الديانة

هي فضيلة ادبية تعطف ارادتنا الى تقديم العبادة الواجبة لله، لأجل سموه غير المتناهي وسلطانه المطلق.

(ا) هي فضيلة خصوصية متميزة عن الفضائل الثلاث الالهية، التي الله نفسه موضوعها المباشر، بينما ان موضوع الديانة الخاص، هو عبادة الله، داخلية كانت ام خارجية. لكنها تفرض فضيلة الايمان التي تثيرنا في حقوق الله. وحين تبلغ كمالها تتسمم بفضيلة المحبة، وتكون اخيراً تعبيراً واعلاناً للفضائل الالهية الثلاث.

(ب) اما موضوعها الصوري او السببي فهو معرفة سمو الله اللامتناهي، المبدأ الاول والغاية الاخيرة والكائن التام والخالق الذي يخضع له الكل واليه مصير الجميع.

(ت) اما ما تحملنا الديانة عليه من الافعال فهي داخلية وخارجية. بالأفعال الداخلية نسلم الى الله نفسنا وقواها ولاسيما العقل والارادة. واولها واهمها العبادة التي نخضع كياننا باسره لمن هو ملء الكيان، ومصدر كل ما في الخليقة من صلاح. يرافق فعل العبادة او يتبعه، العجب الاحترامي الذي نشعر به عند نظرنا كمالته غير المتناهية. وبما انه مبدع كل ما نملك من الخيرات نعلن له شكرنا. واذ نتذكر اننا خطاة، نشعر بعواطف التوبة كي نكفر عما خطئنا به الى جلاله غير المتناهي. وبما اننا مفتقرين الى معونته كي نصنع الخير ونبليغ غايتنا، نرفع اليه صلواتنا وطلباتنا معترفين انه مصدر كل خير.

تظهر هذه العواطف الداخلية بالأفعال الخارجية، التي تتعاضم قيمتها بقدر ما تكون الافعال الداخلية، التي هي عبارة عنها، اوفر كمالاً. ان اهم هذه الافعال انما هو بلا مرآة الذبيحة، الفعل الخارجي والاجتماعي، الذي به يقدم الكاهن لله باسم الكنيسة ضحية مذبوحة، كي يعترف بسلطانه السامي، ويكفر الالهانة الملتحقة بعظمة ويشترك معه. ليس في الشريعة الجديدة سوى ذبيحة واحدة، هي ذبيحة القداس، التي بتحديداتها ذبيحة الصليب، تقدم لله عبادة غير متناهية، وتنال للبشر كل ما يحتاجون اليه من النعم، وقد أشرنا الى المفاعيل والاستعدادات الضرورية للاستفادة منها (الكتاب الاول صفحة ١٠٦ وما يليها). الى هذا الفعل الجوهرى تضاف: الصلوات الجمهورية المقدمة باسم الكنيسة بواسطة ممثلها، خصوصاً الفرض الالهي، وبركة القربان المقدس. الصلوات اللفظية الفردية. الايمان والندور المفعول برصانة ولتمجيد الله، والمرعية فيها كل الشروط

المنصوص عليها في ابحاث اللاهوت الادبي. الافعال الفائقة الطبيعية الظاهرة المصنوعة لمجد الله حسب عبارة القديس بطرس: ((هي ذبائح روحية مقبولة لدى الله)) (١ بطر ٢:٥).

نستطيع ان نستنتج من ذلك ان فضيلة الديانة هي اُسمى الفضائل الادبية، لأنها، اذ جعلنا نمارس العبادة الالهية، تقربنا الى الله أكثر من سائر الفضائل.

### ضرورة فضيلة الديانة

اولاً. على الخلائق ان تمجد الله. إذا وجب على كل ان يعلن مجد الفنان الذي عمله، فكم يجب بالأكثر على الخليفة ان تمجد خالقها؟ فليس ما يعمله الفنان شيئاً سوى توجيه عمله واعطائه شكلاً، ومتى انجزه انتهى دوره. اما الفنان الالهي فلم يعط خلائقه شكلاً فقط، بل اخرجها باسرها من العدم، ولم يترك فيها اثرًا من عبقريته فحسب، بل انعكاساً من كمالته ايضاً. ولم يعتني بها ويحفظها ويساعدها ويشاركها في العمل وبنعمة، حتى انها باتت مرتبطة به ارتباطاً تاماً.

عليها اذن ان تعلن مجد مبدعها أكثر بكثير من المصنوعات للصانع. هذا ما تعمله الكائنات الجامدة على طريقته، بكشفها لنا عن جمالها واثلافها، فتدعونا الى تمجيد الله: ((السموات تنطق بمجد الله والجلد يخبر بعمل يديه))

(مز ١٨:٢). ((هو صنعنا لا نحن)) (مز ٩٩:٣). ذلك احترام لا يمجد الله سوى تمجيد ناقص، بحيث لا شيء فيه من الحرية.

ثانياً. من خصائص الانسان اذن ان يمجد الله بطريقة واعية، وان يعير قلبه وصوته هذه الخلائق الجامدة لكي تقدم لله احتراماً عاقلاً حراً. من خصائصه، بما انه ملك البرايا، ان يتأمل في جميع هذه البدائع كي يعيدها الى الله، و ان يكون حبراً لها. عليه ولا سيما، ان يحمده باسمه الخاص: بما انه

اكمل الكائنات غير العاقلة، و مخلوق على صورة الله و مثال و شريكه في حياته، عليه ان يحيا بعجب دائم، و عبادة خالقه و شكر مقدسه و حبه. هذا ما جاهر به القديس بولس: ((ان كل شيء هو منه و به فله المجد مدى الدهور)) (رو ١١:٣٦). ((ما من أحد منا يحيا لنفسه ولا أحد يموت لنفسه. ولكن ان حيننا فللرب نحيا وان متنا

فللرب نموت فان حيننا اذن او متنا فللرب نحن)) (رو ١٤:٧ و ٨) ثم يضيف ((مجداوا الله واحملوه في اجسادكم)) (١ كو ٦:٢).

ثالثاً. هذا الواجب يلزم الكهنة بالأخص. ان اغلب البشر يا للأسف! اذ ينهمكون في اشغالهم وملاذهم، لا يخصصون للعبادة سوى وقت قليل جداً. فاختر الله منهم من يرفعون باسمهم وباسم الجماعة كلها فروض العبادة. هذا هو دور الكاهن وسيط الديانة بين السماء و الارض، يمجد الله و يحمل اليه احترام المخلوقات، و ينزل على الارض و ابل النعم و البركات: ((كل حبر متخذ من الناس يقام لأجل الناس فيما هو لله ليقرب تقادم و ذبائح عن الخطايا)) (عبر ٥:١). فتؤمنه الكنيسة على وسيلتين مهمتين، الفرض الالهي و الذبيحة المقدسة. فعليه ان يصلي بحرارة ليوفي هذا الواجب حقه (راجع صفحة ١٤٥ الى ١٦٠ من الكتاب الاول).

## ممارسة فضيلة الديانة

ينبغي لممارسة هذه الفضيلة حسناً، الترويض على التقوى الحقيقية، وعلى استعداد الارادة المألوفة، الذي يحملنا بسرعة و سخاء على كل ما فيه خدمة الله. ذلك في الحقيقة مظهر من مظاهر محبة الله. هكذا ترتبط الديانة بالمحبة.

يمارس المبتدئون هذه الفضيلة:

(ا) بحفظ وصايا الله و الكنيسة حسناً، في الصلاة و تقديس الاحاد و الاعياد.

(ب) بتجنب التثنت الاعتيادي الخارجي و الداخلي، مصدر تثنت جملة في الصلاة. تتجنب بشيء من التيقظ كي تقاوم تيار التسليات العالمية الجارف، الباطلة.

(ت) بالاخلاء داخلياً قبل الصلاة كي تنتبه أكثر، و بممارسة رياضة استحضار الله المقدسة (راجع صفحة ١٧٥ من الكتاب الاول).

يجتهد النامون في الولوج الى الديانة، بالاتحاد بيسوع المتعبد العظيم للآب، الذي مجده بحياته على منوال لا ينتهي (راجع القطعة الاخيرة من صفحة ٥٢ من الكتاب الاول) .

(ا) ان روح الديانة يتضمن استعدادين اساسيين: الاحترام والمحبة. الاحترام عاطفة اجلال عميق ممتزجة بخوف، بها نعرف الله كمبدعنا ومولانا المطلق. والمحبة تتجه الى الاب المحبوب والمحبة كثيراً، الذي شاء ان يتبنانا ولايزال يختضنا بحنوه الابوي. فمن هاتين العاطفتين تتجسس سائر العواطف: العجب والشكر والحمد.

(ب) اننا نغترف عواطف الديانة من قلب يسوع الاقدس. لم يخَي هذا الوسيط الالهي الاليمجد اباه: ((انا قد مجدتك على الارض)) (يو ١٧: ٤). قد مات كي يعمل مشيئة ابيه ويرضيه رضواناً كاملاً، مؤكداً انه لا يرى شيئاً يستحق الحياة والبقاء امام الله. وبعد موته يتابع عمله لا في الأفخارستيا فحسب، حيث لا ينفك يعبد الثالوث الاقدس، بل يعمل في قلوبنا حيث ينشئ بروحه الالهي في نفوسنا، استعدادات تقوية شبيهة باستعداداته. انه يحيا في المسيحيين بل يحيا خصوصاً في كهنته، وبهم يمجد من يستحق وحده ان يعبد ويحترم، وعلينا اذن ان نجذبه الينا برغبات حارة، ونقدم له ذواتنا كي يمارس فينا ومعنا وبنا فضيلة الديانة: ((يأتي الينا في الأفخارستيا ويلج نفوسنا ويعطرها ويملاها من عواطف روحه. حتى انه يجعل من نفسه ونفسنا نفساً واحدة ينعشها بروح الاحترام ذاته، والحب والحمد والتضحية الداخلية والخارجية معاً في كل امر لمجد الله ابيه)) (اولية).

(ت) لا ننس ان يسوع يطلب مساعدتنا. فعلياً ان نحيا معه وفيه بروح التضحية، حابسين اميال الطبيعة الفاسدة وملبيين الهامات النعمة. عندئذ ترضي الله كل اعمالنا، ونعلن كلية الله وعدم الخليقة، فنضحى بكل كياناتنا وافعالنا لمجد الله الاعظم.

(ث) نفعل ذلك خصوصاً في افعال الديانة، و في حضور القداس، و الصلوات الطقسية او غيرها (كما شرحنا في الصفحات ١٠٨ و ١١٤ و ٢٠٨ و ٢٠٩ من الكتاب الاول).

يمارس الكاملون هذه الفضيلة بتأثير موهبة القوى التي سنتكلم عنها فيما بعد.

## فضيلة الطاعة

ترتبط هذه الفضيلة بالعدل، لان الطاعة اكراماً، هي فعل خضوع واجب للرؤساء. لكنها تتميز عن العدل، بما انها تتضمن تفاوتاً بين الرؤساء والمرؤوسين.

### طبيعة الطاعة واساسها

اولاً. تحديد. الطاعة فضيلة ادبية فائقة الطبيعة تعطف ارادتنا للخضوع الى ارادة الرؤساء الشرعيين، بما انهم ممثلو الله. فيجب اولاً شرح هذه الكلمات الاخيرة لأنها اساس الطاعة المسيحية. ثانياً. اساس هذه الفضيلة. ترتكز الطاعة على ملك الله السامي، وعلى ما يجب على الخلفية من الخضوع المطلق لجلاله.

(١) من الواضح انه يجب قبل كل شيء ان نطيع الله (راجع صفحة ١٨٩ من الكتاب الاول).

(١) بما ان الله خلقنا، علينا ان نخضع خضوعاً تاماً لإرادته المقدسة. ان كل الخلائق تطيع صوته: ((الكل عبيد لك)) (مز ١١٨: ٩١). غير ان الترام المخلوقات العاقلة ذلك أكثر من سواها، وبما اننا اقتبلنا منه أكثر منها، خصوصاً موهبة الحرية، فلا نستطيع ان نحسن شكرنا له الا بإخضاع ارادتنا طوعاً لإرادة مبدعنا.

(٢) واذ نحن ابناء الله نلتزم اطاعة ابينا السماوي كما اطاع يسوع نفسه الذي اذ دخل العالم بالطاعة، لم يخرج منه الا بالطاعة: ((صار مطيعاً حتى الموت)) (فيلبي ٢: ٨).

(٣) واذ فدينا من التقيد للخطيئة، فلسنا بعد لأنفسنا بل ليسوع المسيح، الذي سفك دمه كي يجعلنا خاصته: ((انكم لستم لأنفسكم لأنكم اشتريتهم بثمن كريم)) (١ كو ٦: ٩ او ٢٠). علينا اذن ان نطيع شرائعه.

ب) علينا بهذا الامر نفسه ان نطيع ممثلي الله الشرعيين: هذا ما ينبغي ان نحسن فهمه. (١) اذ رأى الله ان الانسان لا يقدر ان يستغني عن معين في تقويمه الطبيعي وتثقيفه العقلي والادبي، شاء ان يحيا هذا الانسان حياة اجتماعية. والحال لا تستطيع الجماعة ان تقوم بدون سلطة توجه جهود اعضائها الى الخير العام وتنظمها. اذن لقد شاء الله ان تكون جماعة متسلسلة برؤساء يتقلدون سلطان الامر،

ومرؤوسين عليهم ان يطيعوا. ولكي يجعل هذه الطاعة أسهل، فوض سلطانه الى رؤساء شرعيين: ((لا سلطان الا من الله والسلطين الكائنة انما رتبها الله)) (رو ١:٣). حتي ان الطاعة لهؤلاء انما هي الطاعة لله، ومقاومتهم انما هي استقبال الدينونة: ((من يقاوم السلطان انما يقاوم ترتيب الله والمعاندون يجلبون الدينونة على أنفسهم)) (رو ١٣:٢). من واجب الرؤساء ألا يستعملوا سلطتهم إلا كما قلدهمها الله، ليمجدوا ويعززوا خير الجماعة العام. فان أخلوا في ذلك فهم مسؤولون عن نقص السلطان هذا، امام الله وامام ممثليه. غير ان واجب المرؤوسين انما هو الطاعة لممثليه كالطاعة لله نفسه: ((من سمع منكم فقد سمع مني ومن احتقركم فقد احتقرني ومن احتقرني فقد احتقر الذي ارسلني)) (لو ١٠:١٦) ونرى برهان ذلك: انه بدون هذا الخضوع لا يكون، في مختلف الجمعيات سوى تشويش وفوضى، وكلٌ منها يتألم.

(٢) من هم الرؤساء الشرعيون؟ هم الذين اقامهم الله على رأس الجماعة المتنوعة.

نستطيع ان نميز في النظام الطبيعي ثلاث طرائق من الجماعات: الجماعات البيتية او العائلة التي يرأسها الابوان ن ولاسيما اب العائلة. والجماعة المدنية التي يديرها ضابط والسلطة الشرعيون بحسب الانظمة، التي تعرفها الشعوب المتنوعة. والجماعة المهنية حيث يكون ارباب اعمال وفعلة تعين حقوقهم وواجبهم المتبادلة في عقد العمل (رسالة لاون الثالث عشر). في النظام الفائق الطبيعة. فالرؤساء المتسلسلون هم: الحبر الاعظم صاحب السلطان المطلق والمباشر في الكنيسة عموماً. الاساقفة الذين لهم سلطان على ابرشياتهم الخصوصية، وتحت سلطانهم كهنة الرعايا والنواب، كل في الحدود التي يرسمها لهم الحق القانوني. وفي الكنيسة، فوق هذا، جماعات خصوصية لهم فرائض وقوانين ثبتها الحبر الاعظم او الاساقفة، يسمى رؤساؤها طبقاً للفرائض او القوانين. هناك ايضاً نكون تجاه سلطات شرعية. وبالتالي من يدخل في جمعية يتقيد في الوقت نفسه بحفظ قوانينها، وفرائضها، وطاعة رؤساءها الذين يأمرون ضمن الحدود المعينة في القانون.

(ج) لممارسة السلطة اذن حدود مرسومة معينة. (١) قبل كل

شيء، من الواضح انه ليس من إلزام، ولا يسمح بان يطاع رئيس يأمر بما يضاد صريحاً الشرائع الالهية او الكنيسة. ففي هذه الحالة نكرر قول القديس بطرس: ((ان الله أحق من الناس بان يطاع)) (اعما ٢٥:٢٩). قول ينجي الحرية المسيحية ويثبتها ضد كل ظلم. كذلك ان امر الرئيس بالمستحيل علانية:

لا يلتزم أحد المستحيل. لكن بما اننا في حالة الشك معرضون للضلال، فعلينا ان نفرض الرئيس على حق: في حالة الشك يفترض الحق للرئيس.

(٢) إن امر رئيس خارج حد امتيازته: مثلاً إذا اعترض اب دعوة ولده المدروسة بترو، يتعدى حقوقه، ولا يلتزم الولد ان يطيعه. وهذا الامر نفسه يجري في رئيس يأمر خارج ما تخوله الفرائض والقوانين، التي وضعت بحكمة حدوداً لسلطته.

## درجات الطاعة

اولاً. يجد المبتدئون في الحفاظ بأمانة على وصايا الله والكنيسة، وفي امتثال اوامر الرؤساء الشرعيين اقله ظاهراً، بنشاط ودقة وروح فائق الطبيعة.

ثانياً. اما النفوس المتقدمة أكثر، فتعني بالتأمل في الامثلة التي قدمها لنا يسوع في حياته، وهي عمل مشيئة ابيه في كل امر، حتى آخر لحظة حين مات ذبيحة طاعته. وتتضرع اليه كي يحيا فيها بروح الطاعة، وتجهد في ان تتحد به كي تخضع للرؤساء، كما كان هو نفسه خاضعاً لمريم ويوسف: ((كان خاضعاً لهما)) (لو ٢: ٥١).

ولا تكفي بالطاعة الظاهرة، بل تخضع ارادتها في الداخل حتى في الامور الشاقة المعاكسة مزاجها. تجانب المواردية ولا تحمل الرئيس على ارادة ما تريده هي نفسها. وقد لاحظ القديس برنردس: ((ان رغبت في امر وعملت اما ظاهراً او خفية على حمل ابيك الروحي على ان يأمر، فلا تغرر بنفسك ان تطيع في هذا: فليست سوى مغو. لأنك لست انت الذي تطيع رئيسك بل هو الذي يطيعك)).

ثالثاً. اما النفوس الكاملة فتعمل أكثر: انها تخضع حكمها لحكم رئيسها دون بحث عن الاسباب التي تجعله يصدر حكمه. وقد شرح هذا بوضوح القديس اغناطيوس: ((ان شاء أحد ان يجعل من نفسه ضحية تامة، فعليه، بعد ان يخضع ارادته لله، ان يخصصه بعقله ايضاً. حتى انه لا يريد ما يريده الرئيس فقط، بل يشعر بذات شعور الرئيس ايضاً، ويخضع حكمة لحكمه تماماً ... كما ان ارادتنا تضل في امورنا الخصوصية كذلك شأن حكمنا، اننا اذ نوحّد ارادتنا وارادة الرئيس نصدها عن الشذوذ ... هكذا في حالة الخوف من الضلال، علينا ان نطابق حكمنا على حكم الرئيس)).

## صفات الطاعة

لكي تكون الطاعة كاملة يجب ان تكون: فائقة الطبيعة في نيتها، شاملة في امتدادها، كاملة في تميمها. اولاً. فائقة الطبيعة في نيتها: هذا يعني انه علينا ان نرى الله ذاته، او يسوع المسيح في رؤسائنا، بحيث لا سلطان لهم الا به. لا شيء يجعل الطاعة أسهل من هذه النية: لأنه من يرغب ان يرفض الطاعة لله؟ هذا ما يوصي به القديس بولس العبيد: ((ايها العبيد اطيعوا سادتكم الجسديين بخوف ورعد بسلامة قلوبكم كطاعتكم للمسيح. لا بخدمة العين كمن يرضي الناس بل كعبيد المسيح ... كخدمتكم للرب لا للناس ... وأنتم ايها السادة اصنعوا ذلك بعينه متجنبين التهديد عالمين ان ربهم وربكم هو في السماوات وليس عنده محاباة وجوه)) (افسس 6: 5-9).

هذا ما كان القديس اغناطيوس يكتبه الى رهبانه البرتغاليين: ((اتوق ان تعرفوا سيدنا يسوع المسيح في اي رئيس، وتقدموا بشخصه باحترام عميق المجد الواجب للعظمة الالهية اذن ليست الطاعة للرئيس لأجل فطنته وجودته، او لصفات غيرها منحه الله، بل لأنه نائب الله فقط ... وان ظهر قليل والحكمة، فليس هذا بداع لان يطاع بتدقيق اقل، فبصفته رئيس يمثل من تنزهت حكمته عن الضلال، ومن يعوض عن كل نقص يمكن ان يكون في ممثلة)).

ثانياً. شاملة في امتدادها. علينا بحسب هذا المعني ان نطبع كل اوامر الرئيس الشرعي حين يأمر شرعاً. كما قال القديس فرنسيس سالس: ((ترتضي الطاعة ان تعمل عن طيبة نفس كل ما تؤمر به بكل بساطة، دون بحث مطلقاً، هل صدر الامر بلطف او بخشونة، على ان يكون للآمر سلطان، وان يكون الامر لتوحيد عقولنا بالله)). ويضيف: ((ان امر الرئيس بما يضاد صريحاً شريعة الله، فعلينا ألا نخضع لان طاعة كهذه كما يقول القديس تكون بلا فطنة: الطاعة غير الفطنة هي التي تطيع حتى في المحرمات)). فالمطيع الحقيقي لا يضل، حتى ولو غلط الرئيس وامر بأمور اقل صلاحاً مما نرغب فيه. فالله الذي نطيعه ينظر الى اعماق قلبنا ويكافئ طاعتنا. قد يغلط رئيسنا فيما يأمر اما نحن فلا نضل ابداً في اطاعتنا.

ثالثاً. كاملة في تميمها، وبالتالي دقيقة ومطلقة وثابتة وطروبه ايضاً.

أ) دقيقة. لان المحبة التي ترأس في الطاعة الكاملة تجعلنا نطيع بسرعة: ان المطيع يجب امر الطاعة ومنذ ما يشعر به، مهما كان، اموافقاً ميله ام لا، يتمسك به ويلطفه ويعززه بحنو. المطيع الحقيقي لا يعرف المماطلة مطلقاً. ينفر من كلمة الغد. كله استعداد لتفهم ارادة الأمر.

ب) مطلقة دون قيد. لان الاختيار والطاعة في امور، والعصيان في غيرها هو خسران استحقاق الطاعة، ودلالة على اننا نخضع في ما يرضينا، و ليس خضوعاً فائق الطبيعة. ولنتذكر ما يقوله ربنا يسوع: ((لا يزول ياء او نقطة واحدة من الناموس حتى يتم الكل)) (متى ٥: ١٨). والثبات هو الامر العظيم في الطاعة. لأنه ان قيل لك: اعمل هذا دائماً وطيلة حياتك، فهنا الفضيلة، وهنا الصعوبة.

ت) طروبه: ((ان الله يحب المعطي المتهلل)) (٢ كو ٩: ٧). لا يمكن ان تكون الطاعة فرحة في الامور العسرة ما لم يوجهها الحب. وفي الواقع لا شيء يصعب على المحب، لأنه لا يفكر في الالم، بل في من يتألم لأجله. وحين نرى ربنا يسوع المسيح في الأمر فكيف لا نحبه، وكيف لا نعمل بقلب كبير تضحية صغيرة يطلبها من مات ضحية عنا. لذلك ينبغي العود دوماً الى المبدأ العام الذي وضعناه: ان نرى الله في شخص رئيسنا، حينئذ ندرك سمو الطاعة وثمارها.

## سمو الطاعة

لا يتردد القديس توما في قوله، ان هذه الفضيلة هي أكمل سائر الفضائل بعد فضيلة الديانة، لأنها تربطنا بالله أكثر من سواها. بهذا المعنى تفصلنا عن ارادتنا الذاتية، التي هي العائق الاكبر عن الاتحاد بالله. هي ما عدا ذلك ام الفضائل وحارستها. انها تحول افعالنا العادية الى فضيلة.

اولاً. الطاعة تربطنا بالله وتشركنا عادة بحياته.

ا) انها في الواقع تخضع ارادتنا مباشرة للإرادة الالهية، وبهذا نفسه تخضع كل قوانا بحيث ان هذه القوى خاضعة للإرادة. يكون استحقاق الخضوع أعظم بقدر صدوره عن حرية: ان الخلائق الصامتة تطيع الله بضرورة طبيعتها. غير ان الانسان يطيع باختيار ارادته الحرة. بهذا يؤدي الخضوع لمولاه المطلق بأعز ما لديه، ويضحى أسمى الذبائح: ((بالطاعة ترب الارادة الذاتية)). هكذا يتصل الانسان بالله، بحيث لا يبقى عنده ارادة الله تعالى، فيكرر كلمات يسوع البطولية حين نزاعه: ((لا تكن مشيئتي بل مشيئتك)) (لو ٢٢: ٤٢). اتصال وافر الاستحقاق ومقدس للغاية، لأنه يوجد ارادتنا، الخير الأثمن الذي نملكه، بالإرادة الالهية الصالحة ابداً.

ب) بما ان الارادة هي ملكة كل القوى، فباتحادها بالله نوحده تعالى كل قوى نفسنا. ان هذه الذبيحة أعظم تقادم الخيرات الخارجية كلها، التي نقدمها بالفقر، وأعظم ضحايا خيرات الجسم التي نقدمها بالطهارة والامانة. حقاً ان الطاعة أسمى الذبائح: ((ان الطاعة خير من الذبيحة)) (١ ملو ١٥: ٢٢).

ت) هي ايضاً اثبت وأبقى: ففي اتصالنا السري بالله لا يستمر اتحادنا به عز وجل سوى بعض هنيئات. اما الطاعة المألوفة فتوحد بين نفسنا والله شكلاً من الاتحاد الدائم، يجعلنا نستقر فيه كما يسكن عز اسمه فينا. لأننا نريد كل ما يريده، ولا نريد الا يريده: لا نطلب ولا نرفض شيئاً الا ما يطلبه ويرفضه. هذا في الحقيقة اصدق صلة وأخلصها وأكثر ممارسة.

ثانياً. انها بطريقة الاستنتاج ام كل الفضائل وحارستها حسب عبارة القديس أغسطينوس الجميلة: ((الطاعة في الطبيعة العاقلة هي ام الفضائل وحارستها)).

ا) انها عملياً تمازج المحبة، لان المحبة، حسب تعليم القديس توما، تنشئ اتحاد الارادات: ((ان محبة الله الكاملة تقوم بهذا، وهو الصداقة تعمل في الإرادة وعدمها على السواء)). أليس هنا تعليم القديس يوحنا؟ فبعد ان أعلن ان من يدعي انه يحب الله ولا يحفظ وصاياه فهو كاذب، يضيف قائلاً: ((اما من حفظ كلمته فذلك قد محبة الله الحقيقية وبهذا نعلم انا فيه)) (١ يو ٥: ٢). اما هذا هو ايضاً تعليم المعلم الالهي حين قال لنا حفظ وصاياه هو محبة: ((ان كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي)) (يو ١٤: ١٥)؟ فالطاعة الحقيقية هي اذن فعل محبة سام.

ب) تجعلنا نمارس الفضائل حتى انها تجعلنا نشابه الشهداء، كما قال القديس اغناطيوس: ((ان الارادة والحكم الذاتيين وجميع الرغبات تضحى على مذبح الطاعة)). وكما قال القديس باخوميوس: ((من يميت ذاته تماماً يموت شهيداً أعظم من الموت حالاً بطعنة حسام)).

ت) ان الطاعة تخولنا بذلك اماناً كاملاً، وعاطفة سلام عميق وثابت: ((ان الذين يحبون شريعتك لهم سلام جزيل وما لهم من معثرة)) (مز ١١٨: ١٦٥). إذا عملنا ارادة الله وتممنا اوامر من اقامهم عنه، يسهل نياتنا. الطاعة تفتح مدخل السماء. لا جهنم للمطيعين الحقيقيين: ((ما الذي يبغضه الله وينتقم منه سوى الارادة الذاتية اذن؟ أبطلوا الارادة الذاتية فلا يبقى جهنم)) (القديس برنردس).

ثالثاً. أخيراً ان الطاعة تحول مهام الحياة الاكثر اعتياداً الى فضائل واستحقاقات كالأكل والتنزه والاشغال. وكل ما يعمل بروح الطاعة يشترك في استحقاقها ويرضي الله وينال المكافأة. وبالعكس كل ما يعمل ضد ارادة الرؤساء، مهما يكن ذاته سامياً، ليس هو في الحقيقة سوى عصيان. كثيراً ما تشبه الطاعة بمسافر يبحر في مركب يديره ربان بارع: انه يتقدم كل يوم الى المرفأ، حتى حين يستقر ويستريح. هكذا المطيع يبلغ الهدف المرغوب، مرفأ الابدية السعيدة دون تعب ولا هم. ما أعذب هذه الفضيلة المتضمنة سائر الفضائل وما أمجدها! من كانت له الطاعة عروساً لا يتألم، بل يتمتع بالسلام. ولا تسبب الحرمانات له ايّ حزن.

## فضيلة القوة

ان العدل الذي تكمله الديانة والطاعة، ينظم علائقنا مع الاخرين. والقوة والقناعة ينظمان علائقنا مع ذواتنا.

## طبيعة فضيلة القوة

تحديدها. هذه الفضيلة التي ندعوها قوة النفس وقوة المزاج او الرجولة المسيحية، هي فضيلة ادبية فائقة الطبيعة توطن النفس في استقراء الخير العسر الحصول عليه، بدون استسلام للاضطراب من الخوف، حتى الخوف من الموت.

أ) موضوعها هو قمع تأثيرات الخوف، الذي يفضي الى احباط جهودنا في الخير، وتلطيف الجسارة التي يسهل ان تصبح بدون هذه الفضيلة تهوراً: ((تمتد القوة الى الخوف فتنسخه، والى الجسارة فتلطفها.))

ب) تؤول افعال القوة الى فعلين اساسين: مباشرة العمل، وتحمل الامور الصعبة.

١) تقوم القوة اولاً بمباشرة امور عسرة وتتميمها: في الواقع ان في طريق الفضيلة والكمال صعوبات كثيرة تتجدد دوماً يعسر التغلب عليها. علينا الا نخافها بل نقتحمها، ونبذل قصارى الجهد في تذليلها بشجاعة: هذا اول افعال فضيلة القوة.

يفرض هذا العمل: الجزم في اتخاذ قصد سريع، كي نعمل الواجب مهما اقتضى الامر. والشجاعة والسخاء كي نبذل جهوداً تقابل الصعوبات. ويمكن ان تزداد هذه الجهود بنسبة اشتداد الصعوبات بالعمل رجولياً. والثبات لمتابعة الجهود حتى النهاية بالرغم من اصرار العدو، ومعاودة هجماته.

(٢) وعلينا ان نعرف كيف نتحمل لأجل الله ما يبعثه الينا من المحن الكثيرة العسرة، العذبات والامراض والسخرية والافتراءات التي نكون محرقة لها.

كثيراً ما يكون هذا أصعب من العمل ايضاً. قال القديس توما: ((ان الثبات حتى النهاية أصعب من البداية)) ويقدم ثلاثة براهين عن ذلك.

(١) تفرض المقاومة ان يكون للإنسان عدو متفوق يهاجمه، بين ان المهاجم يشعر بانه متفوق على خصمه.

(٢) ان من يتحمل الصدمة ينازل الصعوبات ويتألم منها، اما من يهاجم فليس له الا ان يبتدر الصعوبات. والحال ان الشر الحاضر اشد هولاً من شر يبتدره.

(٣) الجلادة تفرض ان يلبث الانسان ثابتاً، لا تلوبه الصدمة وقتاً طويلاً، مثلاً متى سمر الانسان مرض طويل في فراشة، او جرب تجارب شديدة او طويلة المدة. من يباشر امراً صعباً يجهد نفسه جهداً وقتياً، لا يدوم عادة وقتاً طويلاً.

## درجات فضيلة القوة

اولاً. يحارب المبتدئون بشجاعة المخاوف المتنوعة التي تتعرض تتميم الواجب:

(١) الخوف من الاتعاب والاحطار: يتذكرون ان الانسان خيرات أثنى من الثروة والصحة والصيت والحياة: خيرات النعمة التي ليست بذاتها سوى مقدمة السعادة الابدية. فيستحقون من ذلك انه ينبغي التضحية بسخاء بالخيرات الزمنية لكسب الخيرات التي لا تزول. ويتحققون ان الشر الوحيد الحقيقي هو الخطيئة. ومن ثم علينا ان نتجنب ذلك باي ثمن كان، حتى بخطر تحمّل كل الشرور الزمنية الممكن ان تنقضّ علينا.

٢) الخوف من الانتقادات والسخريات، او بعبارات اخرى الحياء البشري الذي يحملنا على اهمال واجبنا، خوفاً من دينونات مخالفة الحقيقة يحكم بها علينا، او من استهزاء نتحملة، او من تهديدات يفترى بها علينا، او من اهانات ومظالم نكون لها محرقة. فكم من البشر هم بوسائل في ساحة الوغى، يحجمون تجاه هذه الانتقادات او تلك التهديدات! وكم يقتضي الامر ان نهذب الفتيان على ازدراء الحياء البشري، وعلى الشجاعة الرجولية التي تحتقر الرأي العام، وتتبع اعتقاداتها دون خوف او ملامة!

٣) الخوف من اغاظة الاصدقاء: انه اشد هولاً من خوف التّعرض للانتقام الاعداء. فعلينا ان نتذكر انه لأفضل ان ترضي الله من ان نرضي البشر، وان من يصدوننا عن القيام الدقيق بواجبنا، ليسوا سوى اصدقاء كاذبين، فان شئنا ان نرضيهم نخسر ما لنا من الخطوة عند يسوع، ونخسر صداقته ايضاً: ((أني لو كنت بعد ارضي الناس لما كنت عبداً للمسيح)) (غلا ١: ١٠). اما نضحى بواجبنا رغبة في شهرة باطلة: ان تصفيق البشر يزول ولا ثبات له، وفي الحقيقة لا يجدر بنا سوى استحسان الله القاضي المعصوم عن الغلط. فلننتج مع القديس بولس ان المجد الواجب ان نلتمسه، هو المجد الصادر عن امانتنا لله ولواجباتنا فقط: ((من يفتخر فليفتخر بالرب. لأنه ليس من وصى بنفسه هو المذكي بل من وصى به الرب)) (٢ كو ١٠: ١٤ و ١٨).

ثانياً. اما النفوس المتقدمة فتمارس جهة القوة الايجابية، اذ تجُد في ان تقتدي بقوة النفس التي اعطانا مثالها يسوع مدة حياته.

١) تظهر هذه الفضيلة في حياته الخفية: فقد قدم ذاته لأبيه منذ اول هنية، كي يعوض عن كل ذبائح الشريعة القديمة، اذ ضحي بذاته عن البشر. وكانت حياته استشهاده، فمنذ ميلاده عانق بشغف الفقر والامانة والطاعة، ورضي الاضطهاد والنقي، وانفرد مدة ثلاثين سنة في اتم عزلة كي يستحق لنا نعمة لتقديس اعمالنا الاكثر اعتياداً، ويلهمنا حب الاتضاع. هكذا يعلمنا ان نمارس القوة والشجاعة في شتى تفاصيل الحياة المشتركة الدقيقة.

٢) تظهر في حياته العمومية. في ما فرضه على ذاته من الصوم الطويل قبل بداءة رسالته. في حربه الظاهرة التي شنّها على الشيطان. في بشارته حين أعلن، خلافاً لمزاعم اليهود، مملكة روحية بحتة مرتكزة على الاتضاع والتضحية والكفر بالذات، وعلى حب الله ايضاً. في حماسه التي بها فضح

الشك، و حكم على تفاسير حالات الذمة، التي فسرهما علماء الشريعة. في عناية الغيرى التي كان يجانب بها الاثرة عند الشعب بصفة فاسدة، ويرفض الملك الذي رغب الشعب ان يقدمه له. في الطريقة اللطيفة والشديدة معاً، التي هذب بها رسله وازال اوهامهم وأصلح نقائصهم وادب ذلك الذي اختاره كرئيس المدرسة الرسولية. في روح تلك العزيمة التي اوضحها وهو ماض الى اورشليم، وقد عرف حقاً انه ذاهب الى الآلام والاهانة والموت. هكذا قدم لنا مثال تلك الشجاعة الوديعه الثابته، التي علينا ان نمارس في علائقنا مع القريب.

٣) تظهر في حياته المتألّمة: في ذلك النزاع الاليم، حين لم يبرح يطيل في الصلاة بالرغم من اليبوسة والضجر: (ولما اخذ في النزاع اطال في الصلاة)) (لو ٢٢:٤٣). في السكينة التامة التي ابداهها حين قبض عليه ظلماً. في ذلك الصمت الذي لزمه بين المثالب وتجاه فضول هيرودس. في وقار جلسته امام القضاة. في ما برهنه من صبر الابطال وسط العذابات، التي لم يكن يستحقها، التي فرضت عليه. وفي ما اشبع من الاستهزاء، و لا سيما في ذلك الخضوع الهادئ حين سلم ذاته في يدي ابيه قبل موته. بذلك يعلمنا الصبر وسط أقسى المحن.

ان في ذلك باعثاً عظيماً للاقتداء. فلكي نحسن النجاح فيه، علينا ان نبتهل الى ربنا يسوع المسيح كي يأتي ويسكن فينا بملء قوته. لكن علينا ان نساعده في ممارسة هذه الفضيلة، اذ نباشرها لا في المناسبات المهمة فحسب، بل في ألف من الاعمال الزهيدة ايضاً التي تؤلف اطوار حياتنا، متذكّرين ان الثبات في ممارسة صغار، يقتضي من البطولة قدر ما يلزم للأعمال الجليلة وأكثر.

ثالثاً. اما النفوس الكاملة فتمارس لا فضيلة القوة فحسب، بل موهبة القوة، كما سنشرح ذلك في طريق الاتحاد. انها تزاوّل هذا الاستعداد السخي، اذ تضحي بذاتها لأجل الله، وتكاد هذا الاستشهاد الطويل القائم بجهد دائم التجديد، وبعمل كل شيء لأجل الله، وباحتمال كل شيء لمجده تعالى.

## الفضائل المتحدة بالقوة

أربع من الفضائل تتعلق بفضيلة القوة: اثنتان تساعداننا على عمل الامور الصعبة، اعنى عزة النفس وكبرها، واثنتان تعيناننا على تحمل الالم، والصبر والثبات. انها في الوقت نفسه، بحسب شهادة القديس توما اجزاء مكمله لفضيلة القوة وتابعة لها.

## عزة النفس

اولاً. طبيعتها، هي التي تدعى ايضاً عظيمة النفس او شهامة الخلق وهي استعداد شريف سخي كي يقوم الانسان بأمور عظيمة لأجل الله والقريب. تختلف عن الطمع الذي هو بعكس ذلك انانية من جوهره، ويلتمس الرفعة على الاخرين بالسلطة او بالأمجاد. اما النزاهة عن الاغراض فهي العلامة الفارقة لعزة النفس: لأنها ترغب في خدمة الاخرين.

(ا) عزة النفس تفرض اذن نفساً شريفة، عندها مثال أسمى وافكار سخية. ان نفساً شجاعة تعرف ان تجعل حياتها متآلفة مع اعتقاداتها.

(ب) تظهر عزة النفس، لا في عواطف شريفة فحسب، بل في افعال سنية في كل نظام: في النظام العسكري بأعمال باهرة. وفي النظام المدني بإصلاحات عظيمة. او بمشاريع كبرى صناعية او تجارية او سواها. وفي النظام الفائق الطبيعة تظهر بمثال اعلى للكمال، تتبعه دوماً جهود سخية لكبح اهواء النفس، والتفوق عليها بغية اكتساب فضائل راهنة، وممارسة الرسالة بكل اشكالها، وتأسيس اعمال خيرية وادارتها. كل ذلك دون خوف من المخاطرة بالثروة والصحة والصيت والحياة ايضاً.

ثانياً. النقيصة المضادة هي الجبانة، التي تتردد عن خوف مفرط من عثرة، فيلبث الجبان في الخمول. فلكي نتجنب بعض ورطات نرتكب ما هو في الحقيقة أفظع خرقاً: لا نعمل، او نكاد لا نعمل شيئاً، وهكذا نبذر حياتنا. فمن الواضح ان التعرض لبعض ازدراءات أفضل من ان نلبث في الخمول.

## عزة النفس وسخاؤها

اولاً. طبيعتها. متى كان للإنسان نفس نبيلة وقلب كبير يزاول كرم النفس او سخاءها، يحمله على ان يأتي اعمالاً مجيدة، فيبذل نفقات ضخمة توجبها هذه الاعمال.

(أ) ان الكبرياء والطمع بعض الاحيان يوحيان هذه الاعمال، عندئذ لا تكون فضيلة. لكن اذا قصدنا بها مجد الله، او خير نظرانا نرفع تلك الرغبة الطبيعية في العظمة الى ما فوق الطبيعة، وبدل اثار مالنا دائماً، نبذل دراهمنا في مشاريع عظيمة شريفة، وفي اعمال صناعية وبنائات عامة، وفي تشييد

كنائس ومستشفيات ومدارس وجامعات، وبكلمة، نبذها في كل ما يعزز الخير العام: عندئذ تكون فضيلة تجعلنا ننتصر على ما هو كامن فينا، من التعلق الطبيعي بالمال والرغبة في انماء دخلنا.

ب) هي فضيلة سامية يجب ان نحث الاغنياء عليها، اذ نبين لهم ان افضل استعمال لما تأتمنهم عليه العناية الالهية من الثروات، هو الاقتداء بجودة الله و سخائه في صنائعه. كم من المؤسسات الكاثوليكية تعاني اليوم ضعفاً من نقص اسباب المعيشة! اما في ذلك تصرف شريف بما قدرنا على جمعه من المال، اما هذه أفضل وسيلة كي نشيد منزلاً غنياً في السماء؟ كم من المؤسسات يجب انشاؤها؟ فلكل عصر نصيب من الحاجات الجديدة: تارة الحاجة لأنشاء كنائس ومدارس، وتارة لإعالة خدام الديانة. احياناً يجب تخفيف الفاقة العمومية، ومراراً ينبغي تأسيس اعمال خيرية جديدة، كجمعيات لتهديب الاولاد، حضانة الاحداث، ونقابات وصناديق وملاجئ الخ. ففي ذلك مجال مفتوح لكل ذي حمية وذي ثروة. لا يقتضي الامر ان يكون الانسان غنياً كي يمارس هذه الفضيلة. لم يكن القديس منصور دي بول غنياً. مع ذلك هل عمل انسان بحكمة وبسخاء ملكي مثله نحو كل اشقاء عصره، واسس اعمالاً خيرية بنجاح مستمر؟ النفس النبيلة تجد وسائل للأعمال الخيرية.

ثانياً. اما النقائص المضادة السخاء فهي التقتير والتبذير.

أ) فالتقتير او الامسك يوقف حمية القلب، ولا يدري ان يعدل النفقات بحسب اهمية العمل الواجبة مباشرة، ولا يعمل الا امراً زهيداً او حرجاً.

ب) اما التبذير فبعكس ذلك يدفع بنا الى بذل نفقات مفرطة، والى اسراف مالنا دون حساب، وتناسب مع العمل المشروع فيه، وحياناً نتجاوز ايضاً اسباب معيشتنا ويسمى كذلك بعزقة. فمن خصائص الفطنة ان تحفظ حد الاعتدال بين هذين الافراطين.

## الصبر

اولاً. طبيعته. هو فضيلة مسيحية تجعلنا نحتمل، مع اتزان النفس حباً لله وبالاتحاد بيسوع، الآلام الطبيعية والادبية. نتحمل كلنا كي نصير قديسين، لو عرفنا ان نعمل ذلك ببسالة، وبيواعث فائقة الطبيعة. غير ان الكثيرين لا يتحملون الا بتضجر وتمرمز، وحياناً بلعن العناية الالهية ايضاً. وغيرهم

يحتملون عن الكبرياء او طمع، وهكذا يفقدون ثمرة صبرهم. اما الباعث الحقيقي الواجب ان يلهمنا الاحتمال فهو الامتثال للإرادة الالهية (راجع آخر صفحة ١٩٢ من الكتاب الاول).

ب) والباعث الذي يساعدنا على ذلك هو الامل بالمكافأة الابدية، التي تكمل صبرنا (راجع آخر صفحة ١٩٤ من الكتاب الاول). غير ان المحرك الاقوى هو التأمل في يسوع المتألم والمات عنا. فاذا كان يسوع الطهارة بالذات قد قاسى ببطولة عظمى آلاماً طبيعية وادبية حباً لنا، ولأجل افتدائنا وتقديسنا اليس من العدل ان نرتضي، نحن المجرمين الذين سببنا له التألم، بتحمل العذابات معه، ولأجل النيات ذاتها مثله، كي نساعده على عمل تطهيرنا وتقديسنا، ونشترك في مجده، بعد اشتراكنا في عذاباته؟ اما النفوس النبيلة السخية فتضيف الى ذلك باعث الرسالة: تتألم لتتمم آلام يسوع المخلص، وهكذا تعمل على فداء النفوس. (راجع آخر صفحة ٥١ من الكتاب الاول). هنا سر صبر القديسين البطلي ومحبتهم للصليب.

ثانياً. ان درجات الصبر تقابل ثلاثة اطوار الحياة الروحية.

أ) يقبل الالم في الابتداء، كأنه آت من عند الله، وبدون تدمير معتصمين برجاء الخيرات السماوية، فيقبله المبتدئون تكفيراً عن خطاياهم ولتطهير قلوبهم، ولقهر اميالهم المشوشة، خصوصاً الحزن والقنوط. يقبلونه بالرغم من مقاومة الحس، وان طلبوا ابتعاد الكاس عنهم، يضيفون انهم على كل حال يخضعون للإرادة الالهية.

ب) في الدرجة الثانية يعانقون الآلام بحرارة وحزم، متحدين بيسوع المسيح كي يزدادوا شهباً بهذا الرأس الالهي. يحبون اذن ان يجولوا معه في هذه الطريق الاليمة، التي تتبعها من المذود الى الجلجلة، يدهشون ويحمدونه ويحبونه في كل حالات العذاب التي مر فيها: في مسكنته واعتزله في المذود الحقير، حيث تألم من كفران البشر بجميله. في الاعمال الحقيرة، في المشاق والاعتاب وفي اهانات حياته العامة. ولا سيما الاوجاع الطبيعية والادبية حين آلامه الطويلة والموجعة. فيتسلحون بهذه الفكرة: ((اذ قد تألم المسيح في الجسد فتسلحوا أنتم ايضاً بهذا العزم عينه فان من تألم بالجسد يراح من الخطيئة)) (بطر ٤:١). يشعرون بأنهم أشجع ازاء الالم والحزن. يتمددون بحب على الصليب بجانب يسوع وحباً له. ((صلبت مع المسيح)) (غلا ٢:١٩). حين يشد المنا لقي نظرة حب الى يسوع فتسمعه يقول. ((طوبى لكم ايها الباكون الآن فأنكم ستضحكون. طوبى لكم إذا ابغضكم

الناس ونفوكم وعيروكم ونبذوا اسمكم نبذ شير)) (لو ٦: ٢١). اما املنا مقاسمته المجد في السماء، فيجعل الصلبان التي نكابدها معه أكثر احتمالاً: ((ان كنا نتألم معه لكي نتمجد معه)) (رو ٨: ١٧). واحياناً نسر بأوهاننا ومحنا عالمين ان التألم مع المسيح هو تعزيتة، وان تميم آلامه هو ان نحبه على الارض أكمل محبة، وهو استعدادنا كي نحبه أكثر في الابدية: ((وبكل سرور افتخر بأوهاني لتستقر في قوة المسيح)) (٢كو ٢: ٩).

ت) هذا ما يقودنا الى الدرجة الثالثة، وهي الرغبة في الالم وحبه لأجل الله، الذي نشاء ان نمجده، ولأجل النفوس التي نريد ان نعمل على تقديسها. هذا ما يلائم الكاملين، ولا سيما النفوس الرسولية، والرهبان والكهنة والنفوس المختارة. تلك هي عواطف ربنا يسوع منذ دخوله العالم، اذ قدم ذاته محرقة لأبيه، وكان يوضحها بإعلانه رغبته في ان يصطبغ صبغة آلامه الموجهة: ((لي صبغة اصطبغ بها وما اشد تضايقي حتى تتم)) (لو ١٢: ٥٠).

قال القديس اغناطيوس: ((كما ان اهل العالم المتعلقين بالأرض، يحبون الامجاد والسمعة الطيبة والظهور، هكذا المتقدمون في طريق الروح يرغبون في كل ما يصاد روح العالم، ويتحملون الفضائح والشهادات الكاذبة والاهانات، إذا أمكنهم دون اهانة الله وعثار القريب)). لا شيء يجعلنا نحبه الصلبان والاهانات، على هذا الاسلوب، سوى حب الله والمصلوب الالهي.

يجب ان نتجه الى ما ابعده، ونقدم ذواتنا لله كمحرقة نطلب اليه آلاماً خارقة، إما لكي نعيد له المجد واما لاكتساب نعمة عظمى؟ ان بعض القديسين عملوا ذلك، اليوم ايضاً توجد نفوس مندفة اليه. فمن الحكمة الانشير به بوجه عام: فكثيراً ما يحمل على الوهم، يدفع اليه سخاء لا يُفكر فيه بسببه الادعاء. انها على ما يقول الاب سمدة: ((نعمل في اوقات حرارة خارجية ظاهرة، فمتى انقضت هذه الاوقات، نشعر بعجز كبير عن اتمام افعال البطولة في الامتثال والخضوع، التي كانت قوية في المخيلة. فينشأ عن ذلك تجارب قاسية جداً ويأس او تدمر ايضاً من العناية ... تلك مصدر ضجر وعراقيل كثيرة لمرشدي النفوس)). اذن علينا الا نطلب لذواتنا آلاماً ومحناً خصوصية. وإذا شعرنا باننا محمولون على ذلك، فلنستشر حكيماً ولا نعمل بدون سماحه.

## الثبات

يقوم الثبات في الجهد والمصارعة والاحتمال حتى النهاية، دون ان نرزع من التعب واليأس والجبانة.

اولاً. يرينا الاختبار اننا بعد الجهود المتكررة نتعب من عمل الخير ونسأم من كدّ ارادتنا دائماً. هذه ملاحظة القديس توما: ((مقاومة الصعوبة وقتاً طويلاً فيها صعوبة خاصة)). مع ذلك لا تكون الفضيلة راسخة طالما لا تثبتها الايام والعوائد المتأصلة في اعماقها.

هذا الاحساس بالعياء يولد القنوط والرخاوة؛ والضجر الذي نشعر به من تجديد جهودنا يخمد نشاط الارادة ويولد نوعاً من الانحطاط الادبي او اليأس. عندئذ، محبة اللذة والتأسف من حرمانها يستعيدان ما خسراه وبنقاد الى تيار اميالن الرديئة.

ثانياً. لمعارضة هذا الضعف:

(١) علينا ان نتذكر قبل كل شيء، ان الثبات هو عطية الهية بالصلاة (انظر صفحة ٤٣ من الكتاب الاول). فعلينا اذن ان نطلبها بالاح، متحدين بمن كان ثابتاً حتى الموت، وبشفاعة من ندعوها بصواب العذراء الامينة.

(٢) علينا ايضاً ان نجدد اعتقاداتنا في قصر الحياة، وفي المكافأة التي تكفل جهودنا: فاذا كانت الابدية لراحتنا، فهذا يستحق بعض الجهود والضجر على الارض. وان شعرنا، بالرغم من كل ذلك بضعف وترجع، فهذا ما يقتضي ان نطلب بالاح نعمة الثبات، التي نحس باحتياج شديد اليها، مرددين صلاة القديس أغسطينوس: ((أعطني اللهم ما تأمر ومرني بما تريده)).

(٣) اخيراً نستأنف العمل بشجاعة وحرارة جديدتين، متكئين على نعمة الله الكلية القدرة، بالرغم من قليل النجاح الظاهر في اختباراتنا، متذكرين ان الله يطلب منا السعي لا النجاح. لا ننس نحتاج احياناً الى بعض الانفراج والتسلية: لا يقدر الانسان ان يعيش طويلاً بدون شيء من التعزية. اذن لا ينفي الثبات الراحة الشرعية: استراح لكي تعمل أفضل! الخلاص هي ان نتخذ الراحة بالمطابقة لإرادة الله، بحسب نصوص القانون او اوامر مرشد حكيم.

وسائل لاكتساب فضيلة القوة أو تكميلها

قبل كل شيء القارئ الى ما قلناه عن تدريب (الارادة في الصفحة ٩٢ من هذا الكتاب) مضيفين اليه بعض ملاحظات تتعلق بالأكثر بموضوعنا.

يقوم سر ثباتنا بالحذر من نفسنا وبالثقة المطلقة بالله. بما اننا في النظام الفائق الطبيعة، عاجزون عن فعل شيء من الصلاح بدون معونة النعمة، فتشترك في قوة الله نفسها فلا نغلب، إذا جدينا واتكلنا على يسوع: ((من يثبت فيّ وانا فيه فهو يأتي بثمر كثير لأنكم بدوني لا تستطيعون ان تعملوا شيئاً)) (يو ١٥:٥). ((أني أستطيع كل شيء الذي يقويني)) (فيلبي ٤:١٣). لذلك يكون المتضعون اقوياء، عندما يقرنون معرفة ضعفهم بثقتهم بالله: اذ ان هاتين العاطفتين هما اللتان يجب ان ننميهما في النفوس. فان كان البحث عن المتكبرين او المدعين، فلنشدد على الحذر من النفس؛ وان كانت معاملتنا مع الفزعين او مسيئين الظن، فلنشدد على الثقة بالله شارحين لهم كلمات القديس بولس: ((اختار الله الضعيف من العالم ليخزي القوي واختار الله الخسيس من العالم والحقير وغير الموجود ليبطل الموجود)) (١ كو ٢٧:٢٨).

علينا ان نضيف الى هذين الاستعدادين اعتقادات عميقة واعتياد العمل بحسب هذه الاعتقادات. أ) اعتقادات مؤسسة على الحقائق الكبرى، أخصها غاية الانسان، وغاية المسيحي، وضرورة التضحية بكل شيء للحصول على هذه الغاية والكرهية التي يجب ان تلقى فينا الخطيئة، العائق الوحيد عن غايتنا. وضرورة اخضاع ارادتنا لإرادة الله كي نجانب الخطيئة ونبليغ غايتنا الخ.. تلك هي في الواقع الاعتقادات التي هي المبادئ القائدة تصرفاتنا والمحرك الذي يخولنا الحمية الضرورية للتغلب على الموانع.

ب) لذلك يقتضي الامر ان نعتاد العمل بحسب هذه الاعتقادات.

فلا ندع اذن الهام الفرصة يجرنا او تحريض الهوى المفاجئ يجذبنا، والرتابة (routine) او المنفعة الشخصية يذهبان بنا. بل فلنخاطب ذواتنا قبل العمل بمثل هذه العبارات: ما هذا بالنسبة للأبدية؟ هل يقربني هذا العمل من الله ومن ابدتي السعيدة؟ فاذا كان الجواب نعم افعله. وان لا، أحجم عنه. واذ نعيد كل شيء الى الغية الاخيرة نعيش بحسب اعتقاداتنا، ونكون اقوياء. لكي ندلل الصعوبات، يحسن ان نسبق وننظر فيها، ونصدها وجهاً لوجه، ونتسلح عليها بالشجاعة، لكن دون

مبالغة فيها، وبعتمادنا على نعمة الله التي لا يضمن بها علينا في وقت موافق. ان صعوبة سبقنا فنظرنا فيها نكاد ان نكون قد ذللناها.

اخيراً، لا ننس انه لا شيء يجعلنا نستبسل مثل محبة الله: ((ان المحبة قوية كالموت)) (نشيد ٦:٨). فاذا جعلت المحبة أمّا شجاعة وباسلة حين يجب ان تدافع عن اولادها، فما الذي لا نعمله محبة الله متى كانت متأصلة في النفس؟ هي التي اوجدت الشهداء والعذارى والمرسلين والقديسين؟ حين يحدث القديس بولس ما مر فيه من المحن والاضطهادات وما قاساه من الآلام، نسأل أنفسنا ما الذي كان يقوي شجاعته وسط جم من المصائب. هو نفسه يقول نفسه لنا: ((ان محبة المسيح تحثنا)) (٢كو ٥:١٤). لذلك لا يهتم بالمستقبل. ((لأنه من يقدر ان يفصله عن محبة المسيح)) (رو ٨:٣٩)؟ فيعدد المحن التي يمكنه ان يسبق فينظر فيها اذ يضيف قائلاً: ((انه لا موت ولا حياة ولا ملائكة ولا رئاسات ولا قوات ولا اشياء حاضرة ولا مستقبله ولا علو ولا عمق ولا خلق آخر يقدر ان يفصلنا عن محبة الله التي هي في المسيح يسوع ربنا)) (رو ٨:٢٨ و ٢٩). يستطيع كل مسيحي ان يقول ما كان القديس بولس يقوله، على ان يجب إلهه بإخلاص. عندئذ يشترك في قوة الله نفسها: ((أنتك انت إله حصني)) (٢:٤٢).

## فضيلة القناعة

إذا كانت القوة ضرورية لقمع الخوف، فليست القناعة بأقل ضرورة لتلطف ذلك الجاذب الى اللذة، التي تبعدنا عن الله بأسرع سهولة. هي فضيلة ادبية فائقة الطبيعة تلطف الجاذب الى اللذة الحسية، ولا سيما لذات الذوق واللمس وتضبطها في حدود الحشمة.

موضوعها. تلطف كل لذة حسية، ولا سيما المتعلقة بعملية الحياة العضوية العظيمين: الاكل والشرب اللذين يحفظان حياة الفرد، وكل عمل غايته حفظ النوع. فالقناعة تجعلنا نستعمل اللذة لغاية شريفة وفائقة الطبيعة، وبهذا نفسه تلطف ممارستها بحسب اوامر العقل والايمان. وبما ان اللذة جذابة وتجربنا بسهولة الى خارج حدود الاستقامة، فالقناعة تحملنا على الامانة، حتى في بعض امور جائزة كي نتحقق سلطان العقل على الهوى.

كما تكلمنا في الصفحة ١١٨ من هذا الكتاب، عن القواعد الواجب اتباعها لتطيف اللذة المتعلقة بالتغذية، سنبحث هنا عن الطهارة التي تنظم اللذة المرتبطة بانتشار النوع. وسنتكلم فيما بعد عن الفضيلتين المتعلقتين بالقناعة وهما الاتضاع والوادة.

## الطهارة

مفهومها. ان هدف الطهارة هو كبح كل ما هو غير مرتب من اللذات الشهوية. والحال ليس لهذه اللذات سوى غاية واحدة، هي تناسل البشر بانتقال الحياة بممارسة الزواج الشرعي. وكل لذة خارج ذلك محرمة.

بكل صواب تدعي الطهارة فضيلة ملائكية، لأنها تقربنا من الملائكة الاطهار بطبيعتهم. انها فضيلة شاقة لأننا لا نبلغ الى ممارسة الا بتهذيب جسدنا وحواسنا وقمعها بالإماتة. هي فضيلة لطيفة تشوهها أخف الهفوات الاختيارية. هي صعبة، لأننا لا نقوى على حفظها الا بمقاومة الالهواء بسخاء وثبات درجاتها.

(١) لهذه الفضيلة درجات كثيرة: تقوم اولها بان نتجنب باعتناء، الرضى بكل فكر او تصور، او حس او فعل يضاد هذه الفضيلة.

(٢) ثابتهها تقصد حالاً وبحماسة ابعاد كل فكر، صورة او تأثير يمكن ان يسود بهاء هذه الفضيلة.

(٣) ثالثها التي لا تكتسب عادة الا بعد جهود طويلة وبممارسة محبة الله، وتقوم بضبط الحواس والافكار، حتى انه اذا دعانا الواجب للبحث عن مسائل تتعلق بالطهارة، بالطهارة، يجب ان نعملها بهدوء و سكينه كغيرها.

(٤) هناك اخيراً من يفوزون بنعمة خصوصية، فيخلون من كل حركة مشوشة، كماخبر عن القديس توما بعد تغلبه في ظرف حرج.

انواعها. العفة على نوعين: العفة الزوجية التي تلائم المتزوجين زواجاً شرعياً. والعفة التي تلائم غير المتزوجين. فبعد ان نبحث عن الاولى بإيجاز نتوسع في الثانية، من حيث انها تلائم خصوصاً المدعوين الى التبتل الرهباني او الكنسي.

## العفة الزوجية

مبدأ. لا يغرب عن بال الأزواج المسيحيين ابداً ان الزواج المسيحي حسب تعليم القديس بولس، هو رمز الاتحاد المقدس الكائن بين المسيح والكنيسة: ((ايها الرجال أحبوا نساءكم كما أحب المسيح الكنيسة. وبذل نفسه لأجلها ليقدسها مطهراً ايها...)) (افسس ٥:٢٥). عليهم اذن ان يتحابوا ويتبادلوا الاحترام ويقدموا بعضهم بعضاً (انظر الصفحة ٢٣٨ من الكتاب الاول). ان اول مفاعيل هذه المحبة هو اتحاد القلوب اتحاداً لا تنفصم عراه، ثم امانة متبادلة لا تنقض.

امانة متبادلة. أ) نقتبس هنا فكرة القديس فرنسيس سالس: ((احفظوا اذن ايها الرجال لنساءكم محبة رقيقة ثابتة قلبية ... إذا شئتم ان تخلص نساءكم الامانة لكم، اروهن درساً عن ذلك بمثلكم. قال القديس غريغوريوس النيزي: ((بأية جسارة تطلبون الطهارة من نساءكم ان كنتم تعيشون بالفسق؟)) لكن أنتن ايها النسوة اللواتي يقترن شرفكن بطهارتك وحشمتكن اقراناً لا ينفصم، حافظين على مجدكن بغيرة ولا تسمحن ان يسود نقاء سمعتكن اي نوع من الخلاعة. اخشين كل انواع التهجمات مهما كانت صغيرة، لا تسمحن ابداً لا حد ان يتملقن. وليكن عندكن ذا ريبة كل من جاء يمدح جمالكن ولطفكن. اما من زاد على مدحكن ازداء رجالكن يهينكن جداً، فالأمر واضح انه لا يريد اهلا ككن فقط، بل قد بلغ بكن الى منتصف طريق الهلاك، لان نصف الصفقة تتم مع البائع الثاني ان سئم الاول)).

لا شي يثبت هذه الامانة المتبادلة أفضل من ممارسة العبادة الحقيقية وخصوصاً الصلاة المشترك في تلاوتها.

على النساء ان يتمنين لأزواجهن التشرب في عذوبة التقوى، لان الرجل بدون تقوى يكون حيواناً شرساً قاسياً عنيفاً. وعلى الرجال ان يتمنوا لنساءهم روح العبادة، لان المرأة بدون العبادة تكون سريعة الزلل، وعرضة للسقوط ولتسويد فضيلتها.

ب) يجب ان تكون المساعد المتبادلة بين كليهما عظيمة جداً، ولا يكون كلاهما غضوبين معاً وفجأة حتى لا تنشأ بينهما فتنة وخصام. فان كان أحدهما اذن في حالة غضب، فعلى الثاني ان يلازم السكينة حتى يعود السلام سريعاً.

واجب الزواج. على الازواج ان يحترموا قداسة السرير الزوجي بطهارة نياتهم وحشمة علاقاتهم.

أ) فلتكن نياتهم كنية الفتى طوبيا حين تزوج بسارة: ((والآن يا رب انت تعلم اني لا بسبب الشهوة اتخذ اختي زوجة وانما رغبة في النسل الذي يبارك فيه اسمك الى دهر الدهور)) (طو ٨:٩). هذه غاية الزواج المسيحي الاولى: الحصول على اولاد يربون بخوف الله ومحبتة، ويهذبون على التقوى والحياة، كي يكونوا يوماً من مواطني السماء. اما الغاية الثانوية فهي المساعدة على تحمل مشقات الحياة والتغلب على الاهواء باخضاع اللذة للواجب.

ب) فليكمل الزوجان اذن واجب الزواج بأمانة وحرية. ان كل ما يعزز انتقال الحياة ليس هو بجائز فقط، بل مشرف. انا كل فعل يضع مانعاً لهذه الغاية الاولى هو اثم كبير، لأنه يتجه ضد غاية الزواج الاولى. فلنعتبر وصية القديس بولس هذه: ((لا يمنع أحد كما الآخر عن ذاته الا على موافقة الى حين لكي تتفرغا للصلاة ثم عودا الى ما كنتم عليه لئلا يجربكما الشيطان لعدم عفتكما)) (١ كو ٧:٥).

ج) تفرض القناعة في هذا الواجب كما تفرض في استعمال الغذاء. كذلك في بعض حالات، حيث علم الحفاظ على الصحة والحشمة يقتضيان التصرف بالعفة بعض الزمن. لا ننجح في ذلك الا متى اعتدنا ان نخضع اللذة للواجب، ومتى التمسنا من قبول الاسرار المتواتر، علاجاً يخمد الرغبة الشديدة في الشهوة. ولنتذكر انه لا شيء مستحيل، وأنا بالصلاة تحصل دوماً على النعمة لمزاولة اشق الفضائل.

## العفة او التبتل

العفة الطلقة واجبة على كل انسان غير مقيد برباط زواج شرعي. اذن على الجميع ان يحفظوا العفة قبل الزواج، كذلك من هم في حالة الارمال المقدسة. لكن من النفوس ما هي مدعوة لحفظ العفة مدى الحياة إمّا في الحالة الرهبانية او الكهنوت، واما في العالم ايضاً. فيحسن ان نسن لهؤلاء قواعد خصوصية لحفظ الطهارة الكاملة.

والحال ان الطهارة فضيلة نحيفة لطيفة، لا يمكن حفظها ما لم تدافع عنها سائر الفضائل. انها قلعة تفتقر الى حصون تحميها. وهي اربعة:

اولاً الاتضاع، الذي يولد الحذر من النفس، والهرب من اسباب الخطر.

ثانياً الاماتة، التي اذ تكافح محبة اللذة تصيب الشر في جرثومته.

ثالثاً الاجتهاد في واجبات الحالة، الذي يسبق فينظر في اخطار الفراغ.

رابعاً محبة الله، التي اذ تملأ القلب تصده عن التهمك في المودات الخطرة. ان النفس قادرة وسط هذا المربع لا على رد هجمات العدو فحسب، بل قادرة ان تتكمل في الطهارة.

### الاتضاع حارس الطهارة

ينشأ عن هذه الفضيلة ثلاث استعدادات اساسية، تجعلنا في مأمن من اخطار كثيرة: الحذر من النفس والثقة بالله. الهرب من اسباب الخطر. الصدق في الاعتراف.

أ) الحذر من النفس ترافقه الثقة بالله. وفي الواقع ما أكثر النفوس التي تسقط في الدنس عن كبرياء وادعاء. لاحظ القديس بولس بشأن الفلاسفة الوثنيين الذين، اذ يفتخرون بحكمتهم ينقادون الى كل نوع من القبائح: ((لذلك أسلمهم الله الى اهواء الفضيحة)) (رو ١: ٢٦).

هذا ما يشرحه الاب اوليه: ((ان الله الذي لا يطيق احتمال الكبرياء في النفس، يواضعها الى اقصى حد. واذ يرغب ان يعرفها ضعفها وعجزها بذاتها عن مقاومة الشر وعن الثبات في الخير... يسمح ان تتمرس بهذه التجارب الهائلة فتزعج، وتسقط بعض الاحيان فيها حتى آخرها، بحيث انها أكثر الجميع فحشاً، فتترك بعدها أكبر عار)). متى تحققنا بعكس ذلك اننا غير اهل بذواتنا ان نكون اطهاراً، نكرر لله صلاة القديس فيلبس نيري المتضعة هذه: ((إلهي احذر فيلبس والا فانه يخونك)).

١) ينبغي ان يكون هذا الحذر شاملاً: هو ضروري لمن ارتكبوا خطايا ثقيلة: لان خطر التجربة يعود، فيكونوا بدون نعمة الله معرضين للسقوط ثانية. وليس هذه الحذر بأقل ضرورة لمن حفظوا

طهارتهم: لان خطر التجربة يرجع يوماً ويكون اشد هولاً، بنسبة ما عندنا من قلة الاختبار في الجهاد. يجب ان يستمر هذا الحذر حتى آخر الحياة: اما كان سليمان فتى حين اعطى نفسه مداها في حب النساء؟ قد كان مغويًا طهارة سوسنة شيخين. فالشيطان الذي يهاجمنا في سن الكهولة اشد هولاً من ان نظنه مغلوباً. والتجربة ترينا ان نيران الشهوة الكامنة تحت الرماد، تضطرم بحرارة جديدة، ما بقي فينا رمق وحرارة الحياة. يفرض هذا الحذر ايضاً على أقدس النفوس: لان الشيطان يتوق الى اسقاطها في الاثم أكثر من رغبتة في اسقاط النفوس الخاملة، وينصب لها اغدر الحبائل. اذن لا ينبغي الاطمئنان الى السنين الطوال التي قضيناها في الطهارة، ولا الى قداستنا أو حكمتنا.

(٢) يجب مع ذلك ان تصحب الثقة المطلقة بالله هذا التيقظ. لان الله لا يسمح ان نتجرب فوق قوانا. ولا يطلب الينا المستحيل: يعطينا احياناً النعمة سريعاً كي ندفع التجارب، وحياناً يعطينا نعمة الصلاة، لنحصل على نعمة افعل.

قال الاب اوليه: ((علينا ان نعتصم داخلياً بيسوع المسيح كي نلقى فيه القوة على مقاومة التجارب ... انه يشاء ان نمتحن حتى إذا حذرنا بهذه الطريقة من عجزنا هذا ومن حاجتنا الى معونته نلجأ اليه كي نستمد منه ما ينقصنا من القوة)). فان اشتدت التجربة يجب ان نجثو على ركبنا، ونرفع ايادينا الى السماء كي نستغيث بالله. فنرفع ايادينا الى السماء لا لان هذه الجلسة تبتهل بذاتها الى الله فقط؛ يجب ايضاً ان نصرح له توبتنا، اننا لا نلتمس ذواتنا ابدأ مدى هذا الزمن. وأننا نحتمل كل الآلام الداخلية وسائر مشقات الجسم حتى مشاق الشيطان ايضاً أخرى من ان نلتمس ذواتنا.

بعد اخذ هذه الاحتياطات كلها نقدر، دون شك، ان نعتمد على معونة الله: ((ان الله امين لا يدعكم تجربون فوق طاقتكم بل يجعل مع التجربة مخرجاً لتستطيعوا ان تحتملوا)) (١ كو ١٠: ١٣). علينا اذن الا نخاف التجربة قبل ورودها: فهذا سبب لاجتذابها. ولا نخشاها حين تهاجمنا، فباعتمادنا بالله لا نغلب.

ب) امران تجب صيانتهما: فضيلتنا، وصيئتنا، لذلك يجب الا ترشد امرأة الا في الاعتراف (راجع صفحة ٢٢١ من الكتاب الاول).

ولنحتط من الانقياد الى مؤنسات الفتيان والفتيات التي تبلبل الحواس، متذكرين انهم هياكل الروح القدس الحية واعضاء المسيح، وان ملائكتهم يعاينون وجه الله. علينا ان نتضع فالاتضاع حارس

الطهارة، بجانب العناية بزينتنا، والجلسة المخنثة والنظر المدلل، هذه الامور التي تلاحظ في الاكثير كي الحدث او الكاهن او الراهب فتعرض سمعته حالاً. ويا ليته يقف عند هذه الحد قبل ان تتعرض فضيلته.

ت) والاتضاع اخيراً يفتح قلبنا لمرشدنا فنجانب حبائل العدو، ونحبط حيله وخداعه. ولنكشف لمرشدنا تجاربنا: لان التجربة المكشوفة مغلوبة. واذ وثقنا بانوارنا ولم نكشف لمرشدنا تجاربنا، نقع بسهولة في فخاخ المضل.

## الاماتة حارسة الطهارة

بيّنا سابقاً ضرورة الاماتة وممارستها في اوائل هذا الكتاب (راجع من صفحة ٦٧ الى صفحة ٨٣) وهنا نذكر ما يختص بموضوعنا مباشرة. بما ان سم الدنس يلج من الشوق، فعلينا ان نعرف كيف نميت الحواس الخارجية والداخلية وعلائق القلب.

قلنا في صفحة ٧٥ من هذا الكتاب ان الجسم يحتاج الى تهذيب، وعند الاقتضاء الى تعذيب كي يبقى خاضعاً للنفس: ((اقمع جسدي واستعبده حذار ان اكون انا نفسي مرذولاً بعدما وعظت غيري)) (١) (كو ٩: ٢٧). فمن هذا المبدأ تنشأ ضرورة القناعة والصوم احياناً، او بعض الممارسات الخارجية للتوبة. كما تلزم ضرورة الحمية على بعض المأكولات المليئة في بعض الظروف، ولا سيما في فصل الربيع لتخفيف فوران الدم وحرارة الشهوة. فينبغي الا نهمل شيئاً حتى نتحقق سيطرة النفس على الجسد. فيجب الانام طويلاً، ولا نلبث عادة عند الصباح في فراشنا متي استيقظنا ولا نعود نقدر ان نهجع. كل حواس الجسم تفتقر الى الاماتة.

أ) كان الرجل القديس ايوب يقطع عهداً مع عينية الا يسرحهما على اشخاص قد يكونون له موضوع تجربة: ((قد عاهدت عيني ان لا اتأمل عذراء)) (ايو ٣١: ١٠)، وابن سيراخ يأمر بعدم التفرس في فتاة وبتحويل النظر عن النظر عن الجميلة: ((لا تتفرس في العذراء لئلا تعثرك محاسنها. اصرف طرفك عن المرأة الجميلة ولا تتفرس في حسن الغربية. فان حسن المرأة اغوى كثيرين وبه يتلهب العشق كالنار)) (سير ٩: ٥ و ٨ و ٩). فكل هذه النصائح هي سيكولوجية جد نفسه. النظر يهيج المخيلة ويضرم الشهوة، والشهوة تحرك الارادة، فان ارتضت الارادة تلج الخطيئة الى النفس.

ب) واللسان والسمع يمانان بالاحتراس من الأحاديث. والحال ان هذا الاحتراس لا يستمر طويلاً، حتى بين المسيحين: ان عادة مطالعة الروايات والذهاب الى المسارح تجعلنا نتكلم بحرية كبرى عن امور كثيرة كان السكوت عنها واجباً. نحب ايضاً ان نقف على ما يجري من العثرات الدنيوية الطفيفة. ونمزح مراراً في امور قريبة الخطر. ان شكلاً من الفضول المضر يجعلنا نسر الأحاديث، وبتلك المداعبات فتغذي المخيلة منها، وتتمثل ما يوصف فيها من المشاهد بكل دقائقها، فتتحرك الحواس وغالباً تنتهي الارادة الى السرور بها مسرة اثيمة. فبصواب اذن يذم الرسول بولس العشرات الرديئة كينبوع لفساد الاخلاق: ((لا تضلوا ان العشرة الرديئة تفسد الاخلاق السليمة)) (١ كو ١٥: ٣٣). ثم يضيف: ((ولا القباحة ولا الهذيان او السخرية مما لا يليق)) (افسس ٥: ٤). وفي الواقع يرينا الاختبار ان نفوسنا طاهرة أفسدها فضول مضر تثيره أحاديث خالية من الفطنة.

ت) ان اللمس خطر بشكل خاص. لأنه يهيج الشعور الحسي المائل بسهولة الى الملذات الرديئة. فيجب اذن الامتناع عن الملامسات والتدليلات التي تثير الالهواء. وقد فهم ذلك حسناً الا باقي باريق فكتب: ((أني أقدس لك يا ألهي أكثر من كل وقت يدي اللتين ستتقبلان وتحملان جسدك ودمك)). حين نتذكر اننا كنا في الصباح نحمل بيدنا اله كل قداسة، نزداد امتناعاً عن كل ما يكدر الطهارة. سأل كاهن القديس منصور دي بول، هل ينبغي ان يجس نبض منازعة فأجاب القديس: ((ان الشيطان يتخذ نبلاً من اية غابة، كي يصطاد نفساً... فلا تخاطر ابداً، لا بلمس ابنة ولا امرأة لاي داع كان، كي لا يجربك الشيطان او يجرب المحتضرة)).

ث) ليست الحواس الداخلية اقل خطراً من الخارجية، حتى وان خفضنا نظرننا لا تزال تطاردنا ذكريات تضايق وصور تزعج. كان القديس ايرونيموس يتظلم من الذكريات في وحدته، لأنه بالرغم من حرارة الشمس وفقر غرفته، كان ذاته متنقلاً بالمخيلة وسط ملاذ رومة. لذلك يشدد أمراً بطرد هذه الأخلية حالاً: ((لا تدع هذه الافكار تنمو... اقتل العدو ما دام صغيراً، الزؤان قبل ان ينمو. والا فالتجربة الملازمة تهاجم النفس، ويمسي هيكل الروح القدس مأوى الشياطين: بعد ان كانت النفس مقر الثالث الاقدس تلعب فيها الشياطين وتعشش الحشرات)). فلمجانبة هذه الصور الخطة، يجب ان نتحاشى مطالعة القصص الخيالية، والروايات التمثيلية التي تصف بصور حية واقعية الالهواء البشرية، ولا سيما شهوة الحب. ليس لهذه الاوصاف فضل سوى تشويش المخيلة والحواس. انها تدام عودتها في ساعات الاخيلة، وتغذي التجربة بصور اقوى حياة وفتانة واحياناً تجتذب الرضى.

والحال ان الطهارة، كما يلاحظ القديس ايرونيموس لا تفقد بالأفعال الظاهرة فقط، بل بالأفعال الداخلية ايضاً. ((ان الطهارة تفقد بالفكر)).

فضلاً عن ذلك يحثنا القديسون على اماتة التصورات والاخيلة غير النافعة. والاختبار يدلنا على ان صور اللذات الحسية الخطرة ستتبع هذه التصورات والاخيلة. فاذا شئنا ان نتدارك هذه الصور واللذات، علينا الا نتوقف اختيارياً في الاولى. عندئذ ننتهي شيئاً فشيئاً الى ان نجعل المخيلة في خدمة الارادة.

هذا ضروري للكاهن الذي يستودع اسراراً مختلفة المواضيع. لا شك ان عنده نعمة الحال كي لا يسر بها، لكن على ان لا يعود اختيارياً عند تركه منبر الاعتراف، الى ما يكون قد سمعه. والا فتكون فضيلته عرضة لمحنة قاسية، وليس ملتزماً ان يساعد المغفلين الذين يقابلون الخطر: ((الذي يحب الخطر يسقط فيه)) (سير ٢٧: ٣).

ج) ان القلب هو من أشرف القوى، وهو اكثرها خطراً. يصادق الكاهن اخطاراً خصوصية في ممارسة خدمته. يرتبط بأناس يسدي إليهم معروفاً، فينوه هؤلاء بنعمه ويشكرونه. فتنشأ بسبب ذلك مودات متبادلة فائقة الطبيعة اولاً. وان لم يحتط لنفسه منها تصبح طبيعية وحسية وشاغلة البال فنضل، كما قال القديس فرنسيس سالسس: ((كثيراً ما نفكر اننا نحب شخصاً لأجل الله، اما نحن فنحبه لأجل ذواتنا، ولأجل ما نجد من السلوان في علاقاتنا معه)). وقال القديس أغسطينوس عبارة شهيرة: ((ان الحب الروحي يولد الحب العاطفي، وهذا يولد الحب الخضوعي والخضوعي يولد حب الدلال، وهذا يولد الحب الجسدي)).

لهذه المحبة الطبيعية والحسية علاقات تدل عليها، اختصرها الاب فالوي هكذا: ((حين تأخذ هيئة أحد الاشخاص تفتن العينين، ويجعل الخلق الجذاب القلب يخفق ... ثم تحيات لطيفة، وكلمات عذبة ونظرات حنان، وهدايا زهيدة متكررة ... وابتسامات متبادلة أفصح من الكلام. واستراق محادثات سرية حيث لا عين تراقب ولا اذن تلتقط فتعتان. الكلام عن الامور الالهية وجيز، اما عن

الذات وعن المودة بين المتحادثين ففياض. ولا تسأل عن التمداح والتمليق المتبادل والتشكي بمرارة من تنبيهات الرؤساء. وعند تغيب ذلك الشخص نشعر بالبلبال والحزن، وبتشتت العقل في ذكره اوقات الصلاة. والاهتمام به نهائياً وليلاً وفي الحلم ايضاً. والاستعلام عنه، اين هو، ماذا يعمل، متى يرجع، هل عنده مودة لآخر. وكم يخلق من الوسائل للتقرب منه)).

لا تثق بتقوى من تتصل بهم: لأنه بقدر قداستهم تكون جاذبيتهم. فضلاً عن انه يخيل لهم ان لا خطر في مودتهم للكاهن فيندفعون فيها دون خشية. فعلى الكاهن اذن ان يعرف كيف يوقفهم باحترام عند حد. من انفع الامانات الهرب من البطالة بالعكوف على الدروس بحرارة وعلى تتميم واجبات الحالة بأمانة: ((ان الفراغ يعلم ضروب الخبث)) (سير ٣٣:٢٩). فبدل شيطان واحد يجرب رجلاً مشتغلاً، يجرب البطال مئة شيطان فماذا نعمل إذا لم نطالع ونعمل عملاً مفيداً؟ نزور زيارات طويلة ونتحدث أحاديث قد تكون خطيرة، فتمتلئ المخيلة من الاشباح الباطلة وينقاد القلب لمودات حسية. فتعود الكليركيين والكهنة والشباب والفتيات على حب الدرس والمطالعة، والهرب من الفراغ حتى في ايام العطلة، والاستفادة من اوقات حياتهم كلها بانتهاج تصميم لأوقاتهم، هو أكبر خدمة لهم.

## الحب الحار ليسوع ولامه القديسة

إذا كان العمل يقي نفسنا من الافكار الخطرة فمحببة الله تقي قلبنا من المودات الحسية، وتنجيبنا ايضاً من تجارب كثيرة.

خلق قلب الانسان كي يحب. فلا الكهنوت ولا الحالة الرهبانية ينزعان هذه الوجهة من طبيعتنا، بل يساعداننا على جعلها فائقة الطبيعة، فاذا احببنا يسوع والله من كل قلبنا فوق كل شيء، نشعر بميل قليل الى المخلوقات. هذه ملاحظة القديس يوحنا السلمي ((من نقش الجمال السماوي في نفسه التي لا تتنازل الى الالتفات الى جمال الارض، ولا تشعر بحرارة النار المضطربة في قلوب الآخرين، ذلك هو الفاضل)). فحب يسوع يملأ القلب والنفس ويعيننا حين التجربة ويقويننا على تغيير المخلوقات.

كذلك العذراء وعبادتها والاستغاثة بها بأمانة تهزم التجارب.

ونعترف هذا الحب من الصلاة والتناول الحار ومن زيارات القربان المقدس والالتجاء الى قلب مريم الملجأ الامين للخطاة.

## الاتضاع

تتصل هذه الفضيلة من بعض وجوها لفضيلة العدل، بما انها تميل الى معاملة نفوسنا كما تستحق. وتتعلق عموماً بفضيلة القناعة لأنها تطف ما عندنا من الشعور بفضلنا الشخصي.

## طبيعة الاتضاع

الاتضاع فضيلة لم يعرفها الوثنيون: كانت عندهم دليلاً على امر دنيء او محتقر او عبدي او خسيس. لم يكن هذا عند اليهود بل كان فضلاء اليهود المستنبرون بالإيمان الصالحون الشاعرون بعدمهم وشقائهم، يقبلون المحنة بصبر كواسطة تكفير. وكان الله يعطف عليهم آنذ كي يساعدهم، ويستجيب صلوات المتواضعين، ويغفر للخاطئ التائب الدليل. اذن حين جاء ربنا يسوع وبشر بالاتضاع والوادعة، استطاع اليهود ان يفهموا كلامه. اما نحن فنفهم أحسن منهم ايضاً، بعد ان تأملنا في امثلة الاتضاع التي اعطانا يسوع في حياته الخفية والعلنية والمتألمة، ولا يزال يعطيناها في حياته بالإفخارستيا.

تحديد الاتضاع. هو فضيلة فائقة الطبيعة تميل بنا، بما تعرّفناه عن ذواتنا، الى نقدر نفسنا القدر العادل، والى ان نلتمس الملاشاة والاحتقار. والقديس برنردوس يحدده باختصار أكثر: ((هي الفضيلة التي بها يعرف الانسان ذاته معرفة تامة فيصغر في عيني نفسه)). ويحسن فهم هذا التحديد حين نبين اساس الاتضاع.

اساسه. للإماتة اساس مزدوج: الحقيقة والعدل. فالحقيقة تعرفنا ذاتنا كما نحن. والعدل يميل بنا الى معاملة نفسنا طبقاً بهذه المعرفة!

١) قال القديس توما: لكي نعرف ذاتنا، علينا ان نرى فينا ما يختص بالله وما يختص بنا. والحال ان كل ما فينا من الخير هو من الله واليه معاده وكل ما فينا من الشر او النقص هو منا. ((شيئان في الانسان يجب اعتبارهما: ما يخص الله وما يخص الانسان نقص وما هو من الله خلاص وكمال)).

فالعديل اذن يطلب بسلطان ان نؤدي لله، والله وحده كل عز ومجد: ((لملك الدهور، لله الواحد الذي لا يموت ولا يرى الكرامة والمجد)) (١ تيمو ١: ١٧) ((البركة والمجد والحكمة والشكر والكرامة والقوة والقدرة لإلهنا)) (رؤ ٧: ١٢).

لا شك ان فينا شيئاً من الصلاح هو كياننا، ولا سيما امتيازاتنا الفائقة الطبيعة. فالاتضاع لا يمنعنا عن النظر فيها والدهش منها. بل، كما اننا ندهش من صورة، فإكرامنا ينصرف الى الفنان الذي صورها لا الى اللوحة. هكذا عندما ندهش من مواهب الله ونعمة فينا، فاليه تعالى يجب ان يتجه دهشنا لا الى نفوسنا.

ب) وعدا ذلك، بما اننا خطاة تحكم علينا خطايانا بالمذلة. وعلى نوع ما، لسنا من ذاتنا سوى خطيئة بحيث اننا ولدنا في الخطيئة، فنحفظ في نفسنا الشهوة التي تحملنا على الخطيئة.

١) حين ندخل العالم نكون ادناساً بالخطيئة الاصلية، التي تقوى الرحمة الالهية وحدها ان تطهرنا منها.

٢) كم ارتكبنا من الذنوب الحالية منذ اول بلوغنا؟ فلو ارتكبنا خطيئة واحدة مميتة لاستحققنا بسببها مذلات ابدية. وان لم نرتكب سوى خطايا عرضية، فيجب ان نتذكر ان أصغرها هو اهانة لله، ومخالفة اختيارية لشريعته، وتمرد فضّلنا به ارادتنا على ارادة الله: فلا تكفي للتكفير عنها حياة تنقضي في التوبة والمذلة.

٣) وفوق ذلك اننا نحفظ في نفسنا، حتى بعد تجديدنا بالعماد، اميلاً عميقة للخطيئة، حتى اننا، حسب شهادة القديس أغسطينوس، إذا كنا لم نرتكب خطايا العالم كلها، فذلك بفضل نعمة الله. من العديل اذن ان نحب الالهات ونقبل كل لوم: فلو قيل اننا بخلاء وقباح ومتكبرون، يجب ان نوافق على ذلك، لأننا نحفظ فينا الميل الى كل هذه النقائص. هكذا يستنتج الاب اوليه: ((علينا، في كل مرض واضطهاد واحتقار وفي سائر الغموم، ان نكون بجانب الله على نفوسنا، ونقول اننا بعدل

نستحق ذلك وأكثر، ويحق لله ان يستخدم كل خليقة في عقابنا، وعلينا ان نعبد الرحمة العظمى التي يعاملنا بها الآن، عالمين انه سيعاملنا في ساعة عدله باشد قساوة)). اليك اذن اساس الاتضاع المزدوج: بما اننا لسنا بذواتنا سوى عدم، فعلينا ان نحب النسيان والملاشاة: لا يعد المجهول شيئاً، اننا نستحق كل احتقار ومذلة.

## درجات الاتضاع المتنوعة

للاتضاع تصنيفات متنوعة بحسب تنوعات النظريات. نشير الى اهمها وهي ثلاث نظريات: نظرية القديس بناديكتوس، ونظرية القديس اغناطيوس، ونظرية الاب اوليه.

كان كاسيانوس قد ميز عشر درجات للاتضاع. اما القديس بناديكتوس فأضاف درجتين. سبع من هذه الاثني عشرة درجة تتعلق بالأفعال الداخلية، وخمس بالخارجية.

(١) مخافة الله تجعلنا نمارس الوصايا الالهية خوفاً من العقبات اولاً، ثم محبة اجلال تتم في العبادة.  
(٢) خضوع ارادتنا لإرادة الله او الطاعة لها. لو كان عندما خشية الله كنا نعمل ارادته في كل شيء. هذا فعل اتلطح يدل على تعلقنا بالله.

(٣) الطاعة للرؤساء حباً لله. وهي أصعب من الخضوع لله نفسه. لأنه يقتضي لها روح ايمان أعظم، وكفر بالذات اتم.

(٤) الطاعة الصبور في أصعب الامور، بتحمل الاهدانات دون تشكك، ولا سيما من الرؤساء. فالتفكير في المكافأة السماوية واهدانات يسوع ينجحنا فيها.

(٥) الاقرار للرؤساء بالزلزلات الخفية خارج الاعتراف هو فعل اتضاع رادع قوي، ويصون من الهبوط في الهوة.

(٦) الرضى القلبي بكل الحرمانات والاعمال الخسيصة. اذ يعد الانسان ذاته احط منزلة من مركز عمله.

(٧) اعتقادنا الصادق من صميم قلبنا اننا احقر جميع البشر، وهي درجة بلغها القديسون بقولهم: لو حصل الناس على نعم مثلنا لصاروا أفضل منا.

٨) الهرب من الشذوذ: يترك الانسان العمل الخارق، ويكتفي بما يسمح به القانون العام وامثلة الشيوخ والعوائد. أما التفرد فهو علاقة الكبرياء والعجب.

٩) الصمت: معرفة السكوت حين لا نسأل، وحين لا داع للكلام او لنترك لغيرنا فرصة التكلم. والتسرع في الكلام عجب بالذات كبير.

١٠) الحشمة في الضحك: لا يستنكر القديس بناديكطوس ما هو تعبير عن الفرح الروحي. اما الضحك المصنع وبقهقهة وبمزاج وبكركرة فدليل على قلة احترام للحضرة الالهية وعلى قليل الاتضاع.

١١) الاحتراس في الكلام عند الاقتضاء بعدوبة واتضاع ودون جلبه، وبرصانة واعتدال.

١٢) الحشمة في الهيئة: المشي والجلوس والوقوف، والنظر باحتشام ودون تصنع، مع انحناء الرأس قليلا، مفكرين في الله وقائلين اننا غير جديرين ان نرفع عيوننا الى السماء. بعد شرح القديس بناديكطوس هذه الدرجات قال: ايها تقود الى محبة الله التي تنفي كل خوف. محبة الله اذن الحد الذي يقود اليه الاتضاع، ان الطريق وعرة لكن القمم التي تقود اليها هي ذرى الحب الالهي.

اما درجات القديس اغناطيوس فثلاث:

الاولى تقوم بان انذل بقدر ما يمكنني وما هو ضروري لي كي اطيع في كل امر شريعة الله ربنا: ((فلو قدّمت لي ممالك الدنيا او هُدِّت بالموت، فلا اضع تحت البحث احتمالية ان اخالف وصية واحدة من وصايا الله، او من وصايا البشر، تلزمني مخالفتها الخطأ المميت)). هذه الدرجة جوهريه لكل مسيحي يريد ان يحفظ نفسه في حالة النعمة.

الثانية أكمل من الاولى: ((تقوم بان اكون مجرد الارادة والميل التام بين الغنى والفقر، والامجاد والاهانات، والرغبة في حياة طويلة او قصيرة، على ان يعود المجد لله في كلتا الحالتين على السواء، وان يكون خلاص نفسي مضموناً ايضاً في كليهما. وفضلاً عن ذلك، ان عرض لي فكر بان اربح الكون بأجمعه او ان أخلص حياتي من الموت، وارتكب في سبيل ذلك خطيئة واحدة عرضية، فلن اتردد لحظة في طرد هذا الفكر)). هذا استعداد كامل جداً لا تبلغه سوى نفوس قليلة.

الثالثة هي غاية الكمال. تشتمل على الاثنتين الاوليين، وفوق ذلك تطلب، ((على فرض ان يكون مديح العظمة الالهية ومجدها متساويين، ان اقتدي بربنا يسوع المسيح اقتداءً أكمل، وفعلاً أكثر

شبهاً به، وآثر الفقر واتمسك به مع يسوع الفقير أخرى من الغنى. وافضل الاهدانات مع يسوع المشبع اهدانات أخرى من الامجاد. ارغب ان اعد انساناً غير نافع مجنوناً، حباً ليسوع اول من اعتبر هكذا، أخرى من أن تعدني عيون العالم حكيماً فطيناً)). هذه هي درجة الكاملين هذه هي محبة الصليب والهوان بالاتحاد بيسوع وحباً له. حين يبلغ المرء هذه الدرجة يكون في طريق القداسة.

درجات الاتضاع الثلاث حسب قول الاب اولية. فبعد ان بين في التعليم المسيحي ضرورة الاتضاع، وطريقة محاربة الكبرياء، شرح في المقدمة درجات الاتضاع الداخلية الثلاث، التي توافق النفوس الحارة:

**الاولى.** هي ان يسر الانسان بمعرفة ذاته ودناءته ونقائصه وخطاياها. فمعرفة الانسان بؤسه ليست اتضاعاً. فالكثيرون يحزنون حين يلاحظون نقائصهم، فيبحثون عن كمال في أنفسهم يستمر ما يخلجهم وهذا نتيجة العجب بالذات. لكن حين يسر أحد بمعرفته بؤسه، ويجب حقاوته ودناءته فهذا في الحقيقة متضع. متى ارتكب الانسان خطيئة فعليه ان يمقتها، لكن عليه في الوقت نفسه ان يحب دناءته التي اوصلته الخطيئة اليها. ولكن يسر ببؤسه، عليه ان يتذكر ان هذه العاطفة تكرم الله، لان صغارنا تظهر عظمة الله، وخطايا تعلن قداسته. هكذا تقر النفس بانها ليست شيئاً ذا قيمة، وغير جديرة بذاتها لان تعمل الخير، بل كل شيء يأتي من الله ويتعلق به يجب ان يتم كل شيء فينا.

**الثانية.** هي رغبتني في ان اعرف كدنيء وحقير وعدم وخطيئة، وان يحسبني هكذا العالم جميعه. واذ نعرف شقاءنا ونحبه نرغب في ان يعتبرنا الناس، عندئذ نكون مرأين اذ نشتهي ان نظهر أفضل ما نحن. ويا للأسف! اننا نغتم حين يقف الغير على نقائصنا، وعلى ما فينا من الهم كي تنجح اعمالنا، ويعتبرنا الناس. والحال ان من يرغب اعتبار الناس يكون سارقاً ولصاً، لأنه يخصص نفسه بما هو للكائن الاعظم. اما المتضع فلا يكثرث لما يفكر الناس فيه، بل يتألم حين يمدحونه، ويفضل ان يحتمل ألف عار من ان يقبل مديحاً واحداً، فالواحد مبني على الحقيقة، والآخر على الكذب.

**الثالثة.** هي ارادتنا ان نكون لا مجهولين فقط، بل نعامل كادنياء اذلاء محتقرين. هي ان نقبل الاحتقار وكل خزي ممكن بفرح. وبكلمة هي رغبتنا في ان نعامل كما نستحق، واي ازدرأ لا يحق للعدم الذي ليس فيه بذاته شيء جدير بالاحترام، واية مذلة لا تستوجبها الخطيئة التي تبعدنا عن الله خيرنا الوحيد!

علينا ايضاً، حيث يبعث الله الينا باليبوسات ويبلونا بالخذلان الداخلي ويهملنا، ان نتحزب له على ذواتنا، ونعترف ان له الحق ان يرفض اعمالنا وشخصياتنا معاً. وان اضطهدنا رؤساؤنا ونظراؤنا ومرؤوسونا ايضاً، فعلينا ان نسر بذلك سرورنا بأكثر الامور صلاحاً، واوفرها فائدة لنا وأكثر مطابقة لرغبة ربنا يسوع المسيح. ويجب الا نبتغي عن عجب حتى مكاناً سامياً في السماء. لا جرم انه من الواجب ان نريد ان نحب الله بقدر ما يشاء، وان نكون امناء كي على درجة المجد والسعادة التي يعدها لنا. علينا ان نسلم لله امر المكان الذي سنتبواه في السماء. ((عندئذ نتلاشى حقيقة، والله وحده الذي يحيا فينا وبتسلط علينا)).

نتيجة. لكل مما بيناه من نظريات القديسين بناديكتوس واغناطيوس والاب اوليه صوابيتها. فللمرشد ان يشير بما يشير بما يوافق بالأفضل حالة نفس تائبه.

## سمو الاتضاع

لكي نفهم اقوال القديسين في هذا الموضوع، علينا ان نميز الاتضاع بحد ذاته، وكأساس لسائر الفضائل.

اولاً. إذا اعتبرنا الاتضاع نحد ذاته، هو كما يقول القديس توما، دون الفضائل الالهية، التي الله موضوعها المباشر، وهو ايضاً دون بعض الفضائل الادبية، كالفتنة وفضيلة الديانة والعدل الشرعي الذي يُعنى بالخير العام. غير انه يفوق سائر الفضائل الادبية (ربما عدا الطاعة) لسبب شمولها، ولأنها تخضعها في كل امر للنظام الالهي.

ثانياً. وإذا اعتبرنا الاتضاع كمفتاح كنوز النعمة واساس الفضائل، فهو، على ما يقول القديسون، أحد أسمى الفضائل.

(أ) هو مفتاح كنوز النعمة: ((يؤتي المتواضعين نعمة)) (١ بطر ٥:٥).

(١) في الواقع ان الله يعلم ان النفس المتضعة لا تعجب بما يمنحها الله من النعم ولا تتباهى، بل تعزو المجد كله لله. فيفيض فيها غزير نعمه، لان مجده يزداد فيها. وبالعكس يضطر الله الى نزع

نعمته عن المتكبرين: ((ان الله يقاوم المتكبرين)) (١ بطر ٥:٥)، لان المتكبرين يحتكرونها لذواتهم ويفتخرون. هذا ما لا يطبقه الله: ((انا الرب وهذا اسمي ولا اعطي لآخر مجدي)) (اشعيا ٤٢:٥).

٢) فضلاً عن ذلك ان الاتضاع ينزع الانانية والمجد الباطل من نفوسنا، وهكذا يعد فيها عزيمة لقبول النعمة. لأنه، حسب قول القديس برنردس؛ بين النعمة والاتضاع ملاءمة وثيقة: ((من عادة الاتضاع ان يتآلف دائماً الالهية)).

ب) الاتضاع اساس الفضائل كلها، فان لم يكن امها فهو مغذيتها، وذلك لوجهة نظر مزدوجة: أعني ليس من فضيلة راهبة بدون الاتضاع، وبه تصبح كل الفضائل أعمق وأكمل.

١) كما ان الكبرياء هي المانع الكبير للإيمان، فمن الاكيد ان الاتضاع يجعل الايمان انشط وأسهل واثبت وواضح ايضاً: ((لأنك اخفيت هذه عن الحكماء والعقلاء وكشفتها للأطفال)) (متى ١١:٢٥). ما أسهل اخضاع العقل لسلطة الايمان حين نعرف علاقاتنا بالله: ((نسبي كل بصيرة الى طاعة المسيح)) (١ كو ١٠:٥). ومتي ارانا الايمان الكمال الالهي غير المتناهي وعدمنا يثبتنا في الاتضاع.

٢) وهذا الامر نفسه في الرجاء ايضاً: يثق المتكبر بذاته ويعظم قدر قواه، ولا البتة في التماس معونة الله. اما المتضع فيضع كل رجائه في الله، لأنه يتحذر من نفسه. فيجعله الرجاء بدورة أكثر اتضاعاً، لان الرجاء يرينا ان خيرات السماء تفوق قوانا جداً، وأننا بدون عون نعمة الله القادر على كل شيء لا نقدر ان نحوزها.

٣) الانانية عدو المحبة: بالتخلي عن الذات اذن تزداد محبة الله. وبدورها تجعل الاتضاع أعمق، لأننا نكون سعداء إذا تلاشينا امام من نحب. والقديس أغسطينوس يقول بصواب: ((لا شيء من طريق المحبة ولا يسير فيه الا المتضعون)). وايضاً ليس من واسطة آمن لممارسة محبة القريب سوى الاتضاع، الذي يسدل ستراً على نقائصه ويجعلنا نشق على بؤسه بدل ان نستشيط غضباً عليه.

٤) بقدر ما نرى بوضوح وجوب ملاحظة كل شيء والتضحية به لأجل الله، نحسن ممارسة فضيلة الديانة.

٥) الفطنة تتطلب الاتضاع: ان المتضعين يحبون التفكير والاستشارة قبل العمل.

٦) لا تمكن ممارسة بدون الاتضاع، لان المتكبر يبالغ فيما يختص بحقوقه، ولو بخسارة حقوق القريب.

٧) بما ان قوة المسيحي لا تصدر منه نفسه، بل من الله، فلا توجد حقاً الا في من يشعرون بضعفهم ويتكون على من يستطيع وحده ان يقويهم.

٨) قد رأينا ان القناعة والطهارة يقتضيان الاتضاع، فلا نحسن ممارسة اللطف والصبر الا حين نعرف ان نقبل المذلة. اذن نستطيع ان نقول انه لا فضيلة راهنة دون اتضاع. فالاتضاع تنمو الفضائل كلها في النفس وتتأصل عميقاً. نقدر ان نستنتج مع القديس أغسطينوس: ((اتريد ان ترتفع؟ فابدأ بتذليل نفسك. اتحلم بتشديد بناء يرتفع الى السماء؟ قرر الاساس اولا على الاتضاع. فكلما اقتضى الامر ارتفاع البناء، وجب ان يتعمق الاساس)).

## ممارسة الاتضاع

يحارب المبتدئون على الاخص (كما بينا في صفحة ١٠٦ لآخر صفحة ١٠٩ من هذا الكتاب). اما النامون فيجتهدون في ان يقتدوا باتضاع السيد المسيح.

اولاً. يجتهد النامون في اقتناء عواطف يسوع المتضع. كما قال القديس بولس: ((ليكن فيكم من الافكار والاخلاق ما هو في المسيح يسوع الذي اذ هو صورة الله ... لكنه اخلى ذاته آخذاً صورة عبد صائراً في سبه البشر)). (فيلبي ٥:٢ و٧) ينبغي اذن ان نتأمل غالباً، ونعجب ونجتهد في ان نظهر الامثلة التي اعطاناها يسوع في حياته الخفية والعامة، وفي حياته المتألّمة، ولم يزل يعطيناها في حياته الإفخارستيا.

أ) ما مارسه يسوع في حياته الخفية هو اتضاع ملاشاة.

١) حبس في احشاء مريم وحجب صفاته الالهية. وخضع لأمر قيصر (لو ٢:١). تحمل الرفض دون تدمر ولا سيما نكران البشر جميلة: ((الى خاصته اتي وخاصته لم تقبله)) (يو ١:١١). ولد كفقير ولف بقمط ونام على التبن (لو ٢:١٢).

٢) ومارس الاتضاع بعد ولادته: ختن كخاطيء، واقتدي بيمامتين وهرب الى مصر من اضطهاد هيرودوس. وعاش في الناصرة حياة ملاحظة في الطاعة (لو ٢:): وقد قال بوسيه: ((انسحي ايتها الكبرياء لهذا المشهد! يسوع نجار وابن نجار، لا حرفة له غيرها ولا عمل آخرا!))

ب) مارس نسيان الذات في حياته العمومية. وبطريقة رصينة متزنة وصراحة كافية، أعلن انه ابن الله دون بهرجة تغتصب الرضى.

١) احاط به رسل جهلاء قليلو الثقيف والحسب: صيادو سمك وعشارون! فضل من يزدريهم العالم: الفقراء والخطاة والحزان والمعدّمين مواهب الطبيعة وخيرات الدنيا. عاش من الصدقات لا منزل له، تعليمة ساذج يفهمه الجميع. تشابيه وامثاله من الحياة الاعتيادية. لا يلتمس ان يعجب منه، بل ان يمس القلوب بتعليمه.

٢) لا يأتي بالمعجزات الا نادراً. وكثيراً ما كان يأمر من يشفيهم الا يخبروا احداً. لا تصنع في إماتاته. يأكل كسائر الناس. يحضر عرس قانا وما دعي اليه من ولائم. هرب من الشعبية وقر حين ارادوا ان يقيموه ملكاً.

٣) وإذا توغلنا في أعرق عواطفه، نرى كيف عاش كيف بخضوع لأبيه وللبشر. لم يدن احداً: ((انا لا أدين احداً)) (يو ٨:١٥). ((لست اطلب مشيئي بل مشيئة الآب الذي ارسلني)) (يو ٥:٣٠). فضلاً عن ذلك، انه رب العالم وقد صار خادم البشر: ((ان ابن البشر لم يأت ليخدم بل ليخدم)) (متى ٢٠:٢٨). وبكلمة انه نسي ذاته وضحي بها لأجل الله ولأجل البشر دائماً.

ج) ويظهر بالأكثر ما مارسه من هوان الاتضاع في حياته المتألّمة. قد شاء وهو القداسة بالذات ان يحمل ثقل آثامنا ويتحمل عقوبتها كمجرم: ((ان الذي لم يعرف الخطيئة جعله خطيئة من اجلنا)) (٢ كو ٥:٢١). وقد نشأ عن ذلك عواطف الحزن والضعف والسامة في بستان الزيتون. واشبع من الالهانات وخانه يوضاس ولم يخاطبه الا بكلام صداقة: ((نفسى حزينة حتى الموت)) (مر ١٤:٣٤)، ((يا صاحب لاي شيء جئت)) (٥:٢٦) تركه رسله وما انفك يحبهم. أوثق كشرير. احتمل تعبير الخدم. دين ظلماً ولم يبرر نفسه. عامله هيرودوس كمجنون ولم يفه بكلمة.

والشعب الذي غمره باحساناته فضّل برأبا عليه. جلد وكلل بالشوك للهزة به كملك المسارح. حمل الصليب الثقيل دون تدمر. شتمه أعداؤه هازئين به فصلى لأجلهم وعذرهم عند أبيه. احتمل كل انواع المذلات الممكن تصورها بشجاعة ولم يتلفظ بكلمة تشك: ((كان يشتم ولا يرد الشتم وكان يتألم ولا يهدد لكنه فوض امره الى الذي يحكم حكماً عادلاً)) (١ بطر ٢: ٢٣).

أنستطيع ان نتظلم اذن نحن المجرمين كثيراً، ولو اتهمنا ظلماً في بعض مناسبات؟

(د) حياته في الإفخارستيا تظهر هذه الامثلة المتنوعة للتواضع.

(١) قد اختفى هنا أكثر منه في المذود وفي الجلجلة: ((وفي المذود وفي الجلجلة احتجب اللاهوت وحده، اما هنا فقد احتجب اللاهوت والناسوت معاً)) (نشيد القديس توما). فمن داخل مقدسه يلهم المرسلين والشهداء والعذارى ويقويهم ويعزيهم، ويشاء ان يكون مختفياً مجهولاً لا يعد شيئاً. (٢) اية اهانات وشتائم لم يتقبل في سر محبته، لا من غير المؤمنين والكفرة الذين يدنسون جسده، بل من المسيحيين الذين يتركونه وحده في مقدسه، ولا سيما الذين يتناولون مناوالات نفاقية. ولم يتشك بل يقول: ((تعالوا الي يا جميع المتعبين والمثقلين وانا اريحكم)) (متى ١١: ٢٨). فكيف نتردد في اتباعه بعد كل هذه الامثلة لتثيبتنا وتقويتنا في ممارسة الاتضاع؟

ثانياً. فلننظر اذن كيف نمارس الاتضاع نحو الله، ونحو القريب، ونحو نفوسنا.

(١) نحو الله. يظهر الاتضاع خصوصاً نحو الله على ثلاثة اشكال:

(١) بروح الديانة، اذ نعرف بمحبة وسرور عدمنا واثمنا، فنكون سعداء بإعلاننا على هذا المنوال ملء الكيان الالهي وقداسته. فتنشأ عن ذلك عواطف العبادة والحمد والخوف البنوي. وهذا الصراخ من القلب: ((انت وحدك قدوس، انت وحدك الرب))، لا في وقت الصلاة فقط، بل حين نتأمل في اعمال الله ايضاً، حيث تكشف لنا عين الايمان شبهاً حقيقياً واشتراكاً بالحياة الالهية.

(٢) بروح العرفان، الذي يرى في الله مصدر كل النعم الطبيعية، التي نعجب منها فينا وفي الآخرين. عندئذ نمجد الله كالعذراء المتضعة ومعها عن كل ما وضعه الله فينا من الخير: ((تعظم نفسي الرب ... لان القدير صنع بي عظام واسمه قدوس)) (لو ١: ٤٦). وبدل ان نتكبر بهذه المواهب نُؤدي لله عنها كل مجد، ونعرف اننا عنها كل مجد، ونعرف اننا كثيراً قد اسأنا استعمالها.

٣) بروح الامتثال، الذي يجعلنا نعترف بعجزنا عن ان نعمل من ذاتنا شيئاً صالحاً. فلا نأتي عملاً دون ان نلتصق بنعمة الروح القدس، ومعونة من يستطيع وحده ان يعالج تقصيرنا. هذا ما يعمل به مرشدو النفوس الذين، في ممارسة خدمتهم، يعترفون بعجزهم عن خلوص نية، بدل الافتخار بما يبديه لهم المرشدون من الثقة، فيستشيرون قبل اعطاء آرائهم للآخرين.

ب) نحو القريب. فالمبدأ الواجب اتباعه هو: ان نرى ما وضعه الله في القريب من صالح في الوجهتين الطبيعية والفائقة الطبيعة. ونعجب منه دون حسد ولا غيرة. ونستر نقائصه ونعذرنا قدر المستطاع، اقله كلما لا يلزمنا واجب الحالة اصلاحها.

فبقوة هذا المبدأ:

١) نسر بفضل القريب ونجاحه، لان هذا كله يمجد الله: ((حسبي ان المسيح يبشر به على كل وجه بغرض كان او بالحق وبهذا فرحت وسأفرح)) (فيلبي ١: ١٨). لا شك اننا نستطيع ان نتمنى فضائل القريب، لكن علينا ان نلجأ عندئذ الى الروح القدس كي يتنازل ويشركنا فيها. هكذا تتوطد مباراة شريفة: ((وليتأمل بعضنا في بعض تحريضاً على المحبة والاعمال الصالحة)) (عبر ٢٤: ١٠).

٢) ان رأينا القريب ساقطاً في ذنب، فلنصل لأجل هدايته بدل التسخط عليه، ولنقل بصفاء وخلص: لولا نعمة الله لكنا سقطنا في آثام أثقل منها بكثير.

٣) هذا ما يسهل علينا ان نحسب ذواتنا ادني من الآخرين: ((فليحسب بتواضع كل منكم صاحبه أفضل منه)) (فيلبي ٢: ٣). وفي الواقع نقدر ان نحسب خصوصاً، ان لم يكن مطلقاً، صالحاً ما هو في الآخرين، وشرّاً ما هو فينا.

دونك نصيحة القديس منصور دي بول لتلاميذه: ((إذا تعمقنا في درس ذواتنا كي نحسن معرفتها، نجد اننا، في كل ما نفكر فيه ونقوله ونعمله، أكان ذلك في الامور الجوهرية او العرضية، ممثلون من مواضيع الخجل والاحتقار، وإذا لم نتملق ذواتنا نرى اننا، لا أخبت من جميع البشر فقط، بل على وجه ما أردنا من شياطين جهنم: لأنه لو حصلت هذه الارواح التاعسة على ما اعطينا من النعم والوسائل لتحسين حالتنا، لكانت مارستها ألف ألف أكثر منا)).

لقد تساءل البعض كيف يمكن التوصل الى هذا الاعتقاد، وليس هو دائماً وبعده ذاته موافقاً للحقيقة. فلنلاحظ قبل كل شيء ان هذا هو اعتقاد جميع القديسين، وبالنتيجة يجب ان يكون لهذا الاعتقاد اساس متين. وهذا الاساس هو كما يلي: ان كل انسان قاض لنفسه، فمتى تعمق في معرفتها يرى صريحاً انه مجرم للغاية، وفيه فضلاً عن ذلك كثير من الاميال الرديئة. فيستنتج من ذلك انه يجب عليه ان يزدري ذاته. الا انه ليس بقاض للآخرين ولا يستطيع ان يكون، لأنه لا يعرف نياتهم التي هي من اهم العناصر للحكم على سيرتهم. ولا يعرف ايضاً مقدار ما قسمة الله لهم من النعم، التي ينبغي ان نحسب لها حساباً في الحكم على سيرتهم. فبحكمنا القاسي على ذواتنا، والحليم على الآخرين نصل الى هذا اليقين العملي، بانه يجب اولاً واخيراً ان نجعل ذواتنا ادني الجميع.

(ج) نحو نفوسنا. اليك المبدأ الواجب اتباعه: بينا نعلم ما فينا من الخير لنشكر الله عليه، يجب ان نلاحظ خصوصاً ما فينا من العيب، عدمننا وعجزنا وخطيئتنا كي نلازم عواطف الاتضاع والخجل. فبالاستناد الى هذا المبدأ، نمارس بسهولة أكثر الاتضاع الذي يجب ان يشمل الانسان بكامله: عقله، وقلبه، وظاهرة.

(١) اتضاع العقل يتضمن اربعة امور:

الحذر من النفس يحملنا على ان لا نغالي في مناقبنا، بل نتضع لأننا اسأنا استعمال ما منحنا الله الصالح. هذه نصيحة الحكيم: ((لا تطلب ما يعيبك نيله ولا تبحث عما يتجاوز قدرتك)) (سير ٢٢:٣). وهذا ايضاً ما اوصى به القديس بولس الى الرومانيين: ((اني بالنعمة المعطاة لي اوصي كل من فيكم ان يسمو بعقله فوق ما ينبغي بل ان يتعقل تعقل الحكمة على مقدار ما قسم الله لكل واحد من الايمان)) (رو ١٢:٣).

لا نفتش عن اظهار مزايانا واعتبار ذواتنا، بل فلنكن نافعين وعاملين الخير.

هذا ما كان القديس منصور دي بول يوصي به مرسله. وكان يضيف اليه: ((من استعمل مزاياه بخلاف ذلك فهو يبشر بنفسه لا بيسوع المسيح. وهو انسان يبشر كي يفتخر ويصفق الناس له، ويمدحوه ويحترموه ويتحدثوا عنه، ماذا يعمل هذا الرجل؟ ... انه ينتهك القدسيات! اجل انه يستخدم كلام الله والامور الالهية كي يكتسب المجد والشهرة! اجل ان هذا هو انتهاك القدسيات!

ممارسة الامتثال العقلي لا بالامتثال للأحكام الكنيسة المعول عليها فقط، بل بقبول قلبي التدابير الحبرية، حتى لا تكون معصومة من الخطأ، اذ نقول ان في هذه الاحكام لحكمة أكبر من احكامنا الخصوصية.

ان هذه الامتثال يجعلنا نتجنب العناد في افكارنا الخصوصية على المواضيع المختلف عليها. لا شبهة انه يحق لنا ان نتخذ في الامور المبحوث فيها بحرية، المذهب الذي لنا انه اصوب. لكن، اليس من العدل ان نترك الحرية نفسها للأخرين؟ ...

(٢) اما اتضاع القلب فيتطلب عوض الرغبة في المجد والشرف والسعي وراءهما، ان نقنع بالحالة التي نحن فيها، وان نفضل الحياة الخفية على المناصب السنية: احبب ان تكون مجهولاً وتحسب كلا شيء. ويمتد هذه الاتضاع الى ما ابعد: انه يستر كل ما شأنه ان يحبب الغير بنا فيحترمونا، ويرغب في المكان الاخير، لا في مناصب العالم فحسب، بل في اللحظة عندهم: ((امض واتكى في آخر موضع)) (لو ١٤: ١٠). ويرغب ايضاً في ملاشاة سمعتنا على الارض تمام الملاشاة.

ولنصغ الى مقال القديس منصور دي بول: ((علينا الا نلتفت ابداً الى ما فينا من الخير، ولا نتوقف عنده، بل ندرس ذواتنا كي نعرف ما فيها من الشرو النقص، فهذه وسيلة كبرى لحفظ الاتضاع. اذ ليست موهبة هداية النفوس، ولا سائر ما فينا من المناقب هي لنا، فما نحن سوى حاملين لها، وبهذا كله قد نهلك هلاكاً ابدياً. لذلك يجب الا يعجب أحد بنفسه، ولا يسر بها، ولا يفكر في اية حظوة خصوصية، اذ يرى ان الله يفعل بواسطته اموراً عظيمة. بل عليه ان يزداد اتضاعاً ويعرف ذاته كآلة حقيرة يتنازل ويستخدمها.

(٣) يجب الا يكون الاتضاع الخارجي سوى مظهر للعواطف الداخلية. ويمكننا القول ايضاً ان افعال الاتضاع الخارجية تؤثر في استعداداتنا كي توطدها. فعلياً اذن الا نهملها بل نصحبها بعواطف اتضاع حقيقية، وبالنتيجة يجب ان نذل نفسنا وجسداً معاً.

ان منزلاً حقيراً واثواباً محتشمة نصف بالية مرقعة، بشرط ان تبقي نظيفة، تحمل على الاتضاع. ومنزلاً مؤثناً واثواباً فاخرة تحمل بسهولة على عواطف تضاد هذه الفضيلة.

ان جلسة ومشية وهئية محتشمة وضية دون تصنع، تساعد على ممارسة الاتضاع. فالمهام الوضية كالشغل اليدوي وترقيع الاثواب تنشئ النتيجة نفسها.

كذلك ما نبديه من المراعاة للآخرين هو دليل على التنازل والادب ومساعد على الاتضاع.

وفي المحادثات، يحملنا الاتضاع على ان نجعل الآخرين يتحدثون عما يهمهم، ويجعلنا نتكلم قليلاً. و على الخصوص يمنعنا الاتضاع ان نتكلم عن نفسنا و عن كل ماله صلة بلفظة انا: لكي يستطيع الانسان ان يتكلم بالشر عن ذاته، بغير ان يبطن شيئاً، ينبغي ان يكون قدساً. اما الكلام عن ذاتنا بالخير فما هو سوى تبجحٌ. ينبغي ايضاً الا نعمل اعمالاً جنونية بحجة الاتضاع؛ كما يقول القديس فرنسيس سالس: ان تظَاهَر بعض الكبار من خدام الله بالجنون كي يزيد العالم احتقارهم، ينبغي ان نعجب بهم، لا ان نقتدي بهم، لان اسباباً خصوصية وخارقة دفعتهم الى هذا التطرف الذي يجب ان لا يتخذ أحد منه اية نتيجة. فالاتضاع اذن فضيلة عملية جداً ومقدسة للغاية، تشمل الانسان كله وتساعدنا على ممارسة سائر الفضائل، ولا سيما الوداعة.

## الوداعة

بصواب يقرن ربنا يسوع الوداعة بالاتضاع، لان ممارستها غير ممكنة بدونه مطلقاً. سنبحث عن: طبيعتها، وعن سموها، وعن ممارستها.

## طبيعة فضيلة الوداعة

اولاً. عناصرها. الوداعة فضيلة مركبة تحتوي ثلاثة عناصر اساسية:

(أ) بعض التسلط على الذات يتدارك حركات الغضب ويلطفها: من هذه الوجهة تتعلق بالقناعة.

(ب) احتمال نقائص القريب الذي يتطلب الصبر، وبالأمر نفسه فضيلة القوة.

(ت) العفو عن اهانة القريب والرفق بالجميع، حتى بالأعداء: فمن هذه الوجهة تتضمن المحبة.

انها كما نرى مجموعة فضائل أخرى من انها فضيلة واحدة.

ثانياً. اذن نقدر ان نحددها: فضيلة ادبية فائقة الطبيعة تتدارك الغضب وتحتل القريب بالرغم من نقائصه وتعامله برفق. اذن ليست الوداعة ذلك الضعف المزاجي الذي يكظم غلاً عميقاً تحت

ظواهر الوداعة. انها فضيلة داخلية تستقر في الارادة والحس كي تجعل السكينة والسلام سائدين فيهما. لكنها تبدو الى الخارج بالكلام والحركات بأساليب لطيفة تمارس مع القريب، بل تمارس ايضاً مع الذات نفسها، كما تمارس نحو الكائنات الحية او الفاقدة الحياة.

## سمو الوداعة

الوداعة فضيلة سامية بذاتها وبمفاعيلها.

بذاتها. كما قال الاب اوليه: ((هي كمال المسيحي، لأنها تفرض فيه ملاحظة كل خاص، والموت عن كل منفعة)).

ثم يضيف قائلاً: ((تكاد الوداعة الحقيقية لا توجد الا في النفوس البارة، حيث جعل يسوع مقره الدائم منذ تجديدها المقدس)). اما في التائبين فلا نجد الوداعة كاملة الا نادراً، لان القليلين منهم يعملون بنشاط كاف و ثبات على استئصال ما الفوه من النقائص. قال بوسيه ايضاً: ((ان العلامة الحقيقية للطهارة المصونة او المسترجعة انما هي الوداعة)). ان أكبر فوائد الوداعة هي استتباب السلام في النفس، مع الله ومع القريب ومع الذات.

أ) مع الله. لأنها تجعلنا نقبل بهدوء وطلاقة وجه كل الحوادث حتى اشقها، كوسائل للنمو في الفضائل ولا سيما في محبة الله. وقد قال القديس بولس: ((نحن نعلم ان الذين يحبون الله كل شيء يعاونهم للخير)) (روا: ٢٨).

ب) مع القريب: لأنها، اذ نستدرك حركات الغضب ونقمعها، تجعلنا نحتمل نقائص القريب، وتسهل لنا ان نحفظ معه صلوات حسنه، او اقله لا نضطرب في داخلنا ان سخط الآخرون علينا.

ت) مع ذواتنا: حين نرتكب هفوة او غلطة، لا نفقد الصبر ولا نغضب. بل فلنعد عن خطانا بسكينة ورفق دون دهش، مستفيدين من الخبرة المكتسبة كي نكون أكثر انتباهاً. هكذا بجانب نيقصة من: (إذا عرض لهم وغضبوا، يغضبون لأنهم غضبوا، ويغتمون لأنهم اغتموا، ويغتاطون لأنهم اغتاطوا)) (فرنسيس سالس). هكذا نحفظ السلام، أئمن الخيرات.

## ممارسة فضيلة الوداعة

يمارسها المبتدئون بمحاربتهم الغضب والرغبة في الانتقام، كما يحاربون حركات النفس الشهرية كلها. اما النفوس المتقدمة فتجتهد ان تجلب اليها وداعة يسوع، التي يعلمانها بشكل غريب بأقواله وامثلته.

(ا) فهو يعلق اهمية عظمى على هذه الفضيلة، التي شاء ان يبشر بها الانبياء كأنها احدى علامات المسيح. وقد عين الإنجيليين انجاز هذه النبوة: ((هوذا عبدي الذي اعضده مختاري الذي سرت به نفسي قد جعلت روجي عليه فهو الحكم للأمم. لا يصيح ولا يجلب ولا يسمع صوته في الشوارع. قصبه مرضوضة لا يكسر وكتاناً مدخناً لا يطفئ، يبرز الحكم بحسب الحق. لا يني ولا ينكسر الى ان يجعل الحكم في الارض فلشريعته تنتظر الامم)) (اشياعا ٤٢: ١-٤).

يقدم لنا ذاته كمثال فهذه الوداعة ويدعوننا كي نكون تلاميذه، لأنه وديع ومتواضع القلب: ((تعملوا مني أي وديع ومتواضع القلب)) (متى ٢٩: ١١).

(ت) يحقق تماماً مثال الوداعة الاعلى الذي رسمه الانبياء. وحين بشر بالإنجيل، لم يبشر بجداول وعناد وحدة، بل بهدوء وسكينة.

لا جلبة في صوته ولا صراخ غير نافع ولا كلام غضب: فالجلبة تمر ولا تعمل خبراً. تصرفاته وديعة حتى انه لا يكسر قصبه مرضوضة، ولا يطفئ فتيلة مدخنة، أعنى فيها شرارة الايمان والمحبة الباقية في نفس الخاطئ. ولكي يجذب البشر اليه، لم يكن حزيناً ولا طائشاً: فكل ما فيه يدل على اللطف. ويدعو اليه المثقلين بالأتعاب كي يلتمسوا الراحة فيه.

(ث) نظراً الى الرسل:

(١) تصرفه مملوء وداعة: احتمل هفواتهم وجهلهم وخشونتهم. راعاهم في سلوكه معهم، ولم يوح لهم الحقيقة الا شيئاً فشيئاً على قدر طاقتهم، وترك للروح القدس امر العناية بتتميم عمله. دافع عنهم ضد تُهم الفريسيين الظالمة الذين لاموهم انهم لا يصومون. إلا انه وبخهم على تقصيرهم في معاملة الاطفال بوداعة، وحين ارادوا ان تنزل نار من السماء على قرية السامرة. وويخ بطرس حين ضرب ملخص بالسيف. الا انه غفر له ايضاً نكران المثلث، وجعله يكفره بإعلانه المثلث لحبه.

٢) اشار بالوداعة على الفعللة الرسوليين: ان تكون عندهم وداعة الحمامة، لا دهاء الحية. وان يكونوا كالخراف بين الذئاب، لا يقاومون الشر، بل يقدمون الخد الايسر لمن لطمهم على الايمن. وان يعطوا رداءهم وقميصهم أخرى من الذهاب للقضاء. وان يصلوا لأجل من يضطهدهم.

ج) اما الخطأة الاكبر جرماً فيغفر لهم عن رضى، حالما يرى عندهم اقل إثر للتوبة.

تلقى بعدوبة كبرى اعتراف السامرية واهتداءها. وغفر للخاطئة وللص النبيه، لأنه اتى لا ليدعو الصديقين بل الخطأة الى التوبة. فتش كراغ صالح عن النعجة الضالة واعادها الى الحظيرة وحملها على منكبيه، وبذل حياته ايضاً عن اغنامه.

وان خاطب احياناً الفرنسيين والكتبة بقساوة، فذلك لأنهم يفرضون على الغير نيراً لا يطاق، ويصدونهم عن الدخول الى ملكوت السماوات.

ح) لم يفتأ يعامل بوداعة حتى اعداءه: يوضاس الخائن، سماه صاحبه. ومن فوق الصليب صلى لأجل جالديه، وطلب لهم الغفران بسبب جهلهم.

خ) لكي نفتدي بربنا يسوع: نتجنب المنازعات والصحف، والاقوال او الافعال الجارحة او الفظة، كي لا ننفر الجبناء. ونجتهد الا نكافئ الشر ابدأ. والا نحطم شيئاً بعنف. والا نتكلم ونحن مغضبون.

ولنجتهد ان نراعي في معاملاتنا كل من يدنو منا، ونبدي للجميع بشاشة وتهلاً وطلاقة، ولو اتعبونا واسأمونا. وان نقابل بجودة خصوصية الفقراء والحزن والمرضى، والخطأة والجبناء والاولاد. ونخفف ببعض كلمات طيبة ما نضطر الى ابدائه من التبكيت. وان نخدم بسرعة مقدسة عاملين احياناً أكثر ما يطلب اليانا، ولا سيما ان نعمل ذلك بلطف. ونكون على استعداد لتحمل صفة ان اقتضى الامر، بدون ان نقابلها بالمثل، ولتقديم خدنا الايسر لمن صفعنا على الايمن.

اما الكاملون فيجّدون في ان يقتدوا بوداعة الله نفسها، كما لاحظ الاب اوليه: ((هو الوداعة بالذات، وحين يشاء ان يجعل النفس تشترك بالوداعة يستقر فيها حتى لا يبقى فيها للجسد شيء، ولا تعود لذاتها. بل تتلاشى في الله وفي كيانه، وفي جوهره، وفي كمالته: بنوع ان كل ما عمله، تعمله بالوداعة.

ولو عملت بحمية تتممه دائماً بالوداعة. لأنه ليس للمرارة والكراهية حظّ مع الوداعة، كما انه لاحظ  
لهما مع الله)).

## نتيجة

لكي لا نسهب في الكلام، نختم هنا بيان الفضائل الرئيسية.

أ) انها تنظم كل قوانا وتلطفها وتكملها بإخضاعها لسلطان العقل والارادة. هكذا يتنسق فيستقر في  
نفسنا، شيئاً فشيئاً، النظام الاساسي، وخضوع الجسد للنفس، والقوى الدنيا للإرادة.

ب) انها تعمل أكثر من ذلك ايضاً: انها لا تزيل كل موانع الاتحاد الالهي فقط، بل تشرع في توثيق هذا  
الاتحاد. لان الفطنة التي نكتسبها هي اشتراك في حكمة الله. وعدلنا اشتراك في عدله. وقوتنا تصدر  
عن الله وتوحدنا به. وقناعتنا تشركنا في الاتزان البديع والتآلف الكائن فيه. وإذا اطعنا رؤساءنا فالله  
نفسه الذي نطيع. ليست الطهارة سوى واسطة تقربنا من طهارة الله الكاملة. ولا يفرغ الاتضاع نفسنا  
الا ليملاها من الله. وما وداعتنا سوى اشتراك في وداعة الله نفسها. واذ يتهيأ هذا الاتحاد بالله على  
هذا الاسلوب بواسطة الفضائل الادبية، يتكمل بالفضائل الالهية التي الله هو موضوعها.

(تتمة طريق الاستنارة في الجزء الثالث)

انجزت المطبعة الكاثوليكية في بيروت طبع

((خلاصة التصوف المسيحي: ٢. المبادئ))

\_ وهو الحلقة الثالثة من ((الينبوع الحيّ)) \_

في الخامس من كانون الاول سنة ١٩٥٧